

يوسف السباعى

الأيام والليالى

علاء الدين وحيد



يوسف السباعى

الأيام والليالى

يوسف السباعي

الأيام والليالي

علاء الدين وحيد

الطبعة الثانية

دار سنابل للنشر والتوزيع
المنصورة ١١٢ شارع السكة القديمة
ت: ٣٧٠٩٠٦

مقدمة

سألت يوسف السباعى يوماً: ألم تكتب مذكرات خاصة؟ فكان جوابه: ولماذا .. ما حاجتى إليها؟ لقد كتبت أدق تفاصيل حياتى فى قصصى .. فما هى الحاجة إذن إلى مثل هذه المذكرات. وهذا صحيح، فلن نجد أديباً عربياً استوحى حياته فى كتاباته كما فعل يوسف السباعى بالذات، كأنما شاءت طبيعته منذ البداية أن يبعد صاحبها بفنه عن الافتعال .. فحبه للصدق وصراحته فى حياته العامة والخاصة وانطلاق موهبته فى هذا الفن الذى يمكنه بسهولة استيعاب عنصر البوح أى القصة، جعله يكتب اعترافاته أو مذكراته الشخصية .. جزءاً لا يتجزأ من فنه .. يكتبه من هذه الناحية وهو آمن مطمئن! ولهذا فإن دارس يوسف السباعى وكتاباته لا يحتاج إلى تخمين كثير أو افتعال بالمرة، ليلتقط هذا الملمح أو ذاك من أدبه لينسبه إلى أحداث الفنان الخاصة! يؤيده من ناحية السباعى نفسه إيمانه بحق القراء فى معرفة كل ما يتصل بالشخصيات العامة وأصحاب الأقلام.

يقول فى مقدمة كتابه "من حياتى" الذى أصدره فى

سبتمبر ١٩٥٨: "إن حياة الكاتب ليست ملكاً خاصاً به بل هى ملك مشاع بين القراء. ولا يمكن حجبها عنهم. وهم إن لم يلتقطوها متناثرة فى كتاباته .. قدمها إليهم النقاد مكشوفة فى تراجمه .. وأنا هنا أقدم إليكم قطعاً من حياتى أقتطفها كما هى، وألقى بها إليكم عارية مجردة لا أثر فيها لخيال قاص أو ابتكار مؤلف .. وبيدى لا بيد عمرو"!

وهكذا أستطيع أن أقول إن هذه الكلمات التى تستوعبها هذه الصفحات هى نتاج جلسات طويلة عديدة مع فناننا الكبير .. أدبه وشخصه.

(١)

شاء له القدر أن يكون أبوه هو محمد السباعى، صاحب التكوين النادر فى جيله، المتحرر من المفاهيم التقليدية، فى وقت كانت هذه المفاهيم قيداً من صلب لا يلين يضغط على الأجساد والأرواح فيجعلها سجينة .. لقيم ضد الطبيعة والفطرة على حد سواء. ولعبت هذه الأبوة فى حياة أبناء صاحبها دوراً هاماً خاصة بالنسبة إلى الأوسط منهم وهو يوسف. ولاشك أن الأطفال جميعاً أدركوا بعد قليل، أن أباهم يختلف كثيراً وربما على طول الخط مع غيره من الآباء .. فى كل شىء .. فى الوظيفة، التى تجعله لا يذهب بانتظام كسائر الموظفين إلى أعمالهم فى ساعة معينة ويعود فى ساعة معينة .. بل يبقى أثناء ساعات العمل فى بيته بينما الآخرون فى دواوين الحكومة! لأنه أديب قبل كل شىء. قبل أن يصدر قانون لاتحاد الكتاب بأكثر من ستين سنة، وقبل أن يكون الأدب "مهنة" لا يزال المجتمع ونحن فى أواخر التسعينيات لا يعترف بها! ويختلف أيضا فى صراحته "المفزعة" التى لا تعرف المجاملة أو الدبلوماسية أو نفاق المجتمع .. ويختلف كذلك فى اختياره للأصدقاء، فإن ما تعارفنا عليه لا يجد عنده اهتماما أو امتثالا .. فهو

يقبل على الشخصيات التى يمكن للمجتمع -أو هو يفعل- أن يسمها بالوضاعة، ويبتعد بل ينفر من الناس المشهورين والأسماء اللامعة! نفس الأسلوب فى بيته .. فهو ليس الأب "الكشرى" جامد الملامح عنيف الحركة صارخ النبرة .. بل الأب المرح الرقيق ابن النكتة حتى مع أطفاله وهم أقرب إلى الطفولة.

ومن الطبيعى والحال هكذا، أن يقوم الصراع فى نفوس الأبناء بين منهج هذا الأب الحبيب التحررى، وبين مفاهيم الأم الجامدة التقليدية .. فهى تريد أن تربيهم على ما ألفت وألف مجتمعها، بينما يأنف رائد الأدب المصرى من أن يساير الجمود الذى يطبع أسلوب التربية فى مجتمعه. وقد أدى هذا الصراع إلى الكثير من ألوان هذا التناقض الذى ذكره ابنه يوسف أكثر من مرة فى كتاباته. ومواقف محمد السباعى معروفة فى هذا الجانب، وأشهرها مكافأة الابن الراسب فى الامتحان لا الناجح، لأن الثانى يكفيه نجاحه! وتدليله لصغاره الذين حبستهم الأم فى حجرتهم ليستذكروا دروسهم، بدعوته إياهم إلى عدم الإكثار وإرهاق نفوسهم .. راويا لهم النوادر مازحا معهم! .. مغنيا لهم رافعا صوته القوى حتى يسمعه سابع جار! يقول عباس خضر فى كتابه "كتابنا فى طفولتهم" الصادر فى سلسلة "كتب ثقافية" - ٢٢ ديسمبر ١٩٦٠-: كان أهم مصادر السعادة والحب والإعجاب المتبادل بين السباعى الكبير والسباعى الصغيرة، وهو يتمثل من جانب الصغير فى تقديره لصفات الكبير

الشخصية والأدبية، ويتمثل من جانب الكبير فى تقديره أيضاً لصفات الصغير الشخصية وما يتوسم أن يكون عليه فى المستقبل. رآه يوماً يجلس إزاء والدته واضعاً رجلاً على رجل غير عابئ بأوامرها وتهديداتها، فبدلاً من أن يقول له "عيب يا ولد .. نزل رجلك"، أعرب عن إعجابه بهذا الوضع الذى يدل على قوة الشخصية والاستهانة بالمستبد، وقال إنه سيكون وزيراً .. وأبدت الأم استياءها من تشجيعه على "قلة الأدب" وسخرت من نبوءته الخيالية" (ص١٠٠)! وبالطبع كانت فى حاجة إلى الانتظار حتى ١٨ أغسطس سنة ١٩٧٣ ليؤلف أنور السادات رئيس الجمهورية. وزارته التى يشغل فيها ابنها لأول مرة موقعة .. وزيراً للثقافة!

(٢)

أغلب ملامح الأم المصرية التى يرسمها يوسف السباعى فى قصصه، ينقلها نقلاً مباشراً من ملامح أمه هو. وهذا يعكس صدقه، لأن صلته العائلية تعد من أوثق الارتباطات الوجدانية التى يتنفسها .. والتى تنبع أصلاً من فهمه للعلاقة الإنسانية. فهى ليست بنت لحظتها أو مجرد دردشة، أو مصاحبة لمنفعة .. وإنما هى من أثمن ما فى الوجود من أشياء، ولذلك فهو شديد الحفاظ عليها. ومن هنا أيضاً نعرف إخلاصه الشديد فى صداقاته. وإذا كان هذا هو موقفه من الآخرين، فيمكننا أن نتصور علاقته بقرابة الدم. ولقد كتب كثيراً عن أبيه وتأثره به، كما كتب كذلك عن والدته فى نطاق خشيتها المفرطة على أولادها، يذكر عنها فى إحدى قصصه: "عجيبة هذه الأم: إنها تضيع نصف وقتها فى توهم أخطار تحيق بنا .. والنصف الآخر فى محاولة درء هذا الأخطار! حتى أضحى كل شىء لدينا ممنوعا محظورا .. فلعب الكرة، محرم علينا لأنه يعرضنا لضربة الشمس .. الذهاب للصيد والسباحة قد يؤدى بنا إلى الغرق، وركوب الدراجات سيدفع بنا حتما تحت عجلات الترام. ويخيل إلى أن الأمر سيفضى بها إلى أن تغلق علينا

إحدى غرف الدار فلا نبرحها حتى نبلغ أرذل العمر!".

ويقول أيضا فى موضع آخر: "كانت والدتى تجد فى ثلاثة أرباع الأعمال التى يباشرها الصبية .. ونباشرها نحن -أنا وإخوتى- بالتبعية .. خطورة على حياتنا .. وكانت لا تكاد تطمئن على حياتنا إلا ونحن جلوس أمام المكتب أو نيام فى الفراش .. كان لعب الكرة والتجديف والسباحة وعبور الطريق وركوب الترام و.. من المهالك والأخطار التى يجب علينا تجنبها .."!

وما أشد ما أثرت السيدة "عيشة المصرى" فى ابنها يوسف .. إن بصماتها على حياته لم تتحدد فى الملامح العريضة فحسب، بل فى الظلال الخفيفة، التى تبدو هامشية فى مجال "التربية" أو السلوك الاجتماعى التى تعكس ما كانت الأم تبث فيه من مفاهيم. فهو قد تعلم مثلا منذ أن كان طفلا صغيرا، أن يتناول والابتسامة الحقيقية أو المتكلفة على شفتيه .. كل ما يقدم إليه المضيف من "المشروبات" سواء أحبها أم أبغضها! .. خاصة القهوة، يحتسيها مرغما وسريعا .. عملا بنصيحتها، ألا يرفض .. "حتى لا يضطر المضيف إلى أن يكلف نفسه فيحضر لى شيئا آخر"! ويفعل صاحبنا وهو يدرك فى حكاية القهوة بالذات، أنه مقبل على أن يلسع لسانه .. ففى معظم الأحيان يصاب بهذه اللسعة وهو يشربها ولا يدرى كيف .. كأنها أصبحت عادة أو احتفالا بذكرى أيام صباه!

وننتقل إلى ملمح آخر يتصل بكثرة انتقال أسرة محمد السباعي - تبعاً لظروفه الاقتصادية- بين المساكن. فهذا التنقل الدائم خاصة أيام جنينة ناميش فى السيدة زينب، يصل فى إحدى السنوات ولنستحضر بيت زمان وأثاثه الكثير الثقيل، إلى أربع مرات -"فراهم إيه"؟!- وبيت منها كما يذكر الابن الأصغر أحمد السباعى، كان يشغل مبنيين كبيرين "سرايتين" يوصل بينهما ممر علوى .. ليس هذا فحسب، بل كان للبيت فناء واسع وحديقة كبيرة تشمل بعض أشجار الفاكهة!

ولعل ذكريات أحمد السباعى هذه، تفسر للقارئ المعاصر الذى يعيش منذ أواخر الأربعينيات فى طراز آخر من المساكن، التى هى أشبه بالمكاتب أو الثكنات فى ضيقها وانخفاض سقفها .. مصادر قصص يوسف السباعى، التى اتخذ العديد منها وخاصة القصيرة، مواقفه بين دهاليز وسراديب هذه المساكن. وبين السلاملك والحرملك .. وما كانت تضفى ضخامتها واتساعها من روح و"براح" وما تعكس من عصر سابق آذن بزوال.

ومن الطريف أن كثرة الانتقال بين البيوت، كان عاملاً مساعداً بالنسبة للصغار فى إلهاب مشاعرهم، تجاه الأساطير التى يسمعون فيختلط الواقع بالخيال. ويستعيدون الأحداث الخارقة التى كانت تقع على مسارح شبيهه بما يقطنون .. فيظنون أن الجو مهيأ تماماً لاستحضار هذه الأحداث السحرية مرة أخرى فى أيامهم. ومن هنا كان

انفعال الأطفال والصبية، بالأجواء الغامضة التى يولدها الارتفاع الشاهق للأدوار، والزجاج الملون للنوافذ، والحجرات العديدة للسكن، والغرف السحرية فى المنازل، والدهاليز المتشعبة فى الأدوار السفلى والبدرومات .. كافيا ليدفعهم إلى الإيمان بالسحر والكنوز والقصص البوليسية. وبالتالى إلى إمكانية مزاولة الحوار والسحر أو تسيد القوى الغيبية، وكذلك اكتشاف ما أخفى الآباء والأجداد من النفائس الذهبية والمجوهرات والأموال تحت الأرض وفى الجدران وفى الصحراء. وأيضا القدرة على القيام بأدوار البطولة والشجاعة، وتفتيق الأذهان التى يسعى بها ملتون توب وشرلوك هولمز وأرسين لوبين وغيرهم فى الكشف عن الجرائم التى تبدو مستعصية الحل .. والقبض على مرتكبيها المجرمين الدوليين!

ولكن إذا كان الأب الفنان القلق الذى يحب التنقل والتغيير ويكره الاستقرار، هو من كان دائما خلف التكرار أو الاستمرار فى الانتقال من مسكن إلى آخر حتى أصبحت "عادة"، إلا أن الست أم يوسف نفسها كانت هى فى إحدى المرات السبب المباشر فى انتقال الأسرة إلى منزل آخر .. وكان الأب بريئا من هذه التهمة.

كانوا يسكنون يومها فى جنينة ناميش، وأسرة محمد السباعى لم تسكن بيتا واحدا فحسب فى جنينةناميش كما قد يتبادر إلى الذهن، فما أكثر المنازل التى سكنتها فى هذا الحى بالذات. أحد هذه البيوت وهو الذى نتحدث عنه،

كان فى شارع الخليج، ويطل على سكة حديد حلوان .. ومن البيت يستطيع الواقف فى الشرفة أو النافذة، أن يشاهد بوضوح كوبرى المنيرة الذى يربط بين المنيرة وجنينة ناميش ويرتفع فوق السكة الحديد. وفى أحد الأيام ما كادت الست أم يوسف تنظر ناحية الكوبرى وتتأكد مما ترى، حتى صرخت وولولت وكادت أن تخر مغشياً عليها! فقد كان الأمر أقسى مما تحتمل .. وهل هناك أكثر من أن تشاهد أصغر أبنائها أحمد واقفاً على الكوبرى، الذى يعنى لديها أنه معرض من خلال فتحاته، للسقوط .. وأين؟ فوق قضبان السكة الحديد التى "تشفى" طوال النهار بالقطارات الذاهبة والآيبة؟! وليته معرض فحسب بل زمانه قد سقط وانتهى الأمر .. واستمرت تصرخ، وكان الابنان الأكبران محمود ويوسف فى البيت قد جاءا على عذابها. وحاولا أن يخففا عنها ويبعدا عن خيالها العنصر المأساوى، ولكن ذلك أشعرها بالضد .. بأنهما يحاولان أن يخففا عنها "المصاب"! فزاد فزعها وتشاؤمها، فنهرتهما مطالبة إياهما أن ينزلا فى الحال ويأتيا به، قبل أن تقع الواقعة -بحق وحقيق- ويذهب الطفل فى "شربة ماء" لافظاً أنفاسه! وأسرع الصبيان، وأوحى إليهما حال الأم الفزعة بحدوث المكروه .. لم لا فعلاً؟ عادى جداً! وتملكهما الرعب. يقول السباعى عن هذا الحادث الذى يذكره بتفاصيله بعد أكثر من ربع قرن: "انطلقت أنا ومحمود إلى الكوبرى فى حملة إنقاذ، وأنا أتخيل أحمد قد شاور عقله وتسلل من بين

قضبان الكوبرى ثم هوى على الأشرطة وفلقت دماغه. ثم أقبل القطار فأكمل على بقيته .. وأعدو منطلقاً وأنا أسابق الريح. وأخيراً وصلنا إلى الكوبرى .. ولكن .. فيما يبدو لنا .. متأخرين .. إذ لم يكن أحمد فوق الكوبرى. وببطء .. وسكون .. وذهول نظرنا إلى أسفل .. ثم نظرنا إلى بعضنا البعض فى دهشة .. إننا لم نجد له أثراً، ولم نعرف كيف نعود لوالدتنا .. بغير أحمد .. أو حتى .. جثته. وظللنا مشدوهين على الكوبرى لا نستطيع حراكاً .. حتى حانت منا التفاتة إلى شرفة البيت من بعيد، فوجدنا بها .. الوالدة .. الحزينة .. ومعها .. أحمد!!".

وسكن مثل هذا البيت، وصاحبته على هذه الشاكلة من الإحساس الزائد .. كان أمراً مزعجاً لقاطنيه أنفسهم ولا يمكن احتماله طويلاً .. وقد كان .. و"عزلوا" منه!

(٣)

ولاشك أن السيدة هنومة زوجة إبراهيم المصرى، صاحب وكالة عطارة بالمنصورة، تستأهل وقفة .. والسبب أن أحد أحفادها، استطاع بما صوره من قسوتها عليه بالذات فى طفولته، أن ينقل أحاسيسه الفزعة منها إلى القارئ. ويبدو أن هذه السيدة كانت من هذا الصنف الذى يتوحد فى حبه، فلا يستطيع أن يشرك بمن يحب شخصا آخر. وكانت هذه الجدة تدخر حبها لبكر ابنتها .. محمود السباعى. فلما جاء الابن الأوسط يوسف بعد سنتين تقريبا، كان معنى هذا أن يوقف تدليل محمود عند حد وأن يتم فطامه -الذى كان يجب أن يبدأ قبلها- فورا ليترك لبن الأم للوليد .. ولم يكن هذا ليرضى الجدة. فكان هذا بدء غضبها الذى تحول إلى ما يشبه الحقد على الابن الثانى .. ولم تكن تكتم عاطفتها هذه أو تخفيها بل تصرح بها وتعلنها على رءوس الأشهاد! وويل للمسكين إذا وقع فى يدها لن ينجيه أحد منها وخاصة إذا "استفردت" به. ولهذا كانت هذه الجدة تشكل الرعب المتجسد الذى يمشى على قدمين، وليس كرعب الغيلان أو الجن أو العفاريت التى لم يلق منها مثل هذا الشر. ولعل هذا هو الذى جعله

عندمـا يكـبر لا يعـترف لسـكان العوالـم السـفلية بوجـود، ولا يخاف منهم أو يخشـاهم ويتمنـى لـو يلتقـى بواحـد منـهم!

وكـانت طيبـة هـذه السـيدة مـع محمـود هـو الاسـتثناء، أمـا القـاعدة فللبـاقين جميعـاً وأولـهم أخـوه يوسـف .. فقـد كـانت معروفـة بالقسـوة والوجـه المكفـهر. وكـانت ذات بنيـة قويـة وشـخصية مسـيطرة لا تعـرف التوسـط فـى الأمـور أو المرونـة، ولعل أحـد أسـباب ذلـك كـان مرضـها ومـا تتعـرض لـه مـن نوبـات صرع. بجانب مـا تحفـل بـه حياتـها مـن ذكريـات حزينـة تتمثـل فى أبنـاء وبنـات فقدتـهم صغـاراً .. وكـأم مصريـة لـم تنـس هـذا الثكل أبـداً، وانتفض فـى وتـر مشـدود وليس فـى لمسـة حنـان. وإذا كـانت مـن أصـل قـروى. وتزوجـت فـى المنصـورة مـن صـاحب وكالـة العطـارة، فـهى لـم تكتـف بالمدينـة وتقطـع صلتـها بالقريـة .. بـل هـى تقطـن فـى المنصـورة وكأنـها لـم تغـادر القريـة. فـهى لا تستسـيغ الرغيـف السـوقى، بـل تصـر علـى الرغيـف الريفـى المرحـرح. وتنشـئ أكـثر مـن عشـة علـى السـطوح لتربيـة الدجـاج والبـط والأوز والحمـام أيضـاً، وتمـلأ الشـقة بأجولـة الأرز والقمـح والـذرة .. وكأنـها لا تـزال فـى قريتـها سـللنت تمامـاً! وأكـثر مـن هـذا، كـانت تملـك بعـض الأفدنـة فـى هـذه القريـة التـى تتبـع عاصمـة الدقهليـة وقريبـة منها .. فكـانت هـى التـى تزرعـها بنفسـها وتقـوم فـى الغيـط كـأى فـلاح بـارع حتـى يجـىء المحصـول، وإذا كـان قطنـاً فـهى لا تغادر القريـة حتـى تبيعـه بأحسـن سـعر!

وهكـذا كـانت الجـدة أم عطيـة. هـى مبعـث بـلاء يوسـف

السباعى الحقيقى فى طفولته. وكان من بواعث أحزانه المتصلة، أن تكون هذه الجدة بالتحديد هى التى تمكث أكثر أيامها عند ابنتها والدة يوسف، وبالتالى تباشر سلطاتها على الأسرة وعلى يوسف بالذات .. الذى كانت تكرهه ولا تخفى هذه الكراهية. كانت كلمتها الدائمة التى ترددها بصراحة وقسوة "محمود محمود .. بلا يوسف بلا يوسف"! يقول السباعى: كانت تحمل لى فى قلبها -رحمها الله- حقداً دفينا .. وسلموا لها أمرى ففرضت من نفسها "ديكتاتوراً" على طفولتى .. وجعلت منها قطعة عذاب كنت أرى فى سفرها إلى البلد عيداً .. وفى عودتها مصيبة وبلاء"!.

(٤)

وإذا كانت الست أم عطية هى الوجه الذى أفزع طفولة يوسف السباعى، فقد أتاح له الله وهو أرحم الراحمين وجهاً آخر على العكس .. مشرقاً عطوفاً -خارج نطاق الأب والأم- وهو وجه جدته السيدة تحية جلال الدين .. جدته لأبيه أو كما يطلق عليها "نينة أم طه". والذى كان لا يتاح له رؤيتها إلا يوم الخميس من كل أسبوع، التى تعطى لهذا اليوم المقدس -فى حياة التلاميذ الصغار- متعة وسحراً وفرحة لا تتوافر له فى غيره من الأيام. ولذلك ما يكاد يدق جرس الخميس ويطلق سراح التلاميذ، وينطلقون فى الشوارع إلى بيوتهم وهو من بينهم حتى يتبلور فى نفسه فقدان اللذائذ اليومية التى كانت تجذبه بهجتها التقليدية .. حتى لعب الكرة فى الشارع، ولذا فهو لا يفكر أن يضيع وقتاً فى عودته من المدرسة إلى البيت، لأن هناك عالماً أكثر بهجة ينتظره بعد ذلك. أين؟ فى بيته؟ لا! وإنما فى بيت جده لأبيه. فالخميس هو اليوم الوحيد فى الأسبوع الذى يسمح له فيه بالانطلاق وشغله كله مع أبناء الأسرة جميعاً. ولذلك فهو ما يكاد يصل إلى منزله مسرعاً .. فللدقائق قيمتها اليوم، ويقذف بكتبه فى أى مكان .. حتى يطير إلى

بيت جـده، يكتـب يوسـف السـباعى عندمـا يكـبر ويمسـك بـالقلم، عـن هـذا البيـت: كـان بيت الجـد هـذا هــو أحـب أمـاكن النزهـة إلـى نفسـه، فقـد كـان بـه كـل مـا يرغبـه الصبـى، وكـان أهـم مـا يمتـاز بـه بيـت جـده عـن بيـت أبيـه، هـو الحريـة! .. الحريـة المطلقـة التـى لا يحدهـا قيـد ولا شـرط. كـان الصبـى يجـد نفسـه مطلق السراح يلعـب كمـا يشـاء ويـأكل مـا يشـاء، ووقتمـا شـاء. كـان يسـتطيع أن يدخـل كـل حجـرات البيـت دون أن يمنعـه أحـد خشـية توسـيخ الحجـرات (أغلـب الظـن أن ذلـك يرجـع إلـى أنـه لـم يكـن مـن المسـتطاع توسـيخها أكـثر ممـا كـانت) .. وكـان يسـتطيع "الشـقلبة" كمـا شـاء دون أن يتهمـه أحـد "بالشـقاوة" و"العفرتـة" .. كـان يشـعر أن بيـت جـده ملـىء بالحركـة والحيـاة، مـن كـثرة مـا بـه مـن الصبيـة الأقربـاء مـن أولاد العـم وأولاد العمـة الذيـن كـانوا يلتقـون كـل خميـس فـى بيـت الجـد أو "البيـت الكبـير" .. والواقـع أن الصبيـة كـانوا يجـدون مـن روح الفوضـى التـى تسـود البيـت مرتعـا خصبـا لمرحـهم ولـهوهم".

ورغـم عظـم سـعادته بمـا يتيحـه لعبـه وانطلاقـه فـى هـذا البيـت، إلا أن هـذا كلـه لـم يكـن هـو هدفـه الأول والأهـم مـن المجـىء إلـى المكـان وحرصـه عليـه .. فـهو لا يسـاوى رغـم أهميتـه شيئا علـى الإطـلاق، إذ خـلا مـن وجـود "نينـة أم طـه" جدتـه لأبيـه .. كـانت تحبـه وكـان يحبـها .. وأكـثر مـن ذلـك كـانت تخصـه بـالمزيد مـن الحـب والعطـف دون سـائر أولاد الأسـرة، وكـان هـو يبادلـها عاطفتـها .. فـهى علـى حـد قولـه

"أول مـن أحبنـى .. وأول مـن أحببـت". وهـى أول مـن دللتـه فـى الأسرة وأول وآخـر مـن نـاداه بـاللفظ الرشـيق "سوسـاه". ولعـل انفعـال يوسـف بـإعزاز هـذه العجـوز يعظـم، إذا قارنـها بغيرهـا .. ولتكـن جدتـه الثانيـة .. جدتـه لأمـه. فقـد كـان البون شاسعا بيـن الاثنتيـن فـى كـل شـىء، فبينمـا كـانت "نينـة أم طـه" تحبـه برقتـها، كـانت الأخـرى تكرهـه بفلظتـها .. ومـن هنـا كـان بعـد زيارتـه للبيـت الـذى هـى فيـه .. وأحنـه التـى يسـتظل بمـا تفـىء عليـه مـن حنـان غـامر لا يجـده فـى أى مكـان آخـر. وكـان الدليـل المـادى لمـا يكنـه لـها مـن حـب ووفـاء وتقديـر - هـذا قبـل أن يغـدو أديبا ويعـبر عـن هـذا كلـه فـى كتاباتـه ويعلـن حبـه لـهذه الجـدة، ويـهدى لروحـها إحـدى مسـرحياته وهـى "البحـث عـن جسـد"- أن يقـدم إليـها هديتـه الأسـبوعية "علـى قـده" .. وهـى كيـس مـن "دقـة السمسـم ونـوى المشـمش" يشـتريه مـن عطـار بشـارع السـد، قبـل أن يـأخذ طريقـه إلـى الجـدة الحبيبـة فـى شـارع زيـن العـابدين.

ولـم يكـن الحـب وحـده هـو كـل مـا تقـدم الجـدة، فقـد كـانت تمتـع أيضـا بحديثـها أو بمعنـى أدق بحواديتـها .. إذ كـانت تقـص أحسـن القصـص. ولاشـك أن هـذه السـيدة كـانت "المعلـم" الأول الـذى فتـح ليوسـف السـباعى عـالم القصـة .. قبـل أن يفعـل أبـوه محمـد السـباعى، لسـبب بسـيط هـو أن "نينـة أم طـه" لـم تكـن تتطلـب أن يكـون مسـتمعها يحسـن القـراءة والكتابـة أو حتـى يعرفـهما، كمـا كـان الحـال والأب الرائـد الكبـير يقـرأ علـى أولاده مـا يـترجم أو يؤلـف مـن قصـص قبـل

نشرها فى أكبر صحف عصره.

وهكذا كانت الجدة هى أول من يقصده الصبى فى البيت الكبير. يهرع سريعا إلى حجرتها ويرتمى فى أحضانها وهى مضطجعة على فراشها .. فتضمه إليها وترقده بجوارها وتدلله .. شاكرة له هديته .. وكأنها كانت تنتظرها! وكانت الجدة مريضة .. مشلولة لا تستطيع النهوض أو الوقوف على قدميها. وكانت لها شخصية متميزة، وصفها كاتبنا يوما بقوله: كانت الجدة امرأة عجيبة، ولم تكن عجوزا ككل العجائز .. فقد كان كل ما فيها محببا إلى النفس مقربا إلى القلب. كانت متحدثة بلا ثرثرة .. طيبة القلب بلا حمق ولا بله .. سديدة الرأى بلا مكر ولا دهاء .. معتدة بنفسها بلا غرور ولا كبرياء. ومازالت صورتها منطبعة فى رأس الصبى، بجسدها الطويل النحيل الممدد على الفراش، وقد بدا وجهها هادئا ساكنا، تعلوه صفرة وشحوب وشعرها الفضى قد أخفى بمنديل أبيض ويداها النحيلتان المعروقتان، فقد امتدتا فوق الغطاء".

كان الأطفال يقضون طوال ساعاتهم فى هرج ومرج، يتفننون فى ألعابهم وهم يجوبون أرجاء الدار الكبيرة جيئة وذهابا كأنها ميدان، فقد كانت من بيوت زمان التى تمتد طولا وعرضا وارتفاعا. وعندما تبدأ طاقاتهم فى التبدد ويحسون بوادر التعب من اللعب، يكون هذا إيذانا بلون آخر من اللهو والتسلية، وهو الاستماع إلى القصص عند "نينة أم طه" فى حجرتها .. وهكذا يسرع جمعهم إلى هناك.

وترتفع صيحات كثيرة مطالبة إياها "تحكى حدوتة" .. وبعد قليل تنزل الجدة على رأيهم .. أو لنقل إن المطالبة كانت تشكل مراسيم عملية القص، التى تجعل الراوية تقوم على الأثر بعملها. وعندما يعلو صوتها هادئا ناعما، يعنى أن الصمت قد نزل على الصبية تماما وهم مشرئبو الأعناق منتظمو الأنفاس واجفو القلوب فى استمتاع .. مثبتو الأبصار فى وجه الجدة، يتابعون تعبير وجهها وانخفاض وارتفاع صوتها، وما تشكل من عوالم باهرة عنيفة ورقيقة، وشخوص خشنة أو ناعمة وأجواء مشابهة أو مغايرة لما يعرفون .. وبعد وقت يقصر أو يطول .. ينزل الستار والراوية تردد بصوت متهدج "توتة توتة خلصت الحدوتة".

وفى أحيان كثيرة يكون نزول الستار بناء على دخول الخادم الحجرة .. يعلن: "إن العشاء قد جهز". فتكون الإشارة إلى ضرورة ملاءمة الحدوتة أو مؤلفتها لمقتضى الحال. فيسرع النبض بما يناسب الخاتمة القريبة، وتعود الأنفاس إلى الاضطراب، ووقع "الأحداث" يأخذ فى الانحسار والعالم السحرى يأخذ فى التباعد ظاهريا ولكن إلى الأعماق يستكن. وينطلق الأطفال إلى حجرة الطعام يتسابقون، ويكون العشاء هو آخر البنود فى أنشطة اليوم، فبعده مباشرة .. يأتى النوم. وفى هذه الأثناء تكون حدوتة الجدة أو حواديتها هى مثار حديث الصبية وتأملاتهم وسعادتهم. وفى بعض الأحيان لا يقتصر الانفعال بقصص

"نينة أم طه" على وقتها أو يومها، أو على مجرد الإعجاب بشخصياتها وأحداثها وحبكتها .. بل يمتد ليكون تأثيره فى النفس بالغ العنف غير عادى .. كما وقع فى إحدى المرات.

كانت بطلة الحادث -وهى نموذج السباعى المفضل "خضراء العينين ذهبية الشعر" .. صبية رقيقة نحيلة عرف عنها الهدوء وكراهية العنف وألعاب الأتراب الغليظة .. إلى درجة شديدة .. يجعلها تبدو عند من لا يعرفها غريبة الأطوار. يصفها صاحبنا بقوله: "كانت الصبية تبكى لكل من يتألم إنسانا كان أو حيوانا. وكانت يصيبها التشنج عندما ترى الأطفال يلهون بضرب قطة أو صيد عصفور. ولم تكن تطيق أن ترى أحدا يقتل أمامها حشرة مها كانت ضآلتها أو حقارتها، وكان أكثر ما يبكيها أن ترى الخدم يضربون أو ينهرون". ولهذا كان من الطبيعى أن تهفو بروحها إلى عالم الخيال .. عالم القصص الذى تفتحه الجدة. ومن هنا كانت هى أسرع من يتخذ مجلسه بجوار الراوية العجوز، وأشدهم لهفة وأكثرهم إنصاتا. وتحكى هذه القصة. عن عداء بين ملكين انتهى بأن انقض ملك المشرق بجيشه الذى يقوده ابنه على بلاد ملك المغرب، فاستولى عليها ووقعت ابنة الملك أسيرة .. بينما هرب أبوها. وقد حاول الأمير أن يستميل إليه قلب الأسيرة التى عشقها، ولكنها كانت تبغضه. وفى هذه الأثناء كان الملك الفار قد استطاع أن يجمع جيشا كبيرا اقتحم به بلاد عدوه

وحاصر عاصمته، ولما كانت منيعة .. فقد مضت الأشهر ولم يجسر أن يدنو من أبوابها. وفكرت فتاته الأسيرة .. أوهمت عدوها الأمير أنها تميل إليه. وأخذت تتودد حتى عرفت تحصينات المواقع وهربت بها إلى أبيها، الذى هاجم العاصمة واستولى عليها. وعمل فيها يد التنكيل والتحطيم والحرق، وقبض على الأمير وأدخله السجن. واستهولت الفتاة ما حدث، وقارنت بين غلظتهم ونبل الأعداء، وأدركت مسئوليتها عما وقع مما جعلها تحس بحب القائد الشاب السجين، يملك عليها نفسها. وتزوره فى السجن معتذرة وتقدم له شرابا .. ويسعد الشاب، ولكنه يشك فى طعم الخمر، ويظن أن الفتاة تخدعه وأنها وضعت له السم فى الكأس. فيثور غضبه، ويسرع قبل أن يموت فيطعنها بسيفه طعنة قاتلة. وعندما يمر الوقت ولا يصيبه الضرر، يشتد به الندم ويلجأ إلى سيفه ينتحر به ويموت هو الآخر.

هذه هى الحدوتة التى حكتها الجدة، وينفض الجميع سعيدا بعد آخر كلمة، إلى حيث الطعام، ولكن صاحبتنا الصغيرة تبقى فى مكانها لا تتحرك .. وتفاجأ العجوز .. كان يبدو على الصبية الحزن والألم. ولا تلبث أن تبكى. وتدهش "نينة أم طه" وقبل أن تتساءل عما حدث .. تعترض الأخرى:

- لم قتلها؟ وقتل نفسه؟ لو أنه تمهل قليلا لعلم أنها لم تسمه ولعاشا سعيدين وتمتع كل منهما بالآخر!

وتضحك الجدة وتقبل الفتاة فى حنان، وهى تجيب مهونة:

- يا حبيبتى إنها قصة .. فليس هناك أمير ولا أميرة.

ولكنها لا تقتنع ويستمر وجومها وشرودها.

ويأتى يوم خميس آخر، ويخلو عقد الأطفال من الصبية، ويعرفون أنها مريضة. ورغم أنها لم تكن بالطبع تشاركهم "عفرتتهم" وصياحهم وضوضاءهم، إلا أنهم افتقدوا وجودها ورقتها وحساسيتها الشديدة، وما تعكس من الجانب المرهف أو الخيالى الذى ينقصهم. ولذا ران على حركاتهم، لون من الأسى وشاب مرحهم المعتاد ضيق. ويحاول واحد منهم أن يكسر حدة الجو الثقيل .. فيهمس: هل تعرفون سبب مرضها؟ إنه حزنها الشديد على ما أصاب الأمير والأميرة فى حدوتة الجدة فى الأسبوع الماضى! وكان هذا التفسير رغم طرافته أو غرابته. هو الحقيقة. ومع ذلك لم يضحك أحدا. وفى مساء نفس اليوم -ولهذا التوقيت دلالته، لأنه موعد القص الأسبوعى حيث يتقرر فيه مصائر أبطال الحواديت المساكين- ارتفعت درجة حرارة الصبية. وتحول المرض إلى حمى خبيثة شديدة الخطر .. جعل صاحبته تستمر فى الهذيان .. ووقف الطب حائرا .. فالفتاة الصغيرة لا تشكو من مرض عضوى، ورغم ذلك فحالتها تسوء. ولم يكن بد من الالتجاء إلى علاج آخر .. وهكذا ذهب الأب إلى أمه أى الجدة .. وتحدث إليها فى أمر فتاته .. ويكت العجوز. وتصر على أن تذهب إليها .. ولعلها المرة الأولى منذ سنوات وربما منذ إصابتها بالشلل، تغادر المنزل. وتحمل على مقعد وضع فى عربة نقلتها إلى بيت ابنها.

وأسرعت الجدة إلى سرير الغائبة عن الوعى والتى تهذى، تمسح عليها وتناديها وتدللها بأرق العبارات. وأخذت تهمس فى أذنها بصوت حنون:

- يا حبيبتى .. أتدركين ما حدث للأميرة والأمير؟

وكررت تساؤلها عدة مرات، حتى انتبهت الفتاة .. وانقطع هذيانها، وفتحت عينيها .. وأحست بجدتها العزيزة بقربها .. تردد نفس السؤال .. وبلغ بالصبية الضعف أنها لم تستطع أن تتكلم. بل استفسرت بعينيها، وأجابت نينة أم طه: "أفاق الأمير بعد قليل وأدرك أنه لم يمت وأن جرحه غير نافذ، واكتشف أيضا أن الأميرة لم تصب بسوء كبير وأنه أمكن إنقاذها. ورغم إدراكه أنه معرض للحكم عليه بالإعدام لما فعل بالأميرة، إلا أنه كان سعيدا غاية السعادة لأن حبيبته لم تمت. وبعد أيام قليلة يفاجأ بالأميرة نفسها أمامه، وكاد يجن من الفرحة. ولم يستطع فى البداية أن يفهم مما تقول حرفا .. مما اضطرها إلى أن تكرر كلامها: لقد عفا عنه أبوها وأطلق سراحه، ولكن أميرنا لم يسعد بالنبأ، وتساءل: ما الفائدة وقد خسر حبه؟ ولكن الأميرة تجيب مبتسمة: إنها تبادله حبه وتتمناه. وتنتهى القصة بزواج العاشقين .. وعاشوا فى التبات والنبات، وخلفوا صبيان وبنات"!.

وتتبسط أسارير المريضة الصغيرة. وتحلق فى عالم آخر. وتكف عن الهذيان، ثم تروح فى سبات عميق على كلمات الجدة الحنون.

وشفيت الصبية ..

ولم يمض هذا الحادث بلا آثار .. فى ناحيتين. الأولى أنها كانت بمثابة علامة إنذار للجدة، أوقفها على خطورة أحداث الحواديت بالنسبة للصغار وتعايشهم لعوالمها .. ومن هنا لم تعد قصصها منذ ذلك اليوم تنتهى بخاتمة غير سعيدة على الإطلاق! والناحية الثانية هو الاهتمام بأسلوب هذا العلاج النفسى فى إنتاج حفيد "نينة أم طه"، الذى كان أحب الأحفاد إليها .. والذى قدر له أن ينبغ فى الأدب القصصى وهو يوسف السباعى! فقد تناول فناننا حادث الاصطدام بالواقع المعيش فى مختلف ألوانه، وعدم القدرة على مواجهته خاصة أن أصحابه فى أغلب الأحيان صغار. والهروب المحسوس أو غير المحسوس إلى اللاوعى، عن طريق هذيان المرض العضوى أو غير العضوى، والاعتماد على قوى النفس والروح فى انتشال الأعماق المضطربة من أحزانها ويأسها .. أكثر من مرة فى أعماله القصصية .. نذكر منها "أعدها يارب" مجموعة "نفحة من الإيمان" - و"ردت الروح"- مجموعته الأولى "أطياف" و"حديث جدة" -مجموعة "صور طبق الأصل"- وغيرها!

بقيت كلمة .. هل تكون هذه الصبية الرقيقة من آل السباعي هى ابنة العم التى سيتزوجها يوسف فى قابل أيامه وستكون أما لابنه وبنته؟!

(٥)

ولكن ألا يجب قبلا أن نستحضر صورة صاحبنا وهو فى طفولته أو صباه المبكر، حتى نستطيع أن نتابع حركاته وسكناته بشيء من الدقة؟! أظن أنه من الضرورى أن نفعل، خاصة أن الزمن قد أوغل كثيرا منذ عشرينيات هذا القرن العشرين! وأول ما نلاحظ وجهه الأبيض وشعره الأشقر، وسمتان تختلفان كليه عما يشكل تلميذ ابتدائى اليوم. ولم يعد لهما وجود. الأولى البنطلون القصير، والثانية الطربوش الأحمر القانى .. وكان طربوش صاحبنا طويلا مكبوسا على أذنيه ملاصقا لحاجبه!

ولكن كيف كان إقبال التلميذ الصغير محمد يوسف محمد السباعى على الحياة المدرسية؟

من الخارج أو فى حدقات الآخرين، كان يبدو عاديا .. أى ليس سيئا أو حسنا، أو بلفظ آخر لا يدخل فى عداد المتفوقين الذين يشار إليهم بالبنان، أو "الضائعين" الخارجين على قوانين وزارة المعارف العمومية! .. هكذا كان يعده أغلب الظن المجتمع المدرسى وهيئة التدريس وزملاؤه من التلاميذ. ولكن لنتجاوز هذه الحدود

الحديدية الهشة التى تفصل بين العوالم ونتساءل: ولكن هو أين كان يضع نفسه من هذا كله؟ هنا كالعادة إذا تسللنا إلى أعماق البشر، نجد هذه الأغوار سواء اتفقت أم اختلفت مع ما يظهر على سطح صاحبها .. شيئا متلاطما متزاحما شديد التعقيد. إننا ما نكاد نطلع على أعماق هذا التلميذ الهادئ الخجول، حتى يفجأنا ببغضه للمدرسة وانزعاجه من سخافات الدروس والتفكير فى حل رموزها وألغازها وأحاجيها! وإذا كان يندرج فى هذه القاعدة المواد جميعا، فهى تشمل على الأخص دروس الطبيعة والكيمياء والأحياء .. التى يعترف بأنه كان فيها "ذا ماض غير مشرف وكنت أمضى جل وقتى فى مدرجاتها، وأنا شارد الذهن، غارب البال، لا أفهم شيئا من رموزها ومعادلاتها ولا ما ينتجه خلط حوامضها"!

ونستطيع أن نقيس مدى موضع المدرسة من نفس يوسف السباعى ووجدانه، إذا تصورنا رعبه من احتمال رجوع أيامها .. رغم أن الأسباب والسنوات والتخرج بعدت بينه وبينها إلى الأبد! إلا أن ذلك لا يمنع أن فكرة العودة التى تجىء فى بعض الأحيان فى شكل خاطر أو حلم أو كابوس، تجعله عندما تلوح يقع فريسة لغول حقيقى. فيفزع لا وعيه من أن يجد نفسه فجأة قد عاد ليصلى سعير المدرجات والمعامل! وتكون فرحته عظيمة عندما يتأكد فى النهاية -كما يقول- من .. استحالة عودتى تلميذا، ومن نجاتى من شر التلمذة نجاة أبدية!!

ولعل يوسف السباعى عرف السرحان الذى اشتهر به فيما بعد من مراحل حياته، فى هذا الوقت المبكر بالذات من أيامه وهو فى دراسته الابتدائية، قبل أن يتبلور مزاجه الفنى. ولكن كيف كان يقضى ساعات يومه داخل الفصل وهو بهذه الدرجة من عدم الالتفات إلى الدرس والمدرس؟!

أشياء كثيرة كانت تشغله فى عالمه الخارجى والداخلى فى تلك الأثناء على حد سواء. فقد كان وهو يفضل أن يختار مقعده فى الفصل مطلاً على النافذة، يبحث عن المنظور المتحرك الذى يحمل الجديد عادة. ومن أشهر الأشياء التى حظيت بانتباه تلميذنا الصغير وأشار إليها بعد ذلك فى كتاباته، هذا المنزل الذى كان يبنى أمام المدرسة، ومن موقعه فى الفصل تقع عينه عليه .. "وكان أكثر ما يستحوذ على انتباهى .. بيت يعمل فيه البناءون ويبدو على بعد خلال الشباك المواجه .. كنت أجلس فى مقعدى لا هم لى إلا مراقبة سير عملية التشييد والبناء .. حتى كأنى مكلف من أصحاب البيت بهذه المهمة .. بل إنى لواثق أن أصحابه أنفسهم أو المقاول القائم على بنيانه ما كانوا يتبعونه بمثل ما أتبعه من مثابرة واهتمام"!

ومن الطريف بهذه المناسبة، أن المنزل ما كاد يتم حتى أصيب صبينا الشارد بخيبة أمل حقيقية .. والسبب أنه فقد ملهاته الأولى التى كانت تشغله عن الدروس!

وإذا كانت النافذة تربطه بخارج حدود المدرسة، فقد

كان هناك تسليات أخرى مجالها مقعده ودرجه. فهناك لعبة "السنون" -جمع سن الريشة، وزمان لم يكن قلم الحبر قد اخترع بعد وحمله أيضا تلاميذ الابتدائية- واللعبة هى قلب سن الريشة بسن آخر. وما كان أسهل على صاحبنا أن يغرى جاره بمشاركته اللعبة. فإذا مل هو أو صاحبه اللعبة، فهناك عمل ثالث ينتظره وهو قراءة الروايات .. فقد كانت هناك دائما رواية على الأقل مندسة دائما بين كتبه التى يحملها معه إلى المدرسة. وبينما يكون المدرس منهمكا فى إلقاء درسه والتلاميذ مصغين، يكون السباعى قد وضع روايته على حجره أسفل الدرج وأخذ يقرأ مستمتعا بالأحداث المثيرة، ناسيا كل من وما حوله! ومع إقباله على هذه الروايات التى كانت تصدر فى طبعات شعبية ونهمه بها، إلا أنها رغم ذلك لم تتصدر قائمة اهتماماته .. فكان هناك أيضا الرسم الذى أبدى فيه براعة واضحة .. فيفتح كراسته أو كشكوله ويأخذ فى رسم المدرس! كانت هذه بعض الأدوات التى يلجأ إليها صاحبنا لملء وقت فراغه الذى يستوعب عند غيره حصص اليوم كله! أما بقية هذه الأدوات التى تشكل الجانب الأخير، فقد كانت شيئا واحدا يتبلور فيه الوسيلة والغاية والوعى واللاوعى .. وهو السرحان والهيمان فى طول الدنيا وعرضها!

ولكن إذا كان الأمر كذلك .. فما هو انعكاس هوية هذه الشخصية، إذا تجاوزنا حدودها الذاتية من ناحية ما تركته من انطباع عند أساتذته وزملائه؟

الأثـر العـام النظـرى الـذى يمكـن أن يتركـه مثـل هـذا التكويـن عنـد الآخريـن، هـو أن صاحبـه تلميـذ بليـد خـائب. ولكـن مـن الطريـف أن السـباعى رغـم سـرحانه، لـم يشـتهر بـهذا فـى المجتمـع المدرسـى .. بـل علـى العكـس عـد عنـد البعـض مـن التلاميـذ النبـهاء! وعنـد الأغلبيـة تلميـذا عاديـا! كيـف؟ ومـا مـدى أصالـة هـذا التصـور بالنسـبة إلـى صبينـا؟ وكيـف اختمـرت هـذه الفكـرة فـى أذهـان أسـاتذته؟ وكيـف كـان تلميذنـا الصغير يستقبلها حقيقـة؟

كـان يمكـن أن يسـوء رأى هيئـة التدريـس فـى محمـد يوسـف عبـد الوهـاب السـباعى، ولـهم العـذر لأكـثر مـن سـبب .. فلـم يكـون مطلوبـا منـهم أن يرجمـوا بـالغيب ويستشـفوا المسـتقبل القريـب أو البعيـد .. كمـا أننـا نحملـهم مـالا يطيقـون إذا طالبنـاهم أن يسـتخدموا مقياسـا غـير مدرسـى فـى اسـتيعاب قـدرات تلاميذهـم. ولكـن شـذ عـن البقيـة اثنـان مـن المدرسـين، همـا أسـتاذ اللغـة العربيـة وأسـتاذ الرسـم! كـان الأول عندمـا يطـالع كتابـات تلميـذه فـى الإنشـاء، يـدرك أن وراء هـذا المسـتوى المرتفـع والقـدرة علـى اختيـار الكلمـات وتركيـب الجمـل والألفـاظ الجزلـة والاستشـهاد بالشـعر والخيـال الواسـع الـذى يفـوق سـنه، موهبـة حقيقيـة. نفـس الشـىء الـذى كـان يجـده مـدرس الرسـم فـى خطوطـه، وكاريكـاتيره التـى تضمـها كراسـة الرسـم، وكـان كـل منـهما سـعيدا بتلميـذه، ينتظـر لـه مستقبلا بـاهرا إذا اسـتطاع أن يتخلـص مـن شـروده أو مـا كـان يسـميه كسـله. وكـان هـذا الشـرط يكـاد يلغـى استشـراف هـذا

المستقبل إلغاء! .. وإلا فسيظل خاملا مغمورا .. لأنه "مثل لإنسان مكسال متراخ".

ومع ذلك فقد حاول كل من المدرسين أن يفعل شيئا، يهز الجمود الذى يرين على الصبى. فمن ناحية، حاول الأول إشراكه فى جمعية الأدب بالمدرسة وكذلك فى تحرير مجلتها، والثانى عمل على إدخاله جمعية الرسم .. ولكن صاحبنا الانطوائى الخجول لم يجد من نفسه إقبالا على هذين العرضين، فرفضهما! وهكذا باءت المحاولتان بالفشل من وجهة نظر الأستاذين .. كان مدرس العربى يقول له: أيها الكسول يجب أن تكتب كثيرا، إن مثلك يمكن أن يكون كاتبا يشار إليه بالبنان. ولكن هذا الخمول والتراخى لن يجعل منك أكثر من كاتب .. حسابات! ولكن صاحبنا لم يكن يبالى.

وهذه اللامبالاة تستأهل وقفة، لأنها تتصل بمفاهيم كان الصبى يؤمن بها تماما. وقد تناول يوسف السباعى هذه الفترة من حياته، فى إحدى قصصه بقوله: "كنت أكره الدروس ولم أجد هناك دافعا يدفعنى إلى أن أشقى نفسى بالالتفات أو الاستذكار، ورغم ذلك فقد بدأت تنشأ لى سمعة بين المدرسين والتلاميذ بأنى نبيه، ولكننى كسول ومهمل .. أما الكسل والإهمال فشىء كنت واثقا منه .. أما النباهة .. فقد كنت أول منكر لها لأنى كنت واثقا أنى محروم منها تماما، وكانت والدتى أدرى الناس بذلك فقد كنت أذيقها فصولا تدل على منتهى الغباء. بل إن كرهى لعلوم الرياضة

من هندسة وجبر وحساب وعجزى عن حل مسائلها .. كان فى نظرى أكبر دليل على خلوى من الذكاء والنباهة".

كان الصبى يدهش حقيقة عندما ينعته مدرس الرسم أو العربى بأنه موهوب، ويطالبه بتنمية موهبته. ولعله كان ينعتهما بينه وبين نفسه بالغباء وعدم الفهم، ويسخر من حكاية مخايل نبوغه أو عبقريته. وأظنه لم يسعد بهذا الوصف لسببين. الأول أن أغلب من حوله يجد العكس فى شخصه وسلوكه، والثانى أنه فى قرارة نفسه لا يجد مصداقا لهذه العبقرية أو الموهبة التى يدعيها كل من مدرس الرسم والعربى. لذلك كان يعتبر قولهما فى أحسن الحالات .. سخافة مدرسين! ويشير السباعى إلى شىء كان يثير ثائرة هذين المدرسين المعجبين بمواهبه الفنية .. لقد كانا يعرفان فى تلميذهما قدرته الأدبية والتشكيلية، ولكنهما لا يطمئنان إليها دائما .. كيف؟! ولماذا؟ ..

لأنها تبدو بالنسبة إليهما لا تستقر على حال ولا يطمئن لها بال، فهى مرة متجسدة ومرة متلاشية! وذلك بين قبوله أحيانا لما يكلف به وبين رفضه كثيرا لهذا التكليف .. الذى لم يكن له تبرير عندهما إلا الكسل. ولكن شيئا هاما غاب عنهما فى هذا المجال، وهو حق الفنان الصغير فى اختيار الموضوع الذى يعالج أو لا يعالج، والاقتناع أو عدم الاقتناع به. يعرض السباعى يوما هذا الجانب بقوله: ولم أكن أنا أعرف شيئا عما يسمونه موهبة .. كل ما فى الأمر أنى كنت أحب كتابة بعض موضوعات الإنشاء التى تقع من

نفسى موقعا طيبا، وكنت أقبل على بعض الرسوم التى يلذ لى رسمها .. وكان المدرسان: مدرس اللغة العربية ومدرس الرسم يطربان لما كنت أكتب وأرسم ويمنحانى أقصى الدرجات. ولكننى لا أكاد أنال رضائهما حتى أخذلهما خذلانا شديدا فى كتابة أو رسم موضوعات لا أجد من نفسى لهفة عليها .. وأظن أنها كانت أول تجربة ليوسف السباعى فى قضية .. الالتزام والإلزام!

وفى ذلك الحين -وسبحان مغير الأحوال- كانت كراهية صاحبنا لبذل أى جهد عامة شاملة، لا نستثنى حتى موهبته أو هوايته .. فما بالك بدراسته، ولذلك عندما كان مدرس العربى أو الرسم يطالبه بتركيز الجهد والصبر وتفهم المبادئ والأصول .. يسخر من الدعوة ويكاد يتحول حبه لهما كراهية .. وما تشمل التركيز أيضا وما يتفرع منه من مبادئ وأصول وبحث ودراسة! .. "والواقع أنى لم أكن أدرى، علام يجهد الإنسان نفسه ولم يفعل ما يضايقه ويتعبه، وأى شىء يجبرنا على هذه المشقة التى يسمونها التركيز والجد والاجتهاد والمثابرة .. ألا يكفى التلميذ مجرد النجاح حتى ينتقل من سنته إلى أخرى، وحتى لا يرسب فيتهم بالتقصير؟!". وهكذا كان يفعل، بعد أن اكتشف أن أى امتحان لا يحتاج أكثر من مذاكرة بضعة أسابيع قصيرة قبله .. وكفى الله التلاميذ شر الامتحان!

وقد ظل يوسف السباعى يذكر أسماء أساتذته جميعا فى مراحل تعليمه كلها، لا ينسى واحدا منهم، وسجل اسم أكثر

من مدرس منهم فى كتاباته، نذكر منهم مع الأستاذ شعت، شخصية أخرى فى مدرسة محمد على الابتدائية بالسيدة زينب، لعبت دورا هاما سيئا فى حياة السباعى، على امتداد سنوات طويلة جاوزت الطفولة بكثير، ويذكرها صاحبنا بمزيد من المرارة .. هذه الشخصية هى توفيق أفندى مدرس الإنجليزى. كان الرجل قصيرا أحول أبيض الوجه مشرب بحمرة مبروم الشارب، شديد الأناقة يميل إلى ارتداء اللون الكحلى والياقة البيضاء المنشاة. وكان رغم مظهره الخارجى الناعم، شديد الصرامة والقسوة .. لا يعرف الرحمة ولا يريد لكلمته أن تنزل الأرض كما تقول العامة. يبدأ حصته "بتسميع" كلمات الدرس الفائت، بطريقة من بينه وبين التلاميذ "ثبأر بايت" .. عاملا على استدراج التلاميذ إلى الأخطاء وكأنه يريد أن يوقعهم فى حبائله. وما يكاد التلميذ يفعل، حتى يهوى على أصابعه أو على ظاهر يده سن المسطرة التى يمسك بها مدرسه كأنه يريد أن يقطعها أو يكسرها .. بقسوة بالغة تقشعر لها الأبدان الصغيرة. وعلى كثرة ما مر على تلاميذ المدرسة من معلمين، فلم يروا مثل توفيق مثيلا. ورغم عدم تعامل يوسف كثيرا مع مسطرة توفيق أفندى، إلا أنها ولدت فيه فزعا لا يوصف منها ومن صاحبها .. والنتيجة هى إصابة التلاميذ بحالة من التبلد وكراهية اللغات وخاصة الإنجليزية، كما أصيب السباعى الذى يقول معترفا فى أحد كتبه وهى مسرحية "البحث عن جسد": وكانت حصة

الإنجليزى مصدر بلائى وشقوتى .. إن الاحتلال لم يعلمنى كره الإنجليز، ولكن الذى علمنى هو توفيق أفندى. لقد جعل الإنجليز واللغة الإنجليزية ألد أعدائى. ولا أذكر بعد ذلك أنى رسبت فى امتحان إلا كانت اللغة الإنجليزية هى السبب"!

وعرف يوسف السباعى منذ وقت مبكر كيف يستشعر "حضورا" للجماد أيضا. ومنذ فترة الدراسة الابتدائية كان من بين هذا الجماد .. الجرس المدرسى! هذا الجرس الذى يبدأ مع وقفة طابور الصباح والهتاف. وهناك فارق كبير بين الجرس الأول والجرس الأخير وما بينهما! دقاته الأولى تبعث على الضيق، رغم الصباح الباكر والجسم الذى استوعب حاجته من الراحة. لأن هذه الدقات تأذن بيلوم دراسى طويل يملؤه السأم وعصا المدرس والمقررات المزعجة، وما يتبع من واجبات. بينما الدقات الأخيرة تكون علامة الخلاص من هذا كله والإفراج عن القيد الذى يمسك التلميذ الساعات داخل الجدران. أما بين الحصص المتتالية، فهو انتظار هذه الحصص للاستفادة من الدقائق التى تفصل بين الواحدة والأخرى للعب فى الحوش. "لا يكاد الجرس يؤذن بانتهاء الحصة حتى أنطلق والرفاق إلى فناء المدرسة، فنحدد بالطباشير قطعة أرض ثم نعدو على ساق واحدة يمسك بعضنا بعضا فى لعبة "أتانسيو"، وأنت ترانا فى عدونا إلى الفناء، ملهوفين مسرعين حتى لكأننا نخشى أن تفلت منا بضع ثوان بغير عدو ولا لعب"!

هـذا مـا يحـدث فـى الفسـح الصغـيرة، أمـا فـى الفسـحة الكبيرة التى تلى الغـداء .. فكان اللعب فيها يقتصر فـى معظـم الأحيـان علـى انتقـاء زلطـة مسـتديرة يسـتعاض بـها عـن الكـرة، فيـأخذ هـو وأصحابـه بدفعـها بأقدامـهم "حتـى تبلـى أحذيتنـا وتتـآكل" .. كمـا يقـول!

ولعـل حـب يوسـف السـباعى للنبـات وتمثلـه كثـيرا فـى قصصـه، كمـا لـم يفعـل كـاتب مصـرى آخـر، يرجـع فـى أحـد بواعثـه إلـى غـرام صاحبنـا بالأشـجار منـذ صغـره. فـهى مـن أوائـل كائنـات هـذه الدنيـا الخضـراء التـى ارتبـط بـها صاحبنـا ارتباطا وثيقـا. وحكايـة شـجرة التوتـة ليسـت ممـا تتجاهل فـى مثـل هـذا الموضـع، الـذى يذكـر طفولـة الفنـان الكبـير. فقـد كـان التلميـذ الصغـير فـى مدرسـة محمـد علـى الابتدائيـة، شـديد الإعجـاب بـهذه الشـجرة ذات الجـذع الضخـم والأوراق العريضـة المتكاثفـة والفـروع المكللـة بـالتوت، هـذه الشـجرة التـى تعـد أحـد المعـالم العتيـدة لحـوش المدرسـة .. والقائمـة بجـوار العقلـة والمتـوازى والحصـان، فمـا يكـاد يـرن جـرس "الفسـحة"، حتـى يـهرع عـدوا فـى الفنـاء، لا يقطعـه كمـا يفعـل غيره مـن التلاميـذ، وكمـا يسـير النـاس عـادة بـل قـافزا علـى سـاق واحـدة حتـى يصـل إليـها، فيـهز فروعـها ويلتقـط توتـها المتسـاقط، وكـانت هـذه العمليـة تعـد كمـا يقـول "أحـب متعـة إلـى فـى المدرسـة"! ونسـتطيع أن نـدرك مـدى هـذه العلاقـة بيـن الجـانبين، إذا تسـللنا إلـى مشـاعر التلميـذ الـذى كـبر سـنا ولمـع اسـمه، وسـواء أتيـح لـه أن يـزور مدرسـته القديمـة أو أن

يتخيل هذه الزيارة، فيكون من أشق الأمور على نفسه كما يعترف، أن يرى هذه التوتة بعد هذه الفترة الطويلة من الغيبة، ثم يظل متباعدا عنها مغفلا إياها سائرا الهوينا فى عقل وتؤدة .. لا يجرى إليها ويهزها!

ورغم هدوء هذا التلميذ الذى لا يشارك فى أعمال "شيطنة" زملائه .. إلا أن لهذه القاعدة استثناءها فى قليل من الأحيان، وإن كانت لا تصل بالطبع إلى درجة الشيطنة .. كما فعل يوما عندما هرب من المدرسة، قافزا من فوق السور ليجدف فى النيل، وكانت النتيجة والمدرسة زمان ضبط وربط، أن رفت لسوء السير والسلوك! ولم يكررها ثانية.

وإذا كان مشوار الذهاب إلى المدرسة، لا يمضى هادئا كما يفعل بقية خلق الله .. فكذلك مشوار العودة .. وبينما تكون الكرة عادة هى التى تستوعب نشاط الصباح، فإن زفة الشيخ كحكو أحيانا هى التى تميز رياضة المساء. والشيخ كحكو إحدى الشخصيات الشعبية المجذوبة التى تهيم فى شوارع حى السيدة زينب وحاراته، وتجذب إليها الأطفال كالمغناطيس! فلا تكاد أبصارهم تقع عليه .. حتى ينطلقوا فى أثره معابثين بالأيدى والألسنة، وكان صاحبنا يشارك فى هذه الزفة التى يقيمها لا تلاميذ مدرسة محمد على فحسب، بل تلامذة المدارس الابتدائية القريبة مثل وادى النيل، والكمال .. أى الجيل الجديد فى حى السيدة زينب". وكان جودة الخادم الذى ترسله الوالدة ليجىء بطفليها

محمود ويوسف كما رافقهما إلى المدرسة صباحا، هو الذى يقود الحملة على الشيخ كحكو. ويبدأ هتافه: شد العمة شد، فيأتيه الجواب فى مثل رد الطرف وبصوت كالرعد: تحت العمة قرد، ثم يشترك الجميع .. الزعيم والكورس معا فى الترديد على الوحدة "شيخ كحكو يا شيخ كحكو" الذى يكون فى هذه الأثناء فى قمة ثورته يصب عليهم لعناته وشتائمه .. وكلما تضخمت أحجامها وتعثرت ألفاظها أكثر، ازداد حماسهم وانتشاؤهم!

ويستأهل يوم الخميس من بين بقية أيام الأسبوع المدرسى وقفة، لأنه كان يعنى شيئا هاما عند السباعى الصغير فى مرحلة دراسته الابتدائية والثانوية، فبجانب "قدسية" ساعات منه وهى التى يزور فيها جدته "ست أم طه" كما مر بنا، فقد كانت سعادته بهذا اليوم أنه يتميز لا بحصصه القليلة فحسب .. بل بنوعية هذه الحصص كذلك، فالأربع حصص كانت تستوعب أخف المواد وأرقها على قلبه بالنسبة إليه أولا وغيره ثانيا. والسبب أنها كانت موزعة بين الإنشاء العربى والرسم. للأول الحصتان الأوليان، وللثانى الحصتان الأخيرتان. ونحن نعرف -كما أشرنا- براعة صاحبنا فى هاتين المادتين بالذات .. زيادة على أن مدرسى العربى والرسم كانا حبيبين إلى نفسه "إذ كان أولهما طيب الخلق كريم النفس، وكان ثانيهما سمينا أبيض اللون خفيف الدم .. فكان الصبى يجد فى درسيهما متعة وسرورا". يقول السباعى عن هذا اليوم: "كان يوم

الخميس من أحب الأيام إلى نفسه فقد كان هو اليوم الذى يشعر فيه أنه حر طليق يرتع كما يشاء .. بل وكان يتمنى فى قرارة نفسه لو أضحى الأسبوع كله أيام خميس، فلا يجد نفسه مقيدا إلى مكتبه طول أيام الأسبوع يحل مسائل الحساب ويكتب واجبات الإنجليزى كأنه سجين حكم عليه بالاستذكار المؤبد!"

وفى بعض الأحيان كان يذهب يوم الخميس أو الجمعة إلى أحد دور السينما وخاصة أوليمبيا وإيديال، متابعا أحدث إنتاج هذا الجهاز السحرى الجديد ..

(٦)

ومع الأسماء التى ذكرنا وتشكل عالم الصغير يوسف السباعى من الأب والأم والجدتين، فقد كان هناك جده لأبيه وجده لأمه وعمه طه السباعى وأخواله. ولكن البيت ليس بالشخصيات الرئيسية فيه ولا بالأحداث الكبيرة التى تقع، بل أيضا وأكثر بالتنفس اليومى والرتابة اليومية والأشياء الصغيرة التى تكون حياتنا. ولذلك فلابد أن نذكر فى أيام ابتدائى الخادم جودة ابن الست أم نجية الغسالة التى تتعامل مع البيت. ونكتفى من وصف جودة، الذى يقول عنه صاحبنا إنه كان نموذجا للتشرد والشقاوة والعفرتة والإجرام الصبيانى، أن نختار هذين الملمحين الداليين؛ الأول: الإشارة إلى ركبتيه المليئتين بالجروح والندوب .. وما أكثر ما يتكرر هذا الوصف لدنيا ابتدائى وشيطنة الصغار. والثانى أن جودة لم يكن يسمى قط باسمه "بل كان يكنى على طول الخط .. بـ "اللى يعدم" و"اللى تنقصف رقبته" و"المتنيل على عينه" و"اللى ينشك فى قلبه"! كان جودة يشكل فى البيت أحد المتاعب الرئيسية، وإلى هذه الجانب يشير السباعى: أضحى جودة على مر الأيام المصدر الأول -بعد أبى طبعا- لمتاعب أمى .. فلقد

أضاعت ثلاثة أرباع عمرها فى الشكوى من جودة والصراخ على جودة والسب والضرب فى جودة. ولولا خشية الوالدة من أم نجية، لما قبلت أن تبقى عليه لحظة واحدة! ويكون جودة فى هذه الأثناء "ولا هو هنا" فهو كإنسان بحبوح يضحك بل يغنى، عندما تنهال عليه الشتائم أو الضرب وخاصة بعد أن يكون قد خرج لقضاء طلب فلا يحضر، ثم تطلب الأسرة لإخراجه من قسم بوليس السيدة أو .. الإسعاف!

لنكتفى فى هذا الموضع بأن نشاهده فى حادثة صينية البطاطس .. "ذهب مرة ليحضر صينية بطاطس من الفرن ومضت ساعتان دون أن يحضر، وجلس والدى على المائدة يحرق الأرم غيظا، وأخذت أمى تنتقل من نافذة إلى أخرى وهى تكاد تجن، وأخيرا ظهر جودة فى الشارع وقد وضع الصينية على رأسه دون أن يمسكها بيديه، وسار مادا ذراعيه إلى جنبه وهو يوازن نفسه كأنه بهلوان يمشى على حبل، وصرخت فيه والدتى أن يسرع، ولكنه لم يزد على أن رفع عقيرته بالغناء "على دول ياما ياما على دول". ووضعت الصينية على المائدة، ونظرت والدتى إليها ثم صاحت فى دهش وغضب:

- إيه ده يا واد، الصينية دى مش بتاعتنا!

وابتسم جودة وهز رأسه هزة خبير وقال:

- أنا عارف.
- وجبتها ليه؟
- دى أحسن من بتاعتكم!

ثم أخذ يوضح قوله للأعين الدهشة المصوبة إليه، فقال بابتسامة راضية:

- دى بالفراخ، بتاعتكم كانت باللحمة، اللحمة العجالى.

وبدأ يشرح لنا كيف حاول الفران تأخيره .. ساردا الحوار الذى جرى بينهما:

- فين الصينية؟

- استنى شوية، بلاش فلقة دماغ.

- يا جدع هات الصينية، سيدى مستعجل.

- ما تخوتناش، يلعن أبوك لأبو سيدك.

ثم ينظر بطرف عينه ليرى وقع إهانة الفران على أبى، فلما لم يجد لها تأثيرا يذكر، عاد إلى تكرارها مسترسلا فى رواية المعركة:

- فلما قال لى يلعن أبوك لأبو سيدك، رحت لاعن سنسفيل أجداد أبوه، وصممت أنى أنتقم منه، وفضلت مستنى لغاية ما ابتدى يطلع الصوانى وحطيت عينى على أجدع صينية وسهيته، ولطشتها.

وذهل جودة عندما أمرته أمى بإعادة الصينية، وانهالت عليه بالشتائم، ونظر إلى أبى مستنجدا، ولكن أبى هز رأسه كأنه يقول "ما باليد حيلة". وخرج جودة عائدا إلى الفرن وهو يصيح: "أصل مالكمش فى الطيب نصيب"!

والإشارة إلى هذا "الفصل" من "فصول" جودة. يدفع إلى الوقوف عند شخصيته قليلا، خاصة أن الشهيد يوسف السباعى أشار إليه أكثر من مرة فى كتاباته.

(٧)

فلا يمكننا مثلاً أن نكتب عن يوسف السباعى وفترة ابتدائى والكرة، من غير أن نذكر جودة .. وجودة كما نعلم ليس كمحمد عبد الجادر عبد الدليل -الذى سيأتى ذكره بعد قليل- زميل دراسته، بل هو خادم فى الدار الذى يعنى فى بيت السباعى الطيب أنه واحد من أهل الدار. ولكن ما دخل مثل هذه الشخصية فى هواية أو لعبة الكرة؟ وإن كان الأفضل أو الأدق أن نقول ولماذا لا يكون له دخل. والكرة فى عالم الصغار ليست إلا لوناً من "اللعب" والشقاوة؟ على أية حال، كان من الأعمال التى يكلف بها جودة، مرافقة الصغيرين محمود ويوسف صباح كل يوم إلى المدرسة. والسبب البديهى بالطبع: الحفاظ على سلامتهما ووقايتهما من حوادث الطريق، والأهم منعهما من الشقاوة واللعب فى الشوارع. ولكن الأوامر كانت فى واد والطاعة الظاهرية وعمل الضد فى واد آخر. يقول يوسف السباعى: أجزم بأننا لو تركنا وحدنا لكنا أكثر سلامة واطمئناناً، ولسرنا فى الطريق أهدأ ألف مرة مما كنا نفعل! لماذا؟ لأن جودة كما يقول قاصنا كان فناناً فى الشقاوة عبقرياً فى خلق الحوادث واصطياد المشاكل، فكيف إذن يمكن أن يجتمع الهدوء

والسلامة مع جودة فى طريق أو دار؟ وهكذا ما يكاد الصبيان الثلاثة يبعدون قليلا عن الدار، ويكون جودة قد خلع نعله وأخفاه وراء الباب إيمانا بأن حرية أصابعه يقيدها "المداس". أيا كان نوعه، حتى يخرج من جيبه كرة شراب، ثم يضع أصبعيه فى فمه مطلقا صفارة طويلة .. إيذانا ببداية المباراة.

"وهكذا نبدأ الذهاب إلى المدرسة عدوا. والكرة تنتقل بين أقدامنا، عابرين سيدى الأربعين إلى درب المدبح إلى شارع السد، هو فى منتصف الطريق قلب هجوم أو سنتر فرود كما كان يزعم، وأنا جناح أيمن، وأخى جناح أيسر. ولست أدرى ماذا كان يمكن أن تقول والدتنا لو رأتنا على حالنا تلك، نقطع شارع السد البرانى من سيدى الحبيبى حتى شارع سلامة، نعدو بالكرة بين مختلف العربات، وجودة يطلق الصفافير بفمه وأصابعه آمرا المارة أن يخلو الطريق لتيم الكابتن جودة.

"وأذكر أن الكرة أفلتت منا ذات مرة عندما ضرب جودة إحدى "الباصات" وكانت طويلة بعض الشىء، وتجاوزت الجناح الأيمن لتستقر رأسا داخل قدرة فول مدمس. فلم يكن من جودة إلا أن أمرنا بالزوغان، وأخذنا نعدو وراءه حتى اختفينا فى أقرب حارة، ونحن نرتجف من عم منصور بائع الفول والبليلة الساخنة"! ..

وهذا يسوق إلى الحديث عن الكرة وعالمها الذى لا

يقتصر على نشاط المترجم له فيه، بل كان يمتد إلى الشخصيات أو الأحداث .. التى تشكل أحد عناصر لعبة الكرة فى المجتمع الذى كان يعيش فيه الصغير يوسف. فهذه الشخصيات أو الأحداث، هى التى كانت تعطى اللعبة مذاقها الحريف وأهميتها، وتعكس دلالة انتشارها الكبير والاهتمام العام بها .. كما حدث بالنسبة إلى "أبو سريع". وقد كتب صغيرنا عندما أصبح له قلمه عن "أبو سريع" هذا فى أحد أعمال مجموعته المعروفة "بين أبو الريش وجنينة ناميش" وهى قصة "فى البغالة".

فقد لعبت الكرة فى حياة هذه الشخصية دورا بارزا، جعلها أحد المؤثرات الرئيسية فى تغيير مسار حياته. وكانت سببا فى إفساد مرحلتين منها .. الأولى وهى تخرجه من دنيا المتعلمين والوظيفة بالتالى. عندما أصبح بقاؤه فى المدرسة الابتدائية أمرا مستحيلا .. لهروبه منها كل يوم وإساءته المتكررة إلى مدرسيه. والثانية عندما تحول إلى صبى لبان عند أبيه، الذى لم يجد مفرا من ذلك بعد أن فشل ولده فى أن يكون ابن مدارس. وكان عمل أبو سريع هو أن يقوم بتوزيع اللبن على الزبائن فى حى البغالة فى أقساط الصفيح صباحا، وحمل الصينية الخشب المليئة بسلاطين الزبادى لبيعها مساء، بجانب أعمال الدكان الأخرى.

فى أولى جولات أبو سريع، ألح عليه مزاجه أن يشاهد أصحابه والكرة .. فعدل عن مساره وذهب إلى شارع التلول

حيث يجتمعون .. ومع مفاجأتهم برؤيته وهو يحمل بضاعته على رأسه .. لم يستطع أن يقاوم اللعبة وحركة الأقدام الساحرة. وعندما اقتربت منه الكرة، كان الإغراء أكبر من أن يقوى عليه .. فاستعد لها، وأرجع ساقه إلى الخلف وسدد إليها ضربة قوية قذفت بها إلى أقصى الحارة! نعم، ولكنها أيضا قذفت به طريحا على الأرض وسلاطين اللبن فوقه! ويجمع البقايا ويرجع إلى أبيه مدعيا أنه انزلق على قشرة بطيخ! ورغم ثورة الأب وتهديده بإدخاله "الأحداث"، وما لقيته الأم حتى نجحت فى تهدئته .. إلا أن الحادث كان قد بهت فى نفس الصبى فى نفس الساعة! ولذلك عندما خرج فى اليوم التالى حاملا صينية الزبادى .. لم يفكر فى مقاومة الذهاب إلى الرفاق، لأن ما كان يشغله هو كيف يجمع بين العمل واللعب والحفاظ على اللبن فى آن واحد.. ووجد الحل فى أن يضع الصينية على أحد نوافذ الأدوار الأرضية ويتابعها ببصره أثناء اللعب خوفا عليها من أن يغافله أحد ويسرقها .. وفعل. ولكن العدو الذى لم يعمل له حسابا، هو الكرة نفسها التى اندفعت فى إحدى المرات لتستقر وسط الصينية وتحطم كل ما فيها! وكان الاعتذار هذه المرة أنه انزلق على .. قشرة شمام!

وكان إدمان أبو سريع الكرة إلى الدرجة التى يستقبل فيها ضرب أبيه له بلا مبالاة .. ومر الحادث الثانى بفضل الأم أيضا، مطالبة زوجها أن يعطى له فرصة أخرى يصلح بها ما أفسد و"التالتة تابتة". و فى هذه المرة استقبل أبو

سريع فى عودته من والده لأول مرة بترحاب، والسبب أنه لم يحافظ فحسب على أوانى اللبن، بل باع كل ما تحمل الصينية. والثمن؟ سيدفعه الزبائن آخر الشهر. ومرت أيام غير قليلة قبل أن يجيء الموعد .. كانت السعادة تشمل الأسرة جميعا. ولكن هذه السعادة لم تلبث أن تهاوت أول الشهر، لأن أحدا لم يدفع شيئا .. والسبب أنه ليس هناك أحد من الزبائن على الإطلاق. فقد كان كل ما يفعله أبو سريع هو "أن يذهب إلى شارع التلول فلا يضع الصينية على النافذة حتى لا تهبط الكرة عليها فتتلف اللبن .. بل يجمع الرفاق ويوزع عليهم السلاطين فيأتون على ما بها، ثم يكومونها فى حفرة بالأرض ويغطونها بالصينية .. وينهمكون فى اللعب .. وفى النهاية يأخذ أبو سريع السلاطين الفارغة ويعود إلى البيت"!

والنتيجة هذه المرة، أن طرده أبوه من البيت. ولكن هذا لم يستمر طويلا، فقد مات الأب وعاد الصبى .. وظنت الأم أن وفاة العائل ستهدى الابن ويشرف على دكان أبيه .. ولكن هذا لم يكن فى حساب "أبو سريع". فقد كان أول ما فعله، أن أشترى حذاء فوت بول وفانلة مخططة وشرابا ملونا. وأنبأ أمه أنه قد أضحى "كابتن تيم الأسد المرعب"! وكان قد جمع زملاءه القدامى وكون منهم فريقا، واختار لهم مكانا جديدا .. ملعبا، ويتميز هذا الملعب بأنه فى أرض متربة تغوص فيها قدم الملاعب إلى مسافة تزيد على ربع متر داخل الأرض! ويكتب يوسف السباعى ..

"واشتهر أبو سريع .. كابتن تيم الأسد المرعب .. فقد كان التيم دائم الفوز، لأنه لا يلاعب "الأتيام" الأخرى إلا فى أرض الطيبى وهى أرضه التى اعتادها والتى لا يستطيع أى "تيم" سواه أن يلعب فيها .. فقد كانت الأتربة تثور من الأرض وتملأ الجو فيختفى كل شىء عن أعين اللاعبين، ويختفون هم عن أنفسهم، وتختفى الكرة عن أبصارهم، فلا ترى إلا وقد استقرت -بقدرة قادر- فى مرمى "التيم المضاد"!

وفى هذا الجو، كانت أحلام التلاميذ تتناسب مع عالمهم الصغير .. وفى معظم الأحيان كانت لعبة الكرة فى المدرسة وحدها تمتص كل التطلعات، ويكفى أن دفع القدم لكل ما تجد فى الطريق، كان رياضة يومية لا يسأم منها صاحبها أبدا! وما أكثر ما كتب يوسف السباعى بعد ذلك فى قصصه هذه العبارة أو هذا المعنى عن نفسه أو زملائه .. "ولم يكد يحتويه الطريق العريض حتى توقف برهة ومد يده فى جيب بنطلونه فأخرج زلطة مستديرة وانطلق يدفعها بقدمه حتى وصل بها إلى باب المدرسة"!

وشخصية صبينا ليست وحدها التى يمكن أن تبلور ملامحه وملامح عالمه، فهناك أيضا أصحابه الذين يشاركونه هذا العالم .. وهكذا يكون الحديث عن صديق صباه وزميل طفولته الصعيدى محمد عبد الجادر عبد الدليل أى عبد القادر عبد الجليل -باللغة الفصحى!- وشهرته محمد الفوتبول، أمرا ضروريا وخاصة فى هذا الجانب الذى

نتناول. وترجع شهرة محمد هذا إلى أنه كان التلميذ الوحيد فى سنة رابعة ابتدائى -حيث كان السباعى- بمدرسة محمد على الابتدائية الذى يملك حذاء فوتبول .. وهذا يعنى المكانة التى لا تجارى. ومن الطريف أن صاحبنا هذا -إعزازا من فناننا به جعل إحدى قصصه تحمل اسم هذا الصديق- لم يكن لاعب كرة رغم أنه يرتدى حذاء الكرة ليل نهار! والسبب أنه لم يكن يملك غيره .. اشتراه له أبوه اطمئنانا إلى أن ستة أزواج من "الاستدز" التى يرتفع عليها نعل هذا الحذاء، كافية جدا ليعمر طويلا! والأطرف من هذا أن الساعة الوحيدة التى لم يكن محمد يستخدم حذاءه فيها، كانت ساعة اللعب! لأنه كان يؤجره لأحد اللاعبين من زملائه! .. بجانب أن أباه قد حذره من مغبة إفساد الحذاء، كما كان محمد يخشى على نفسه من التعرض للانزلاق، زيادة على أنه كان يعتقد "وهو على حق أن قدمه أشد صلابة من الحذاء"!

يصور يوسف السباعى فى قصته أهمية حذاء الكرة، فيقول: "كان الحذاء الفوتبول أقصى أمانينا وقتذاك .. فقد كنا من هواة اللعبة ولكننا لم نكن نجيدها إلى الحد الذى يحشرنا فى زمرة تيم المدرسة المتمتع بلبس أحذية الكرة، والذى كنا ننظر إليهم نظرة المحسودين أنصاف الآلهة، وكان محمد هو الوحيد من بين الغلابة الذى يمتلك الحذاء السحرى .. حقيقة أنه لم يكن يمتلك غيره، ولكن ذلك لم يكن يحط من قيمته لدينا .. بل كنا نتمنى كلنا أن نكون

مثلـه، وأن يسـتبدل آباؤنـا تلـك الأحذيـة الرقيقـة بأحذيـة فوتبـول ضخمـة، ومـا حاجتنـا إلـى الأحذيـة الرقيقـة، وقـد كانت لا تستعمل إلا فـى لعب الكـرة وشـوط الزلـط والطـوب"!

ونسـتطيع أن نتخيـل مـدى قيمـة حـذاء محمـد وسـط المدرسـة، اضطـرار التلاميـذ إلـى حجـزه قبـل موعـد الإيجـار بأيـام! ولقـد راجـت عمليـة استئجاره إلـى الحـد الـذى أصبـح يشـكل عبئـا علـى ميزانيـة التلاميـذ الضئيلـة فـى تلهفـهم عليـه، ممـا اضطرهـم فـى نهايـة الأمـر إلـى .. "التشـارك فـى اسـتئجاره .. فكنـا نسـتأجره اثنيـن اثنيـن .. كـل واحـد يسـتعمل فـردة .. على أن نتبادلـها فـى الـهاف تيـم .. فيتـاح لكـل منـا فرصـة لبس الفـردة اليميـن -وهـى الأهـم- فـى نصـف الوقـت، وهكـذا كـان محمـد عبـد الجـادر عبـد الدليـل تلميـذا .. وصـاحب ملـك .. يؤجره وقتمـا شـاء، وحيثمـا شـاء"!!

ولا يفوتنـا فـى هـذا الموضـع أن نذكـر أن التلاميـذ لـم يكونـوا وحدهـم المجـانين بلعبـة كـرة القـدم، بـل كـانت مدارسـهم أيضـا! ويكفـى أن نشـير إلـى أن بعـض المـدارس، كـانت تلحـق بـها وفـى السـنوات النهائيـة مـن تتوسـم فيـه المواهـب الكرويـة .. بغض النظر عن أى شـىء آخـر مثـل عمـره أو حتـى عـدم فكـه الخـط أو صلاحيتـه! ويذكـر السـباعى أن إحـدى المـدارس الابتدائيـة، وهـى محمـد علـى الابتدائيـة التـى كـان بـها يوسـف، ألحقـت بالسـنة الرابعـة بـها -أى السـنة الأخـيرة فـى نظـام ابتدائيـة زمـان- صبـى سـمكرى لا يعـرف الألـف مـن المئذنـة كمـا يقولـون لأنـه يجيـد لعـب الكـرة!!

(٨)

كانت كرة القدم فى الثانوية مهوى الأفئدة .. وكابتن الفريق أمنية بعيدة المنال وقمة تستأثر بإعجاب من تستهويه اللعبة ومن لا تستهويه على حد سواء. كما كان الحصول على ملابسها .. "جزمة كنج وجوز أناكل، وجوز شناجير" .. أمرا نادرا. ولكن يوسف يستطيع أن يذلل الكثير من الصعوبات ويتقدم خطوة جبارة وهو يشترى بعض أدوات اللعب ووالدته لا تعلم .. وإلا لمنعت عنه ما زعم من حاجات مدرسية تحتاج إلى نقود. ويهديه تفكيره إلى أن يبعدها عن نظر أمه والبيت كله. كيف؟ يودعها عند بواب المدرسة! وكان هذا حيطة فى محلها، خاصة عندما أصيب أخوه محمود يوما فى مباراة كروية بجرح فى حاجبه .. وكانت المفاجأة أو الصدمة بالنسبة إلى الأم أن حضر إلى الدار محمولا فى عربة إسعاف .. وكانت كارثة أرخت بها حوادث الأسرة وقتا طويلا .. لم يستطع الأبناء أثناءها أن يجيئوا بسيرة الكرة فى البيت بالطبع على ألسنتهم!

ومع هذا الاندماج كله فى عالم الكرة، فقد كان يوسف يحس أنه لم يذق طعم اللعبة أبدا! والسبب أنه يلعب بكرة

شراب .. وشتان بينها وبين كرة القدم الحقيقية التى تجرى فى الملعب الحقيقى! وكان مجتمعه الصغير فى المدرسة يشاركه فى هذا، فلاعبو الكرة فيها يتمتعون بالشهرة كأنهم نجوم، ينظر إليهم بإعجاب واحترام .. من الناظر وهيئة التدريس والتلاميذ على السواء. ولاشك أن صاحبنا كان يغبط هذه الأسماء على حظها وما أوتيت من موهبة، ويتمنى أن يكون واحدا منهم. ولعله حاول أن ينضم إلى فريق المدرسة، وكانت المدرسة تختار كل عام أعضاء هذا الفريق .. ولكنه لم ينجح. وهناك صورة طريفة ساخرة رسمها كاتبنا فى إحدى قصصه -"نفس هاوية"- يمكن أن تعبر عن هذه المحاولة وفشله فيها وسبب هذا الفشل، سواء بالنسبة إليه أم إلى غيره. يقول السباعى على لسان بطله وراوى القصة: أظل أعدو وراء الكرة وأجرى من أول الملعب لآخره حتى تبهر منى الأنفاس ويتصبب العرق .. دون أن تمس الكرة قدمى لست أدرى هل كان ذاك خطئى أم كان خطأ الكرة؟ أم هل كان هناك تنافر دائم بين قدمى وبينها؟ لقد كنت ألعبها بكل عضو فى أعضاء جسدى، كتفى وركبتى وقصبة رجلى ومرفقى .. كل عضو إلا قدمى! وكان الأمر ينتهى بى دائما إلى أن أطرد شر طردة .. وأخرج من الملعب وبنفسى حسرة ومرارة"!

ومن الغريب أن بطل هذه القصة، بعد فشله فى أن يكون لاعب كرة، عمل أن يجرب حظه فى لعبة الهوكى .. ولكنه لم يكن أكثر نجاحا .. وهو ما حدث ليوسف السباعى نفسه

تماما بالنسبة لهاتين اللعبتين! والنتيجة أن صاحبنا كما يقول كاتبنا .. صرف النظر تماما عن النبوغ فى الناحية الرياضية!! ولكن هذا لم يمنعه من أن يحقق أمجادا كروية، بفضل أحلام يقظته! وقد أتاحت لنا كتابات يوسف السباعى، أن نقف على بعض عوالمه القديمة .. وفى هذا الموقع نذكر هذه اللقطة التى تصور أحاسيس صبينا الصغير .. "كنت أجلس لمشاهدة مباراة فى كرة القدم .. فلا تكاد تمر برهة وأنا فى موقف المشاهد .. حتى أرانى قد وضعت نفسى فى مكان قلب الهجوم وأرى الكرة فى قدمى .. أتحكم فيها كما أشاء وأتقدم بها برهة محاورا بها من أمامى .. ثم أرمى بها رمية طويلة بقدمى اليسرى (أنا لا أعرف أحرك الكرة بقدمى اليسرى خطوة واحدة) إلى الجناح الأيمن .. ويتقدم بها الجناح الأيمن برهة أكون فى خلالها قد تسربت كالبرق (وأنا بطىء الحركة) إلى مرمى الخصم .. ويرمى الجناح الكرة رمية "أوفر" فأقفز من بين اللاعبين قفزة رائعة وأتلقى الكرة برأسى وأحولها بدفعة شديدة إلى مرمى الخصم. فتستقر فى أقصى الزاوية السفلى. ويرتمى حارس المرمى بسرعة ولكن الكرة تكون قد سبقته إلى داخل المرمى. وتصيح الجماهير بالهتاف وتندفع إلى داخل الملعب لتقبيلى وحملى على الأكتاف وأسير أنا بين اللاعبين فى خجل وتواضع كأنى لم أفعل شيئا"!

وفى تلك الأيام كان كل عمل عام يبدو وطنيا، حتى لعب الصبية بالكرة فى الشوارع، ومحاولة استبدال الطرقات

بأماكن أخرى مهيأة .. وأكثر نظافة. لم يكن أمام الشباب الصغير الذى يريد أن يفرغ طاقته فى اللعب أو يهوى الكرة إلا الشارع أو الخرائب وما أشبه مكانا .. بكل قاذوراتها وأتربتها. ويشير يوسف إلى أرض الطيبى وحوش الكوبانية والشبر ونصف من التراب، الذى كانت تغوص فيه أقدامهم وتركله أحذيتهم لتثير منه كما يقول غيوم الغبار .. التى تحلق فوق رءوسهم وتملأ خياشيمهم، وتطمس أعينهم وهم يرمحون وراء الكرة. نعم كانت هناك النوادى الكبيرة والصغيرة القليلة موجودة، ولكنها كانت كما أراد الاحتلال البريطانى لا تسمح بفتح باب عضويتها للمصريين إلا فى مستوى الأسرة المالكة وكبار الأغنياء، أما بقية "الرعاع" فلهم الشوارع!

ولما لم يكن أمام هؤلاء الصغار إلا أن يبطلوا اللعب وهذا مستحيل، أو يفكروا فى مخرج آخر ينقذهم من الخرائب والطرقات، ويتيح لهم فى نفس الوقت إشباع هوايتهم .. فقد اختاروا الثانى. وهداهم تفكيرهم الذى يبدو اليوم عصريا حديثا، إلى الاستفادة بملاعب المدارس أثناء العطلة الصيفية. ولما كانوا يعرفون أن القانون لا يسمح، وأن نظار المدارس لا يجرءون أن يتخطوا اللوائح التى وضعها السادة الإنجليز الذين يضيقون على الشعب وأبنائه فى كل المجالات، فلم يكن بد لهذا الشباب الصغير من أن يفعل هو ما يعجز الكبار عن صنعه، وأن يحصل على حقوقه رغم أنف قانون المحتلين. وهكذا اتصل يوسف وأصحابه ببواب

المدرسة وقدموا له رشوة .. فسمح لهم بدخول الحوش وإقامة مبارياتهم .. وإطلاقه اللعنات أيضا عليهم وعليه، عندما يطول اللعب خوفا من اكتشاف الجريمة .. ومسايرته لهم وضعفه أمامهم وأمام تشجيعهم المادى! والسباعى لا يزال يذكر تلك الأيام البعيدة وكأنها حدثت بالأمس فقط. يقول: مازلت أتذكر فريق "الأسد المرعب" فى حوارى جنينة ناميش وفريق "الوحش الكاسر" فى طرقات شبرا، ورشوتنا لحارس مدرسة التوفيقية وبواب مدرسة شبرا فى عطلة الصيف لكى يسمح لنا بالتسلل إلى ملاعبها لنقيم فيها مبارياتنا .. إننى مازلت أتذكر فرحتنا بالأرض الخضراء كأننا قطيع أغنام يرتع وسط العشب، وخوفنا من أن يكتشف أحد المسئولين عن المدرسة بالصدفة استعمالنا لملعبها .. فتحل علينا اللعنة ونطرد من الجنة ونعود للخوض فى ميادين التراب".

ويعقب السباعى ضاحكا: ما أبعد الفارق رغم كل شىء بين الأمس واليوم .. إننى مازلت أتذكر مثلا لهفتنا على ناد .. ووقفتنا على قارعة الطريق أيضا، لنتبادل حمل الأثقال والتمرين بالدمبلز والجلة، والتنافس على رفع الأراشيه والكلين ونطر والبرس!

وهكذا كانت الكرة تسحر الأخوين تماما، يوسف ومحمود، ومع انتهاء "الماتش" والاستمتاع بالحوار الذى يدور حوله وحول نتيجته وكيف أصيبت "الأجوان" أو لم تصب .. يبدأ التفكير فورا فى محاولة خداع الأم التى لا

تخدع، وإيهامها بأن قدم كل منهما لم تمس الكرة فى يومه، بل إن صاحبها لم يشاهد لعبها من بعيد على الإطلاق! وإذا أتيحت الفرصة، حاول أيضا أن ينفى "التهمة" عن أخيه كذلك! وكانا يعرفان أن إنكار اللعب وحده لا يفى أبدا، فالأم تستطيع أن تعرف لعبا أم لا .. بمقياس لا يعتريه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو ما يبدو على وجههما من حمرة "مزرودة" .. كانت أكبر دليل لأمهما على ارتكابهما جريمة لعب الكرة! وكانا يحاولان عبثا التخلص من هذه البصمات، ولا فائدة. وكان الحل بالطبع أن يمكثا وقتا بعد اللعب حتى تتلاشى هذه الحمرة، ولكن ذلك لم يكن ممكنا .. إنهما متأخران أصلا. فهل يزيدان من فترة التأخير؟ وبالتالى من العقاب؟ غير معقول، فالعكس هو الصحيح .. إنهما يسرعان فى العودة حتى لا يضيعا وقتا أكثر ورغم ذلك لا ينسى كل منهما بين الفينة والفينة أن يسأل الآخر هل وجهه أحمر؟! ويكون الرد السريع وكأنه جاهز، بالنفى. ولعل كلا منهما يريد أن يقنع نفسه ويطمئن عليها أولا .. ويستريحان قليلا، ويصلان إلى البيت. وتكون العلقة الساخنة كما يقول يوسف السباعى .. التى لا يجدى معها أى إنكار!

(٩)

وهدوء يوسف لا يعنى أن هذه الصفة كانت تنسحب على البيت كله، فكعادة الأطفال كانت لهم ألوان لهوهم وصياحهم .. خاصة الأكبر محمود والأصغر أحمد. كانت الأم تحاول جهد قدرتها أن تسكت هذه "العفرتة" التى تحيطها، فلا تستطيع غالبا إلا بالضرب بالعصا الذى يعقبه البكاء .. وهذه تجربة لا تحب أن تكررها كثيرا. وكان أكثر ما تضيق به الست أم يوسف، تمرد أولادها على النوم مبكرين، إنهم يرفضون ويعلنون العصيان، ويثورون على الأوامر ويشاغبون .. متخذين موقفا عدائيا ضد استبداد البيت! فأين هى حرية الفرد .. التى تتيح له على الأقل أن يختار ساعة نومه وفق مزاجه! وإزاء هذا التمرد تلجأ الأم أو من يقوم مقامها من الخدم، إلى أسلوب الوعد والتلويح بمكاسب فى الغد والاستجابة إلى مطالب كانت مرفوضة أو لتدليل .. مهدهدة "نام نام وأنا أجيب لك جوزين حمام". ولكن هذا الأسلوب لا يجد صدى بل تظل الأعين "مفنجلة" والرءوس مصحصحة ولكن إذا لم تصلح الكلمة الرقيقة، فالكلمة الخشنة تستطيع أن تفعل شيئا. ويهدد الصغار بالضرب والحرمان من لذائذ، ولكن الوعيد أيضا يقف مكتوف اليد فى مواجهة إصرار الأطفال على البقاء يقظين، لا يعرف

النعاس إليهم من سبيلا. ما العمل أو كيف السبيل إلى الخلاص من وجع الدماغ، الذى تسببه هذه الكائنات الصغيرة المزعجة التى تكره النوم .. لأنه يحرمها من لذة اللعب واللهو، ولا تشبع منها أبدا، مهما امتدت .. "كنا نتمنى لو جعل الله الليل والنهار معاشا، حتى نستطيع أن نواصل اللعب ليل نهار"!

ليس هناك إذن إلا أبغض الحلال إلى الله، وهو أسلوب التخويف وإدخال الرعب فى قلوب الصغار عن طريق التلويح بـ"البعبع" والجن والعفاريت، فهى أداة ناجعة فى هذا المجال. وهكذا كانت الأم أو الخادم تقوم بهذا الدور خير قيام، وكان البعبع المفضل هو "الشيخ شيبون شيبر"! .. الذى يتطاير من نظرات عينيه شرر ينير له الطريق، وأقدامه التى هى أشبه بحوافر الخيل والتى تقرع أرض الشارع قرعات منتظمة لم تعد قاصرة على عربات الحنطور كما كانوا يعرفون! وتنجح المحاولة أخيرا .. ينكمش الأطفال على أنفسهم ويدسون وجوههم تحت الفراش وقلوبهم ترتعد، ويكون هذا تمهيدا سريعا إلى النوم وترتاح الأم وتبدأ تلتقط أنفاسها لساعات، يبدأ بعدها الصياح ثانية ومعه "عفرته العيال"!

يكتب يوسف السباعى عن ذلك فيقول: ما من طفل إلا وله "بعبع" يخيفونه به حتى يرتدع ويزدجر، وما أظن الشيخ شيبون يختلف فى شىء عن "أبو رجل مسلوخة" أو "عفريت الليل بسبع رجلين" إلى آخر هذه الشخصيات الخيالية التى ابتكرت لإرهاب الأطفال"!

(١٠)

وإذا كان اليوم الدراسى والعام الدراسى يمتصان بلاشك معظم "عفرتة" الأولاد، فإن العطلة الصيفية بهذا الشكل تبدو بالنسبة للأبناء غاية المراد من رب العباد، بينما هى للأم تبدو غولا بشعا يلتهم أعصابها وأمن بيتها ونظام حجراتها. ولهذا كان من الطبيعى أن تحسب الأم لمقدم العطلة ألف حساب، وهى تستجير بالله من الأولاد مستمطرة اللعنات التى كانت ترجو أن تكون أبواب السماء ساعتها مفتحة، على وزارة المعارف العمومية -التربية والتعليم- ومن فى وزارة المعارف الذين لا يجعلون العام الدراسى يشغل السنة كلها، حتى ترتاح من عذاب أجازة آخر العام!

وصفحات الذكريات حافلة بالأحداث المشهورة فى العطلات الصيفية، التى تتيح للمرء أن يختار .. كما يمكننا أن نفعل لحادث بلغ فيه غضب "الست أم يوسف" قمته.

فى بداية ذلك اليوم لم يكن فيه ما يجعله يختلف عن غيره، فالهواية الأولى أى لعب الكرة .. كان يجرى لها الاستعداد كالعادة على قدم وساق، وقد انتهى جودة - الخادم- من عمل كرة شراب ضخمة حشاها بكل ما استطاع

الحصول عليه من خرق البيت، وكان آخر أوامره لابنى رب البيت الصبيين الصغيرين محمود ويوسف -الابن الثالث أحمد كان لا يزال طفلا دون المستوى أو السن الذى يسمح له "الكابتن جودة" بمزاولة اللعبة -خلع الأحذية حتى يتساوى الجميع، ولا يستطيع أحد أن "يكسر" زميله. وفعلا تم خلع الأحذية ووضعها خلف الباب، وقبل أن تتحرك الأقدام داخل هذا الملعب الصغير الذى خطط أمام المنزل، سمعوا أصداء مظاهرة قادمة من شارع الخليج تهتف بحياة الوفد ضد الوزارة القائمة وزارة إسماعيل صدقى باشا. وكان يمكن بعد أن تستغرقهم الفرجة والمظاهرة تقترب، أن ينصرفوا إلى ما كانوا فيها .. ولكن روح الجماعة التى أحاطت بالمتظاهرين من حى الماوردى والمدبح بجلاليبهم وطواقيهم وعصيهم وشومهم وهم يهتفون للوطن وضد الاستبداد وتكميم الحريات ولحزب الأغلبية بحماس وإخلاص، جعل هذه الروح تسرى شيئا فشيئا فى نفوس اللاعبين الثلاثة .. فنسوا تماما ما بأيديهم، ولم يكن صاحبنا وأخوه فى حاجة إلى إشارة البدء من جودة وهو يقول "يا لـلا بينا" ليندسوا فى المظاهرة مسرعين، مشاركين فيها قدر ما يستطيعون يهتفون ويصرخون ويقفزون وينسون الدنيا والآخرة .. وتخترق المظاهرة العديد من الشوارع .. من وابور الرمالى إلى البغالة، وهى تزداد ضخامة وكثافة .. والصبيان الثلاثة داخل الكتلة المتحركة لا يستطيعون الانفلات، حتى لو فكروا وأرادوا.

ويمضى الوقت سريعا، ليفاجئوا أنه قد انقضت ساعات طويلة .. ويعودون إلى البيت.

لم تعرف الأم فى البداية بغياب طفليها أو جودة .. لقد نادت على يوسف ومحمود والخادم، ثم كررت النداء ولا فائدة. وأعادت الكرة بعد قليل، وساعتها أدرك قلب الأم أن الأولاد اختفوا. وكلما طال الوقت ولم يحضروا، يتحول قلقها إلى خوف وفزع وتفرخ الهواجس .. وتقف فى الشرفة تبكى وهى فى حالة تقرب من الانهيار. ولا يملك الأب الذى عاد من خارج المنزل إلا أن يذهب إلى أقسام البوليس يبلغ عن غياب المختفين، كما يذهب إلى مستشفى القصر العينى يبحث عنهم بين الجرحى أو القتلى ضحايا الحوادث .. الحوادث العادية أو غير العادية أى المظاهرات التى يتساقط شهداؤها صرعى برصاص البوليس والإنجليز .. ولا فائدة.

فى تلك الليلة .. تبخرت تماما نشوة الاشتراك فى المظاهرة -هل يرجع هذا السبب إلى كراهية يوسف السباعى بعد ذلك للمظاهرات والاشتراك فيها وهجومه عليها؟!- لا بسبب الضرب والشتائم والوقوف على مدى حزن الأم فحسب، بل لعامل آخر تماما هو القرار الذى انتهى إليه إصرار الست أم يوسف وهو .. قسمها ألا تبقى فى البيت لحظة واحدة، إذا لم يدخل الأب فى صباح الغد الباكر أولاده جميعا -بالمرة تحشر فيهما أصغرهم أحمد ومعهم الخادم جودة- المدرسة أى مدرسة!.

وفى الصباح ظهر أن قرار الأمس لم يكن من صنف "كلام الليل مدهون بزبدة يطلع عليه النهار يسيح"، بل كان أمرا حقيقيا نهائيا! ولعل محمد السباعى حاول أن يخفف من غضب زوجه -وقد فعل- ويتوسط فى الأمر ويبعد عن أولاده هذا العقاب الذى كان يستشعر صرامته وقسوته أكثر مما يحس محمود ويوسف أنفسهما، ولكنه لا ينجح. ويضطر إلى البحث عن مدرسة أهلية -خاصة- أو بمعنى أدق "كتاب" أى كتاب، يقضى فيه الصغار بقية العطلة الصيفية. فالمطلوب هو مجرد منفى أو سجن يبعدهم عن الدار. وقد كان .. ومن الطريف أن جاء الاختيار هو الآخر .. عذابا ثانيا .. فعل الأب الحنون ذلك وهو لا يدرى بالطبع. فقد اختار لهم آخر صاحب كتاب كانوا يتمنون الالتحاق بكتابه .. وهو الرجل الذى كانوا يجرون خلفه فى الطريق شاتمين ساخرين مستهزئين .. والذين كانوا يظنونه مجذوبا معتوها من قمة رأسه إلى أخمص قدمه .. الشيخ كحكو!!

وما أكثر ما كان يحدث من مفارقات لهذه الجماعة الصغيرة فى هذه المدرسة الأهلية .. فأصغرهم أحمد الذى لم يكن فى ذلك الحين يفرق تماما بين البيت والمدرسة، يرفع عقيرته بالغناء فى أثناء الحصص مرددا أحد المقاطع من أغنية معروفة هى "آه يا مليحة يا ملوعينى" متجاهلا كل ما حوله! وفى إحدى المرات صرخ المدرس فى يوسف يريد أن يصفعه، فيسرع أحمد قافزا من مكانه ممسكا بالمعلم صائحا: سيب أخويا يا ابن الكلب!

وبمناسبة المظاهرات يقص أحمد السباعى، أنه اشترك مع أخيه يوسف وهما صغيران فى عام ١٩٣١ فى إحدى المظاهرات التى قامت تعبر عن غضب الشعب على حكومة إسماعيل صدقى، وبدأت من جنينة ناميش حتى البغالة. وكبرت المظاهرة ولم يتعرض لها البوليس لأن القائمين بها أطفال وصبيان! ولكن عندما هز مرآها الكبار واشتركوا فيها وتضخمت فى السيدة زينب .. انسحب منها الأطفال جميعا بعد أن قاموا بدورهم!

(١١)

وقصة حصول يوسف السباعى على شهادة الابتدائية فى عام ١٩٢٨، تحتاج إلى أن تروى. فى تلك السنة أعلن البيت حالة الطوارئ، فإن الولدين الكبيرين وهما محمود ويوسف، مرشحان لنيل الشهادة. وكان هناك أكثر من باعث يدعو إلى إعلان هذه الحالة، الأول أن الابتدائية فى ذلك الحين هى أولى الشهادات الدراسية الكبيرة، ويكفى أن صاحبها يستطيع أن يعمل بها بسهولة ويغدو موظفا محترما .. فما أقل عدد الحاصلين على هذه الشهادة كل عام! والثانى أن الأم كانت تحس بكثير من الاعتزاز، لأن ولديها قاب قوسين أو أدنى من الحصول على هذا المؤهل رغم صغر عمريهما - الأول ثلاث عشرة سنة والثانى إحدى عشرة سنة- فى الوقت الذى ترى فيه المدارس الابتدائية تكتظ بالتلاميذ أصحاب الشوارب المبرومة ويبلغ بعضهم مجموع عمر ولديها معا، ومنهم من كان متزوجا وصاحب أولاد! أما الباعث الثالث، فهو استشعار الست أم يوسف .. ضرورة المزيد من الحزم والضرب على الأيدى فى هذا العام، إزاء ما تؤثر سماحة الأب البوهيمى ومفهومه المتحرر عن قيمة الشهادات "الفارغة"! والخشية أن تتسرب منهما أشياء إلى الأولاد ..

مينفلت العيار أكثر مما هو. ولم يكن الأب محمد السباعى يكتفى أن أبناءه يعرفون أنه عندما حصل على شهادة المعلمين العليا -وما أندر من يحصل عليها فى القطر كله- لم يجد مكانا ملائما يحتفظ به بهذا الدبلوم، أهم من مقهى -"قهوة الحقوق"- بحى عابدين .. كان يختلف إليه هو أصحابه! .. بل كان يصرح لهم برأيه السيئ فى المدارس والشهادات ورجال وزارة المعارف. وأكثر من ذلك .. يدعوهم إلى التخفف من الاستذكار إن لم يستطيعوا أن يتركوها كلية!

أعلنت الأم إذن حالة الطوارئ، ولكن الابنين محمود ويوسف، كانا فى واد وهى فى واد .. لم يزد أو ينقص شىء فى حياتهما أو برنامجهما .. الاهتمام باللعب والكرة هو هو. الساعات القليلة مع المقرر المطلوب هضمه فى الامتحان هى هى. وفى آخر السنة نجح الأول ورسب الثانى! وقامت المناحة! لم تشفع الخمسين فى المائة هذه وتوفيق ابن من الاثنين، للتخفيف من حكاية رسوب الثانى. كانت الست عيشة أميل إلى التشاؤم، ودمعتها قريبة .. كأية أم مصرية تسرع إليها الأحزان قبل الأفراح. ولما كانت إيجابية طوال حياتها فقد أسرعت إلى عقد مجلس الأسرة، الذى لا يحضره أبدا رب الأسرة .. والسبب أن الرائد الكبير البوهيمى محمد السباعى، كان يسخر من أسلوب حزم زوجه التى تأخذ الأمور دائما برؤية جادة ونظرة حاسمة صارمة. بجانب أنه أصلا لا يطيق الشئون الحياتية التافهة، مثلما

تفزع الست أم يوسف وخاصة فى حكاية "تربية الأولاد" .. لذا لم يكن عجيبا إذن أن يتكون هذا المجلس من الأم ومن أخيها التاجر خال الأولاد، ونوقشت الكارثة التى كان يمنع سوادها التام أن ليوسف ملحقا فى الحساب .. يعنى أن الأمل فى رحمة الله لا تزال موجودة وواسعة! وانتهى المجلس إلى ضرورة إلحاق الابن الراسب بمدرسة وادى النيل الابتدائية الأهلية -التى تقع بشارع السد بالقرب من ميدان السيدة زينب- وهى مدرسة حرة .. فى فترتها الصيفية التى كانت تفتح فيها أبوابها للتلاميذ الراسبين أصحاب الملاحق. ولم يكتف المجلس بذلك، بل أشار إلى ضرورة أن يأخذ درسا خصوصيا كذلك .. ضمانا للإحاطة بالعدو العتيد .. علم الحساب!

ويبدأ تحقيق الخطة التكتيكية التى وضعت بلا توان منذ الغد .. ويقول السباعى: كان على أن أدرس ليل نهار، دراسة كان يمكن أن تتيح لى الحصول على دكتوراه فى الاقتصاد .. وليس مجرد المرور فى ملحق حساب فى الابتدائية! ورغم أن الصغير كان صادقا بالطبع فى الخلاص من مأساته التى تنعته بالخيبة، وتمنعه من أن يستمتع بعطلته الطويلة كما يحب ويشتهى تماما، إلا أن الأمور سارت بشكل آخر تماما، لا يمكن أن توصل إلى الاطمئنان إلى النجاح المأمول.

كانت مدرسة وادى النيل غير بعيدة، إذ كانت فى ميدان السيدة زينب، بينما بيته فى جنينة ناميش، وكان يذهب فى

الصباح فى نفس موعد المدرسة العادية التى ليست فى الإجازات، ومنذ أن يطأ عتبتها داخلا إلى أن يفعل ذلك ثانية خارجا، كان ينتقل بين ثلاثة ألوان من الأنشطة، وكلها بعيدة تماما عن الحساب وامتحان الحساب! الأول وهو أهمها: إسقاط البلح الذى لم ينضج بعد "النينى الأخضر" من ثلاثة نخلات فى حوش المدرسة والتهامه التهاما. والثانى الذهاب إلى الكانتين وأكل ما ييسره المصروف من الطعمية، التى كانت تبدو أشهى طعمية فى الوجود. والنشاط الثالث الذى يقوم به هو التجول فى المدرسة الخالية من المدرسين، وسكب الحبر من جميع "الدويان" - جمع دواة كانت توضع فى فراغ على سطح درج التلميذ- فى الفصول، ولعب الكرة أيضا، ثم الصعود إلى السطوح والاستمتاع بمراقبة حركة المرور فى الميدان الكبير .. ميدان السيدة زينب! وبهذا الشكل كان يحس أن هذه المدرسة، ملكه .. يفعل ما يشاء بلا معارضة، لأنه ليس هناك أصلا من يعارض فى هذا المكان، الذى يندر فيه المدرسون ويكثر الفراشون، ويظهر الناظر كل حين ومين، فيدور بينه وبين التلاميذ الذين يلتقون به هذا الحوار السريع الثابت كل مرة:

- مبسوطين ياولاد؟
- مبسوطين يا بيه!

وعندما تنتهى هذه المرحلة بشعبها الثلاثة ويخرج من المدرسة، لا يكون هذا إيذانا بالعودة إلى البيت .. بل

تمهيدا ببدء مرحلة أخرى ذات نوعية مغايرة تستوعب البند الثانى من قانون .. "ساعة لقلبك وساعة لربك". فهو يدرك أنه فى حاجة إلى أن يكون فى رحاب الله .. ومسجد السيدة زينب على بضع خطوات، فيشد رحاله إليه. ومن بنود هذه الزيارة لديه، الفرجة أولا على "مجاذيب السيدة"، ولم يكن يعرف أنهم أشهر المجاذيب، ثم دخول الميضة يتوضأ ويصلى ليفتح الله عليه ويقيد اسمه فى سجل الناجحين ببالغ كرمه وعطفه. وكان يستروح فى هذا الموقع أشياء غير عادية، "كنت أحس براحة كبرى وأنا أجلس فى رحبة الجامع الفسيح مستندا إلى أحد أعمدته ممدا ساقى فوق سجاجيده الحمراء السميكة .. متخيلا الله مطلا على من مكان ما فى هذا السقف .. وأنه سيتولى عنى مهمة الملحق! وأنه لاشك قد أجرى اللازم مع رسله .. وأوليائه .. على رأسهم السيدة زينب .. لإنجاحى فى الامتحان". ويكون هذا اللقاء الروحى، هو آخر مشاهد الفترة الصباحية "الدراسية" .. التى تختلف فى بعض الأحيان عندما يصلى فى جامع الماوردى ويحضر حلقات الذكر .. ويذكر معهم! بعدها يذهب إلى المنزل وقد بدا عليه الجهد والتعب من لعب النهار، يفسره أهل البيت بالانغماس فى الحساب وعالم الحساب.

ويتناول غداءه، ويستعد بعد العصر للذهاب إلى مدرسه الخصوصى رياض أفندى مدرس الرياضة والأخ الأكبر لحبشى صديقه وجاره الدائم فى مدرسة محمد على

الابتدائيـة. كـان بيـت مـدرس الحسـاب فـى آخـر شـارع زيـن العـابدين، حيث يطـل علـى "قمـاين" الجير وجبـل الجيوشـى. ولمـا كـانت المسـافة بينـه وبيـن جنينـة نـاميش طويلـة، فقـد شـغل ذهنـه فـى وسـيلة تيسـر لـه قطعـها وهـو مسـتريح نسـبيا .. خاصـة والدنيـا صيـف والقـاهرة شـديدة القيـظ، وهـداه تفكـيره إلـى اسـتخدام وسـيلة مواصـلات مناسـبة وهـو الحنطـور، ولـم يكـن هـذا الاختيـار نابعـا مـن أن هـذه العربـة التـى يجرهـا الحصـان، هـى أنسـب "المواصـلات" للحـى الشـعبى العريـق .. لـم يحـدث هـذا لسـبب بسـيط هـو أن صاحبنـا لـم يخطـر ببالـه أن يدفـع أجـرا ويجلـس داخلـها كبقيـة خلـق اللـه، لأن مصروفـه كلـه لا يفـى بـهذا الحـق .. بـل يركبـها بالمجـان .. نعنـى "يتشـعبط" خلفـها و.. "كريـج ورا ياسـطى"! وهكـذا كـان يوسـف، يـأخذ طريقـه إلـى مدرسـه، مـا يكـاد يبتعـد قليـلا عـن البيـت، وتبـدأ أول عربـة حنطـور تمـر بـه فـى اتجـاه شـارع زيـن العـابدين، حتـى يـأخذ مكانـه فـى مؤخرتـها .. ويبقـى الصبـى جالسـا متأرجحـا محنـى الظـهر، ينتظـر ملاحظـة العربجـى لـه وعقابـه بيـن لحظـة وأخـرى، حتـى يقـع المحظـور ويصيبـه الكربـاج ويقفـز سـريعا مـن مكمنـه. وفـى بعـض الأحيـان يحـدث أن تغـير العربـة اتجاهـها عـن اتجاهـه هـو، فيضطر إلى تركها مكملا طريقـه سيرا علـى الأقـدام!

وبعـد هـذه الرحلـة القصـيرة، يصـل إلـى بيـت مدرسـه أو بيـت صديقـه حبشـى، ومـن الطريـف أن المـدرس الخصوصـى لـم يكـن يتواجـد فـى الـدار إلا نـادرا، وخاصـة فـى الموعـد

الذى خدده لتلميذه! وفى أحسن الأحوال عندما يجده، يكون المدرس على وشك مغادرة البيت. ولكن هذا لا يمنعه أبدا أن يلقى على "تلميذه" سؤاله الدائم وهو ينزل السلم:

- مبسوط يا يوسف؟

- مبسوط يا أفندى!

وبالطبع لا يدرى -المدرس- أو يفكر، أنه هو نفسه بسبب غيابه المتكرر، سر هذا الانبساط. أما فى الأيام النادرة التى تعد على أصابع اليد الواحدة والتى يتصادف وجود رياض أفندى فى البيت ولن نقول يحافظ فيها على موعده، فهو يعطيه القليل من الواجبات .. التى لا يتابعها أبدا!

ولم يكن هذا فى الواقع، هو وحده باعث سعادة السباعى من فترة الدراسة المسائية .. فقد كان غياب المدرس وما يمثل من الابتعاد عن قرف الدرس والعقاب والزجر وتأدية الواجبات .. الشطر الأول من هذه السعادة، أما شطرها الثانى فكان فيما يقوم به بعد ذلك من عمل.

كان الكبار والصغار فى ذلك الحين، وخاصة الذين يقطنون على مشارف جبل الجيوشى .. شأنهم شأن المعاصرين الذين يعيشون فى نفس الأماكن التى تحركت عليها قبلا فى الزمن الغابر، مدن قديمة وحضارة غابرة .. يتنفسون أوهام العثور على كنوز مخبوءة فى باطن الجبل. وما أكثر القصص التى كانت تردد عن "الزلع" المملوءة دهبا والتى يجدها "الموعود"، عند أول ضربة فأس

مناسبة. وإذا كانت هذه "الحالة" لا تزال تعشش حتى اليوم فى أذهان الكثيرين، فنستطيع أن نتخيل حجمها منذ أكثر من سبعين عاما! ولم يكن الإيمان بالعثور على الكنوز، يقف عند حد الفكرة المجردة .. بل كان يتجاوزها فى كثير من الأحايين إلى العمل نفسه، متحولين من النظرية أى التطبيق. سواء بأنفسهم أم بالاستعانة بوسطاء الأرواح والجن والعالم السفلى. لذلك لم يكن غريبا بالنسبة لحبشى أولا وبيته يطل على الجبل المثير الجيوشى ثم لصديقه يوسف، أن يؤمنا بصحة هذا المعتقد، ويبدو أن الجيب الخاوى الوفاض، كان السبب فى أنهما لم يفكرا فى استخدام الوسطاء، مكتفين بالقيام بمهمة الاكتشاف بأنفسهما.

وهكذا ما يكاد صبينا الراسب فى الحساب، يذهب لتلقى الدرس الخصوصى الذى لا يأخذه، حتى يجد صاحبه حبشى فى انتظاره على أحر من الجمر للقيام بجولتهما الاكتشافية. وكان شقيق المدرس قد أعد لهذه المهمة أداة ظنها جد كافية فى نطاق الحد الأدنى طبعا لعملية العثور على ما تخفى طبقات الأرض من عملات ذهبية وفضية، وهى عصا طويلة يمكن استخدامها كمجس! ويسرع الصبيان إلى الجبل يعتليانه، بهمة لا تعرف الكلل، ينقبان ويبحثان، ومن الطريف أن الهدف من وراء هذا العمل كان مبلورا، بعيدا عن التسلية وقطع الوقت، لقد كان يوسف جادا يرى فيه أنه يصله إلى ذات النتيجة التى يقود إليها جهده فى دراسة الحساب، حسبما يحب وليس كما هو واقع! لقد اكتشف

فيها نظرية منطقية .. يرتبها على هذا الأساس: "إذا وجدنا المال .. اغتنينا .. وإذا اغتنينا .. لم يكن بنا حاجة إلى التوظف .. وإذا لم يكن بنا حاجة التوظف .. فليس بنا حاجة إلى المدرسة .. وبالتالى .. إلى المذاكرة وإلى ملحق الحساب .. وإنى إذا قدر الله لى الحصول على الكنز، وليس ذلك عليه ببعيد بعد قضائى ربع يوم فى بيته متعبدا إلى جوار أوليائه .. فإنى سأصبح من أصحاب الملايين .. وأستطيع بمنتهى البساطة أن أفتح عشر مدارس .. كمدرسة وادى النيل .. وأملأ فناءها بلحا .. وكنتيناتها طعمية"!!

وهكذا كانت العصا تدق آلاف المرات فى باطن الجبل، ولكن بلا صدى ينبئ عن تجويف فى باطن الأرض حشى به الكنز. مرة واحدة سمعا رجع الصدى .. وكان ذلك قبيل الامتحان، الذى لم يمكنهما حلول موعده من الاستمرار فى البحث .. ومن الطريف بهذه المناسبة أن مصلحة الآثار، كشفت بعد ذلك فى نفس الموضع كما يقول يوسف السباعى، عن أثر قديم حقيقة، وهو أحد المساجد!

وجاء يوم الحساب فى ملحق الشهادة الابتدائية، ودخل يوسف لجنة الامتحان .. واستلم دفتر الإجابة وورقة الأسئلة. وبدا له أنه كان يجيب فى الدور الأول على أضعاف المسائل التى استطاع أن يفك طلاسمها عن هذه المرة .. وزاد الأمر سوءا أن الامتحان كان يحفل بدرس مسائل الحنفيات والبالوعات. وكان هذا أكثر الدروس مدعاة لانقباضه وغضبه وقرفه، إلى الدرجة التى يقول فيها

عندما كبر: والتى جعلتنى حتى الآن أضيق بمناظر الحنفيات والأحواض والبالوعات! ورغم هذا فلم يحاول أن يجعل عاطفته هذه تغلب عليه، فحاول أن يحل من المسائل التى لا يفهمها ما استطاع رغم اعترافه و.. تعددت الأسباب والسقوط واحد! وخرج من الامتحان غير متنفس الصعداء .. فلم يكن تسليم ورقة الإجابة بنهاية مأساة امتحانه، إنه مطالب من خاله أن يأتيه بأجوبة المسائل التى وفق فى حلها على ورقة الأسئلة، حتى يعرف مدى توفيقه فى الامتحان أو عدمه. وكان يسر يوسف ألا يكذب، ولكنه ليس من الكذب بد، وكعادة أغلب التلاميذ فى مثل هذا الحال أيضا، تقيد على هامش ورقة الأسئلة النتائج الصحيحة للمسائل كما حلها أبرع الطلبة، لا كما حلت فى الواقع! وكذلك فعل هو! وزيادة فى الاطمئنان، فقد ذهب يوسف إلى مدرسه الخصوصى إياه، ليكتب له الأجوبة الصحيحة! .. وعاد إلى البيت. ولكن يبدو أن تلميذنا الصغير وهو يقارن بين الإجابتين، والاختلاف الكبير بينهما، خجل من نفسه .. خاصة وقد تجسدت له "عملته" بعد أن قيد الإجابة على الورقة، وتخيلها مستند جرمه .. فما كان منه إلا أن مزق نتائج الإجابات المزيفة والحقيقية على السواء! واعتذر فى البيت، أنه تسلى بقرض الورقة فى الطريق وهو منشغل البال. ولم ينس رغم ذلك أن يعلنهم بإجادته الحل، إلا مسألة واحدة فقط أخفق فى نتيجتها الأخيرة!

وبين يوم الامتحان وإعلان النتيجة، أخذ يعب من اللعب عبا، إنها فرصته الوحيدة .. إنه راسب راسب فلماذا لا يهتبل هذه الأسابيع، قبل أن يحط عليه الغم الرسمى والفضيحة ذات الذيول. وكان قد اتفق مع واحد من أصحابه بأنه يأتيه بالنتيجة إذا عرفها قبله، ويجيئه هذا الصديق ويعلنه بسقوطه. وفى التو واللحظة يرفع البيت رايات السواد والأحزان، التى أقامها للخائب النائب. هذه اللحظة لا ينساها السباعى أبداً .. لا يزال كلما تذكرها يحس أنه يهبط إلى قرار سحيق لا نهاية له. كما يذكر بوضوح ما فعله إذ ذاك بلا وعى ومن غير أن يفهم باعثه، أسرع وتوضأ وأخذ يصلى ويصلى ويصلى .. صلاة طويلة مستمرة لا تعترف بعدد ركعات، ولم يدر كم من الوقت استمر يتعبد بصدق وابتهال إلى الله .. كان بعيدا عن حجرته وأسرته وبيته والدنيا كلها، ورغم أنه سمع وكأن الصوت يأتى إليه من بعيد من عالم آخر .. أصوات باعة الصحف تنادى "نمر التلامذة"، إلا أنه لم يهتم ولم يفكر أن يهتم بالسلب أو الإيجاب، ومضى فى صلاته .. حتى فوجئ بأخيه الأكبر محمود يندفع إليه صارخا:

- يوسف .. أنت نجحت.

وفى الوهلة الأولى لم يفهم ماذا يعنى الآخر .. من الذى نجح، وما دخله هو فى أمور الناجحين أو الراسبين .. لقد ظهرت نتيجته هو وانتهى الأمر. ولم يدر محمود من المخبول فيهما .. هو أم يوسف .. إنه يخبره بنجاحه وهو

"ولا هنا" فعلا، واضطر أن يهزه مرات متتالية، ويصرخ فيه صرخات كالرعد، حتى عرف يوسف أنه هو المعنى بالنجاح. ولكن غير معقول، وقدم إليه محمود الجريدة .. وقرأ رقمه مرة ومرات واسم مدرسته مرة ومرات .. حتى اقتنع! ويكتب السباعى بعد ذلك هذه الكلمات .. "وتركت جسدى يسترخى .. وأعصابى المشدودة تستسلم .. ونظرت إلى أعلى .. وأنا أحس بشكر فائض، وحمد عجيب .. لقد بدا لى الله .. وكأنه يبتسم فى رضاء .. ويقول لى: "مبسوط يا عم .. أديك نجحت .. بطل لعب بقى" ..

(١٢)

يقول بطل إحدى قصص يوسف السباعى "وأنا على مر السنين وعلى ما يفرضه على السن من تؤدة واحتشام لا أستطيع أن أنتزع نفسى من طفولتى وصباى". ("دموع فى ليلة حمراء" - مجموعة "ليال ودموع" - ص٥). وهذا القول أكثر انطباقا على مؤلف القصة نفسه يوسف السباعى من بطلها! لأن الفنان الحقيقى هو طفل حقيقى .. وهى بديهية تطالعنا كلما التقينا فى الحياة بمثل هذا الفنان وقويت الصلات بيننا وبينه، أو كلما تعمقنا ما سطر. وإذا كان اكتشاف هذا الوجه يحتاج عند بعض الأدباء إلى مزيد من الغوص فى أعماقهم، فليس الأمر كذلك بالنسبة إلى يوسف السباعى .. لأن القارئ يكاد يلمسه لمسا فى معظم إنتاج فنانه مختلف الألوان. ولعل السباعى أكثر الأدباء العرب ترديدا لنغمة الطفولة فى قصصه -من الطريف أن الكتابة للأطفال لم تستهو أديبنا يوما- .. ولا نعنى أنه يتناول شخوص الأطفال بكثرة، فهو لم يفعل كما لم يفعل جيله كله، الذين جاءوا بعد جيل الرواد الأول يتابعون أولا القضايا المصيرية التى شغلتهم، والتى تعتمد بالطبع فى التصوير القصصى على الكبار .. ولم تترك لهم فائض جهد

يسمح بالالتفات إلى شخصيات الصغار -وهل فعلت الأجيال التالية إلا نادرا؟! بل نقصد أنه قدم ملامح كثيرة لطفولته، ليس هذا فحسب، بل للبراءة أيضا التى تستوعب هذه الطفولة وتستوعب نفسه هو كذلك .. لم تفتر أو تضعف أبدا ..

فى إحدى قصصه القصيرة يقول على لسان بطله: "من أدرى بنفسى منى؟ إنى مازلت كما كنت، نفس الصبى الذى كان يعدو فى فناء المدرسة، ويقفز على ساق واحدة خلال الفسح، ما أحسست فى باطنى أنى قد تغيرت، بل إنى لأشعر دائما بنفس "الهيافة" وقلة العقل، و"الشيطنة"، التى تدعونى لأن أفعل ما كنت أفعل فى صباى، لولا أنى أتلفت حولى فأجد ظاهرى يكذب باطنى، وأجد من حولى يحترموننى، ويبجلوننى، ويحيطوننى بهالة من التقدير، تجعلنى أنكص على عقبى .. وأجاريهم فى تقديرهم، وأدعى الرزانة والتعقل"!

ومن الطريف أن قارئ السباعى، يقف فى كتابات صاحبه المبكرة أى فى غضون سنوات ١٩٤٨، ١٩٤٩، ١٩٥٠، ١٩٥١ .. أى وهو فى عز شبابه "الأول" على اهتمامه حتى وهو فى هذا العمر بفترات صباه وشبابه .. وهو اهتمام يتأخر فى حياة المرء ولا يبكر كما فعل يوسف السباعى. ولعل أهم سمات هذا العنصر هو الالتفات إلى السخافة اليومية، التى تجعل الكبار يلونون طفولتهم وصباهم وشبابهم بلون وردى مترع بالأكاذيب التى لم تقع .. فهم كانوا دائما قمة الذكاء

والألمعيـة والنشـاط والأخـلاق. فمـاذا كـان موقـف قاصنـا منـها؟ لـم تكـن سـخرية صاحبنـا منـها أو تهكمـه عليـها، بمانعـة مـن أن يتخيـل نفسـه عندمـا يكـبر أيضـا فـى غمـار هـذه السـخافة ذاتـها! ولا يقـف تصـوره عنـد هـذا الحـد، بـل هـو يحول استشـراف الغـد هـذا إلـى شـىء واقـع عندمـا يجسـده فـى قصصـه، وصاحبـه لـم يـزل شـابا واسـما جديـدا فـى الحيـاة الأدبيـة المصريـة! إنـه يعـرف ضغـوط الأيـام التـى لا تسـمح للبشـر بالحفـاظ علـى الكثـير مـن آرائـهم، زيـادة علـى أن تقـدم العمـر والنضـج يشـاركان فـى تحويـر وجـهات النظـر السـابقة، التـى كـان يفرضـها اندفـاع الشـباب مثـلا أو بـراءة الصبـا والطفولـة! وهكـذا طـالع القـارئ فيمـا كـان السـباعى ينشـره مـن قصصـه القصـيرة هـذه الرؤيـة، كمـا فعلـت قصتـه "يـا سـاكن القلـب" -نشرها بعـد ذلـك فـى مجموعتـه "أغنيـات"- التـى تبـدأ بـهذه الكلمـات التـى يقولـها بطلـها: كنـت بـالأمس كذابـا كبـيرا. كنـت مضطـرا إلـى ذلـك .. وكـان يتحتـم علـى أن ألقـى إليـهم بتلـك الأكذوبـة الكـبرى. وإلا فأيـة فجيعـة كـانت تصيبـهم لـو أنـى قذفتـهم بسلسـلة الحقـائق التـى كـانت تتتـابع فـى ذهنـى وقتـذاك؟ .. كنـت مرغمـا عليـه، وكـان مـن الجنـون أن أخلـع عنـى ذلـك الثـوب الفخـم الأنيـق الـذى ألبسـتنى إيـاه أوهـام لأبـدو مخلوقـا مجـردا عاديـا لا خـوارق بـه ولا معجـزات".

وأكـاذيب الكبـار عـن صبـاهم هـذه، ليسـت قـاصرة علـى أصحابـها. أى أنـهم ليسـوا هـم الذيـن يروجونـها وحدهـم، بـل يجـدون مـن يشـاركهم فـى ترويجـها احتسـابا وابتغـاء لوجـه

الله .. وهم أو هو المجتمع الممثل فى النشء الجديد الذى يتصور الأشياء ببكارته وطهارته وعدم خبرته أيضاً! يسجل يوسف السباعى فى كتاباته، قصة زميله الذى أصبح مدرساً لشقيقه الأصغر أحمد .. "وجاء أخى ذات يوم يسألنى: أحقاً أن "فلان أفندى" .. كان الأول فى المدرسة؟ وأحقاً أنه كان بطلاً للكرة والملاكمة" .. وأنه كان .. وكان .. ولم أتمالك من الضحك، فقد كان صاحبى هذا مثلاً للكسل وبطلاً فى الخيبة .. وسألته من قال هذا، فأجاب بأنه يبدو كذلك. وأنهم سألوه فلم ينكر بل وأكد ظنونهم! وطلب منهم أن يجمعوا بين الدراسة والرياضة وأن يتخذوا منه قدوة، لأنه كان فى صباه كذا وكذا. والتقيت بصاحبى وسألته ضاحكاً عما دعاه إلى تلك الأكاذيب، فأجابنى دهشاً: ماذا كنت ترانى قائلاً لهم وهم يأبون إلا إحاطتى بهالة من الإعجاب .. إن من العسير على خذلانهم، وأسهل منه أن أجاريهم فى الخديعة وأخدع نفسى!

ويعقب السباعى ساخراً: ولقد وجدت نفسى فى مثل مأزق صاحبى، وكان من العسير على خذلانهم، فجاريتهم فى الخديعة ولكنى لم أخدع نفسى؟

.. وهذا هو الفارق ..

وتتحول بعض أعمال السباعى القصصية، إلى تجسيد حى لأمانيه وأحلام يقظته، تقدمه هو بتكوينه وشخصيته .. كما فى قصته "رجل عبقرى" وهو يجعل الأديب العبقرى

يرفض قصائد الإشادة بفضله، ولا يكاد ينصت إليها "فهو أقدر الناس على السرحان فى أثناء الخطب والمحاضرات". ولا يأخذ صاحبنا من نفسه هذين الملمحين فحسب، بل يضيف إليهما أيضا رفضه هو شخصيا للتأقلم مع القيم التى تتنافى وجوهره المتواضع الصريح. يقول راوى القصة عن طبيعة شخصية الأديب الكبيرة: وكان صاحبى رغم عبقريته ككاتب .. ورغم كل ما عمل له من تكريم .. ورغم ما ناله من شهرة وتقدير "مازال فى نظرى" ألخم" خلق الله! وكنت أرى فيه خير دليل على المثل العامى "يعطى الحلق للى بلا ودان"! ولعل السباعى وقد كتب هذه الكلمات حوالى سنة ١٩٤٩ وقد بدأ يتنسم الشهرة، وكان يؤكد لنفسه من جديد المنهج الذى اختطه. ولذلك يصور نفسه فى قابل أيامه -وللحقيقة لقد فعل وصدق- "كلما ازدادت شهرته ازداد تواضعه وازداد حياؤه". ويعقب الراوى ساخرا وكأنه الجانب الآخر فى الشخصية الذى يحاور فى عدم التكيف الاجتماعى هنا: بت أعتقد أن الرجل لا يعرف قدر نفسه، وأن ما يصدر عنه فى دلائل النبوغ وعلامات العبقرية ليست سوى خبطات عشواء. ولقد صارحته بذلك ذات مرة فلم يجبنى بأكثر من قول جوته شاعر الألمان "نحن لا شىء، ولو صدقنا أنفسنا فوضعناها فى أماكنها لما بقى فى الدنيا غرور ولا كبر"!

وهذا العمل الأدبى يذكر بشىء آخر طريف اقتنع به يوسف السباعى منذ أن أمسك بالقلم، وهو أن اضطراب

حياتنا الأدبية، وتسلط الشللية البغيضة .. لن يسمح بتكريم الأديب أو الفنان في حياته .. ربما بعد مماته. عندما لا يكون في حاجة إلى هذا التكريم! ولقد كتب في هذا المعنى أكثر من مرة .. يقول في إحداها وهي مقدمة "أرض النفاق" مشيرا إلى إهدائه إلى نفسه ذات الرواية: "إني أود أن أكرم نفسي وهي على قيد الحياة .. فلشد ما أخشى ألا يكرمني الناس .. إلا بعد الوفاة .. نحن شعب يحب الموتى .. لا يرى مزايا الأحياء حتى يستقروا في باطن الأرض.

"إني أريد كل شيء وأنا حي. أريد ما بالدنيا وأنا في الدنيا أما الخلود .. والذكرى .. والتاريخ .. فما حاجتي إليها .. وأنا عظام نخرة .. تثوى في قبر بقفرة.

"ما حاجتي إلى تقدير الأحياء .. وأنا بين الأموات .. ما حاجتي إلى أن يذكروني في الدنيا وأنا في الآخرة!! ويمجدوني في الأرض وأنا في السماء!

"إني أبغي المديح الآن .. والتقدير الآن .. وأنا أسمع وأحس .. فما أمتعني شيء كسماع المديح والتقدير .. قولوا عني مخلصين .. وأنا بينكم .. إني كاتب كبير قدير شهير .. وإني عبقري .. ألمعي .. لوذعي.

فإذا مت، فشيعوني بألف لعنة، واحملوا كتبي فأحرقوها فوق قبري، واكتبوا عليه: "هنا يرقد أكبر حمار .. أضاع عمره في لغو وهذر".

"إنى لاشك رابح كاسب .. لقد سمعت مديحكم وأنا حى محتاج إليكم .. وصممت أذنى عن سبابكم وأنا ميت. أغنانى الله عنكم وعن دنياكم"! (الطبعة الأولى عام ١٩٤٩).

وتكريم الفنان وهو حى .. هو ما جسده يوسف السباعى بشكل آخر فى أكثر من قصة له مثل "رجل عبقرى"، عندما صور اعتراف الجماهير بالأديب الكبير وهى تحتفى به وتبوئه من نفسها أرفع مكان وتقلده أصدق آيات الحب .. فى حياته!

ورغم ما كتبه يوسف السباعى عن طفولته فى مسرحية "البحث عن جسد" وغيرها، فلاشك أن هذه المرحلة الخضراء من عمره تعد ألصق الأيام بملامحه، وإذا كنا قد تحدثنا فى مكان آخر عن براءة الفنان وصلتها بطفولته، فإن عنصرا آخر يشارك فى تشكيل بصمات هذه الطفولة، وهو الأحياء الشعبية التى ولد وعاش فيها، وتأثير هذه الأحياء فى حياة وفن أديبنا عظيمة الأثر، إلى الدرجة التى نطالع فيها أسماء هذه الأحياء وتنفس أريجها فى أحدث وآخر ما كتب يوسف السباعى .. رغم مرور حوالى نصف قرن على أحداث طفولته! وهكذا لا ينتمى تصوير هذه الأحياء الشعبية إلى قالب "الذكريات" أو الماضى أو الإنتاج المبكر، بل إلى الحاضر أيضا. ومما يدل على هذا الأثر المستمر، استشعار كاتبنا ديمومة هذا التأثير فى نفسه منذ وقت طويل، حتى أنه عندما كتب مقدمة مجموعته "بين أبو الريش وجنينة ناميش" التى ظهرت طبعتها الأولى فى عام

١٩٥٠، أشار بشكل ما إليه أكثر من مرة. وأن ذكريات الحى تملأ نفسه وأنه ليس بمستريح حتى يسكبها على الورق فهو لم يستنفد بمجموعاته الأولى، كل ما فى الذاكرة عن حيه الحبيب! وحجم هذا الانغماس يعكسه وصاحبنا يعرض لمواطن طفولته وصباه، وإحساسه بمحليتها الشديدة، أو الإكثار منها بالنسبة إلى المتلقى .. اضطراره وهو يجول بالقارئ فى مرتع صباه إلى أن يغريه بقالب القصة الساخر .. "حتى لا يمل السير معى .. وحتى تلهيه القصة إذا لم يكن من غواة التجوال بين الشوارع والأزقة. وثمة سبب آخر يزج بـ"جنينة ناميش" فى قصصى .. وهو عكسى للسبب الأول، فبينما نجد أن التجوال فى "جنينة ناميش" هو الدافع إلى الكتابة .. وأن القصة ذاتها ليست سوى "برشامة" أضع فيها الجولة .. نجد فى أحيان أخرى أن فكرة القصة قد تكون حاضرة .. وأنى لا أكاد أجلس للكتابة لإبرازها إلى حيز الوجود باحثا لها عن مكان وزمان أجعلها فيه وأجرى حوادثها به حتى أجد "جنينة ناميش" قد أطلت من رأسى .. وإذا بالسبل قد ضاقت بى إلا عند السد البرانى. والمنيرة. والسيدة. وزين العابدين .. وإذا بى أضع القصة برغمى فى هذه الأمكنة الرابضة من قديم العهد فى الذاكرة!".

وهكذا لا يستطيع أديبنا الانفلات عن هذه الأحياء .. أبدا! وما أكثر ما يردد .. "لقد نشأت فى حى السيدة زينب .. ولم أنس أبدا أنى ربيب جنينة ناميش".

(١٣)

صفتــان كــان يتمــيز بــهما يوســف الســباعى فــى طفولتــه .. هدوئـه و.. خجلـه. وفـى أحيـان كثـيرة كانـا يختلطـان ببعضـها البعــض اختلاطــاً شــديداً، فتصعــب التفرقــة بينــهما أو تسـتحيل. وإن كـان الموقـع نفسـه يقـرب أحيانـاً فـى تحديـد الصفـة .. فـى البيـت أو خارجـه. فـهو الـهدوء بالنسـبة إلـى الأول، والخجـل بالنسـبة إلـى الثـانى، أو همـا معـاً فـى كثـير مـن الأحيـان! فلـم يكـن يحـب، أو يسـتطيع أن يكـون محـط الأنظـار، فـهو لـم يكـن يملـك القـدرة علـى مواجهـة الجمـهور أو العيـون، ويـهرب مـن المجتمعـات ولا يـألف إلا قلـة مـن الأصدقـاء. كـانت المظـاهرات وجمعيـة الخطابـة وفريـق التمثيـل .. أبعـد الأمـاكن فـى دنيـا المدرسـة التـى يشـاهد أو يشـارك فيـها. وكـان يعـرف جيـداً هـذا العيـب فـى نفسـه قبـل أن يعرفـه الغـير فيـه. وكـان أكـثر مـا يخشـاه، عندمـا يكـون لجـهده هـو أثـر بـارز فـى العمـل الجماعى الـذى يسـاهم فيـه .. فـى هـذه اللحظـة يـدرك أنـه علـى أبـواب أزمـة قاصمـة، وأن عيـون الآخريـن حـراب طاحنـة تشـل حركتــه .. ويحــس خــدر هــذا الشــلل فــى عروقــه. وفعــلاً تضطـرب حركتـه ويتملكـه شـيطان الفـزع الـذى يدعـوه إلـى الفـرار، ويتـهاوى علـى نفسـه .. وفـى النهايـة يتسـبب فـى أن

يلحق الفشل بفريقه، وهكذا يفرخ الخجل ذعراً وضعفاً وألماً إلى درجة المأساة. يكتب صاحبنا بعد ذلك: "ما استطاعت نفسه أبداً أن تنصفه أمام الغير .. بل كانت تخذله فى كل مباراة وامتحان ومسابقة، واتهمه رفاق الطفولة والصبا بالجبن .. واقتنع هو بتهمتهم .. ولم يكن يملك غير ذلك .. وكل الشواهد .. والظواهر تدل عليها وتؤكد وجودها وهو يشعر فى قرارة نفسه .. أنه حقاً يفتقد الثقة والجرأة والشجاعة والإقدام".

وهناك قصة قديمة معروفة تتردد وسط أسرة السباعى، يرجع تاريخها إلى طفولته وهو فى العاشرة من عمره .. كان يذكرها الأهل وكبار السن خاصة كلما عنَ لأحد أن يتحدث عن ذكاء أو نباهة ابنها يوسف .. ساخرة من هذا الذكاء "المزعوم" على حد قولها. ومن الطريف أن يوسف السباعى يساير أسرته فيما تذهب إليه، ولا يملك إلا توكيدها والاعتراف بها، بل والإشارة إليها فى مجالسه وكتاباته على حد سواء! ولكن يمكن لدارس السباعى أن يختلف معه ومع أسرته فيما تعكس هذه القصة .. فبعيداً عن حكاية الذكاء والغباء -وهى على أية حال مسألة شخصية، يمكن أن تحل بالراحة فى الإطار العائلى!- نجد أنها تبلور قبل كل شىء .. خجل صاحبها. فالخجل -لا تعتيم الذهن أو إشراقه- الذى يتفق مع تركيب صبينا، هو الذى يفسر عدم قدرته على اتخاذ موقف آخر .. ولكن أولاً ما هى القصة؟

كلفت الأسرة صغيرها يوسف، أن يسرع فى اللحاق بالمقاول ومرافقه اللذين كانا يزورانهما. وأن يخبر الأول بموافقة الأسرة على عرضه .. وأن يكون ذلك على انفراد بينه وبين عبد الحليم الذكر -المقاول- بعد أن يفارقه صاحبه .. طلب بسيط. وأسرع يوسف والبيت فى روض الفرج، ووجدهما وتابعهما .. كانا يتناقشان .. وبعد نصف ساعة تصافحا استعدادا ليأخذ كل منهما طريقه. ولكن لم يلبثا أن تأبطا ذراع بعضهما البعض، وسارا فى اتجاه دوران شبرا ثم استقرا فى أحد المقاهى يدخنان الشيشة. والصغير قد عيل صبره يقف فى الطريق منتظرا .. وفرغا فتركا المكان وسارا فى شارع شبرا حتى وصلا كوبرى شبرا، وعبراه إلى ميدان المحطة. وظن يوسف أن هذا هو نهاية المطاف ويستطيع أخيرا أن يتحدث إلى المقاول، خاصة وأن المرافق استقل الترام ولكن الذكر استقله معه .. وصدم الطفل. وطوال هذه المتابعة أو المطاردة التى استغرقت ثلاث ساعات، من الخامسة حتى الثامنة مساء، وهو يتمزق بين جانبين، ضرورة الاندفاع وقطع حوار الرجلين المستمر والتحدث فى الحال إلى المقاول وتبليغه الرسالة والعودة إلى البيت، وبين الاطمئنان بل الاستسلام إلى خجله الذى يستهول الاقتراب بل مقاطعة الرجل فى حديثه مع صاحبه. وفى كل محاولة، رغم حالة الإقناع بالأسلوب الأول الحاسم الذى ينهى الموقف ويريحه من تسكعه المفروض عليه -وهو بالمناسبة يكره التسكع أصلا- وتكون الغلبة لخجله وما يولد

من جبن فى غير محله ولا تدعو إليه الحاجة .. يغير من نسب الأشياء ويعطى لها واقعاً مزيفاً يعنى جوانية صاحبه وحدها ولا يعترف به غيره.

كلفته الأسرة بمهمة لا تستغرق إلا دقائق، وعندما تجاوز الوقت أضعافها، بدأت الأم تقيم حساباتها .. الشوارع "الملآنة" -نستطيع أن نتخيل خلو الطريق أيامها قياساً إلى ازدحام اليوم- والترام .. والدراجات .. وكلها أشياء تبدو لها وسائل دمار تحمل الموت فى طياتها! وعندما مضت ساعة وساعتان واقتربت من الثالثة، أخذت الست أم يوسف تفقد اتزانها المصطنع هذا وبدأت تفكر جدياً فى أن تفرق الأسرة كلها فى البحث عن الغائب العزيز .. فى أقسام البوليس والشوارع بل وانتقل التفكير إلى الإسعاف ومشرحة زينهم! وهكذا وجد يوسف البيت عندما أهل بطلعته .. جاء متعباً ضائقاً ناقماً على أسرته التى عرضته للبهدلة .. وككل خجول حمل الآخرين تبعة تقوقعه وفزعه من المجتمع وعدم تآلفه مع أفراده. وفوجئ بثورتهم ضده فى الوقت الذى كان يراهم فيه مخطئين ملومين. وزاد غضبه، وتشكل خطؤه الذى يستشعره بينه وبين نفسه فى هذه الأعماق التى لا يطلع عليها أحد، وضيقه وتعبه فى برود وتعال، أجاب بها عليهم:

- انتوا مش بعتونى ورا المقاول؟
- أيوه.
- مش قلتولى ما تكلموش إلا لما يسيبه الراجل اللى معاه؟

- أيـوه.

- طيب. أهو لغاية دلوقت ما سابوش!!

وشـىء آخـر أصابـه بـه الخجـل، وهـو عـدم اسـتطاعته الإجابـة علـى مديـح يوجـه إليـه .. وفـارق كبـير بيـن أن تستسـيغ المديـح أو تحبـه، وبيـن أن تملـك القـدرة علـى أن تسـتجيب للقـول الكريـم: "وإذا حييتـم بتحيـة فحيـوا بأحسـن منـها أو ردوهـا". ولاشـك أن الصبـى الصغـير -كمـا سـيكونه الأديـب الكبير بعـد ذلـك -لـم يخـرج عـن الطبيعـة البشـرية التـى يستهويها عـادة الكـلام الطيـب عنـها. ولكـن خجـل صاحبنـا كـان يمنعـه مـن أن يخـرج الألفـاظ المناسـبة، التـى تعـبر عـن شـكره واسـتجابته لكلمـات الإعـزاز. إنـه يعـترف فـى إحـدى قصصـه "يـا سـاكن القلـب" بقولـه: حتـى الآن لـم أتوصـل بعـد إلـى معرفـة كيـف يجيـب إنسـان علـى المديـح، ولـم يكـن يزعجنـى شـىء قـدر التعرض لكلمـات مديـح، ولا كـان يعيبنـى شـىء أكـثر من الـرد عليـها!! أو كمـا يصـور فـى موضـع آخـر (قصـة "رجـل عبقـرى") وهـو يتنـاول أديبـاً معروفـاً يحتفـى بـه فـى حفـل أقيـم علـى شـرف تكريمـه، وتلقـى أحـاديث المديـح فيـه، فيـأخذه الاضطـراب .. "كنـت أعرفـه شـديد الخجـل جـم الحيـاء .. لا يربكـه شـىء قـدر أن تواجهـه بالإعجـاب أو تلقـى علـى مسـامعه مديحـاً أو ثنـاء"!

(١٤)

من المعالم البارزة فى تكوين يوسف السباعى التى انتقلت إلى أعماله الفنية وخاصة فى فنه القصصى، تمثله فى عدد غير قليل من شخوصه .. هدوءه وميله إلى السلام. ونظرة سريعة نلقيها على مجموعاته مثلا، نجد أن أحدها لا يمكن أن تخلو من قصة واحدة على الأقل يكون بطلها -أو بطلتها- إنسانا هادئا غير عدوانى. فهو فى قصة "موعد فى الليل" -مجموعة "ليالى ودموع"- خجول هادئ لا يندمج فى المجتمعات، أما فى قصته "أمل" -مجموعة "خبايا الصدور"- فهو يحب العزلة، وكذلك البطلة الهادئة نجدها فى قصة "وأوشك أعبده" من مجموعة "أغنيات" منطوية على نفسها، وينعكس ذلك فى عدم إحساسها بأنوثتها مما يجعلها لا تهتم بمن حولها. ولا يعنى هذا أن أعماق مثل هذه الشخصية هادئة كما يظهر على سطحها، بل هى ذات باطن صاخب.

والخجل قرين الهدوء، وكذلك يوسف السباعى فى الكثير من أعماله. فقصصه "سلو الربيع" -مجموعة "فى موكب الهوى"- أو "حديث أعمى" -مجموعة "مبكى العشاق"-

تعكس مثل هذا النموذج. ويصل الأمر فى بعض قصص فناننا إلى أن تكون القصة كلها أو أغلب شخصياتها منتمية إلى هذه الطبيعة بالذات، كما فى قصة "رجل ضرير" فى مجموعة "اثنا عشر رجلاً"، فالأسطى وصبيه خجولان جداً، وقصته "عبقرى يبعث" فى مجموعة "خبايا الصدور"، التى تضم كلا من البطل والبطلة فى عشق الوحدة والهدوء! ولكن قبل هذا كله لماذا ننسى شخصية على فى "رد قلبى" الذى يكاد صاحبها أن يكون صورة طبق الأصل من يوسف السباعى نفسه!

ولم يكن طبع يوسف المسالم بالشىء الغريب على أصدقاء الأسرة، فقد كان يتميز به منذ طفولته. وهؤلاء الأصدقاء لا ينسون الحادث الذى لفت بقوة إلى هذا الطبع الذى كان غائباً فى خضم أشياء أخرى من مكونات شخصيته. لم يكن فى المنزل ساعتها إلا هو وأمه، وأرادت الست أم يوسف أن تخرج لقضاء مهمة .. ولكن من يرعى الصغير وكيف تطمئن عليه وحده فى الدار. ومع ذلك اضطرت أن تغادر البيت وتتركه .. كل ما فعلته أن جاءت له بقليل من البندق واللوز -وأيامها كانت هذه المكسرات أرخص من اللب والفول السودانى فى هذه الأيام- يتسلى بها، وطلبت منه أن يجلس وراء الباب ولا يتحرك. وقضت حوالى ثلاث أو أربع ساعات فى مهمتها، وعندما عادت فوجئت بصغيرها جالساً فى نفس المكان الذى أشارت عليه به لم يغادره .. وهو يتسلى بقزقزة ما تركت وهو سعيد

بوحدته! ويعقب السباعى فى حديث معى على هذا الحادث القديم الذى تكرر كثيرا قائلا: كنت مسالما طيلة حياتى .. عمرى لم أضق بالوحدة أو أحببت أن أناكف وأشاكس. ودائما كنت أكره قوى العدوان، أو الرياضة المتجهة إلى العنف .. إننى بطبيعتى أكره القسوة وأحس أنها تصرف حيوانى، عندما يعجز العقل عن الإقناع، يبدأ صاحبه باستعمال يده. لذلك أكره كل أنواع العدوان من أولها إلى آخرها، ومهما كان حجمها من الضآلة أو الضخامة. وسواء كانت بين ولدين يتضاربان أم بين ديكين يتصارعان أم بين جيشين يتقاتلان .. إن الطبيعة تنادى للسلام لأنها أول صورة للسلام .. الزهور ومشرق الشمس والخضرة كلها ألوان سلام، فلماذا لا نكون أبناء الطبيعة الحقيقيين ويحيا الإنسان حياته الطبيعية؟ لماذا لا يأخذ المرء من الطبيعة حاجته من غير أن يصطدم بالغير؟ إن الحياة فيها ما يكفى البشرية إذا تعاونوا. إن ما حدث الآن فى العالم هو أنه ليس هناك لقمة واحدة يتعارك حولها عشرة، بل هناك عشر لقمات يدور العراك حولها بين خمسة .. ومع ذلك يتحلقون متعاركين متحاربين. إن فى الأرض ما يكفى الإنسان لو وجه جهده بدلا من الإنفاق على القنبلة الذرية والهيدروجينية ومصاريف التسليح، إلى استثمار الغابات فى أفريقيا وآسيا أو زراعة الصحراوات أو إزالة الملوحة من مياه البحار .. لأنتجت الأرض عشرة أضعاف ما تعطى اليوم".

(١٥)

فـى ذلـك الحيـن، كـانت الدراسـة الابتدائيـة أربـع سـنوات، تليـها مباشـرة الدارسـة الثانويـة بمنهجـها ذى خمـس السـنوات .. ولـم تعـرف فـى تلـك السـنوات المرحلـة الإعداديـة التـى تقـع بيـن المرحلتيـن السـابقتين.

حصـل يوسـف السـباعى إذن علـى الشـهادة الابتدائيـة، وتقـدم بأوراقـه إلـى المدرسـة الخديويـة الثانويـة. وأصبـح مـن تلاميذهـا .. وبـدأت صفحـة جديـدة مـن حياتـه .. تشـكلت فـى ملامح وتبلـورت فـى اتجاهـات وتـأصلت فـى سـمات.

وأغلـب الظـن أن يوسـف السـباعى عـرف طريقـه إلـى المكتبـة قبـل أن يعـرف القـراءة والكتابـة .. فعالمـها الـذى يزخـر بأشـكال وألـوان وأحجـام مـن الكتـب والمجلـدات يغـرى الطفـل الـذى بـدأ يميـز بيـن الأشـياء، بـالعبث بـها وتقليـب صفحاتـه والفرجـة علـى صورهـا الملـون وغـير الملونـة .. فمكتبـة أبيـه محمـد السـاعى - وخاصـة قبـل أن يبيـع "الأب" أغلبـها فـى سـاعات الشـدة، وتئـول بعـد وفاتـه إلـى شـقيقه طـه السـباعى- كـانت تشـغل مـن البيـت حـيزاً كبـيراً .. فلـم يكـن وجودهـا مقصـوراً علـى المكتـب بـل زحـف إلـى غيرهـا مـن الحجـرات، ولـهذا كـان الاطـلاع علـى

ما تحفل به هذه المكتبة من مؤلفات، أسبق من دراسة المواد المقررة فى المدرسة. وكانت الصحف هى الرسول الأول الذى جذب يوسف إلى عالم المكتبة والقراءة ، فالكثير منها يحمله الأب معه إلى الدار خاصة هذه التى ينشر فيها مثل "البلاغ" و"البلاغ الأسبوعى" و"البيان" و"السياسة" و"السياسة الأسبوعية" وغيرها. وإذا لم تكن هذه الجرائد والمجلات هى التى تناسب الطفل، فقد كانت المجلات المصورة التى لا تحتاج من الصغير النهم للمعرفة قبل إجادة القراءة، أكثر من النظر إلى صورها .. متوفرة فى البيت، وكان أشهرها "اللطائف المصورة" و"العالم". وكان أحب المجلات فى فترة قراءات يوسف السباعى الأولى، مجلة للأطفال تناسب عمره هى "الأولاد" التى كانت تظهر يوم الخميس. ونستطيع أن نقدر مدى شغف يوسف بالقراءة، بعدم قدرته على الانتظار حتى الصباح ليشترى المجلة فى موعدها. ولما كان يعرف أن الدار التى تصدرها تنتهى من طبعها فى مساء الأربعاء، فقد كان يذهب إلى مطبعتها ويسهر مع العمال حتى وقت متأخر ليحصل على نسخته بسرعة!

ويعد مجلات الأطفال المصورة، يذكر السباعى أنه وجد نفسه فجأة محاطا بالسياسة، وأنها تدخلت فى تفكيره واهتمامه وقراءاته سواء أراد أم لم يرد. والسبب أن العصر كان مشحونا بالسياسة، والشعب يعمل على الخلاص من الاحتلال البريطانى واستقلال بلاده. وتقوم المفاوضات بين

مصر وإنجلترا، لا تكاد تفشل واحدة حتى تتكرر محاولة أخرى. وكان يعمق الإحساس بهذه القضايا خاصة بالنسبة للصغار، الرسوم الكاريكاتيرية التى حفلت بها الصحف على اختلاف أنواعها.

وينتقل يوسف بعد ذلك إلى المجلات الثقافية، ولم يكن بحاجة فى البداية إلا إلى مجرد إلقاء نظرة سريعة ليمتع بصره باسم أبيه وعنوان مقالته أو قصته المترجمة أو المؤلفة -مغفلا ما عداها من صفحات المجلة- ثم يعود يقرؤها وتكون المرة الثالثة. فقد كانت الأولى عندما أسمعها الأب الأديب لأولاده حالما انتهى منها، وقبل أن يبعث بها إلى الصحيفة. والثانية عندما طالعها يوسف فى "السلخ" وهو يأتى بها من المطبعة ليصححها والده. ولكن تفتح دنياه يوقفه على بقية مواد المجلة، ويأخذ يطالعها ككل.

ثم تتابعت خطواته فى عالم القراءة الساحر ..

والآن .. ماذا كان يقرأ الصغير يوسف فى تلك الأعوام؟

لنهتم أولا بالحديث عن كتابات أبيه، التى كان ولده كما مر بنا أول قارئ لها، سواء بحكم البنوة أم العمل أم الإعجاب. وبالطبع تكون القصة القصيرة أول الزاد .. والقصة المترجمة بالذات التى أكثر الأب منها. فعرف يوسف أعمالا كثيرة رفيعة لكتاب أجانب كبار .. كان المثقف المصرى الناضج فى ذلك الوقت لا يكاد يسمع بأغلب أسماء

أصحابها .. وهؤلاء الكتاب الأوربيون والأمريكيون الذين قرأ لهم ما ترجم والده عن الإنجليزية، هم: أنطون تشيكوف، مكسيم جوركى، فيدور دستوفسكى، إيفان ترجنيف، إسكندر بوشكين، شكسبير، ريتشارد جازيت، ناثانيل هوثورن، جون كتيش، جوزيف إديسون، جى دى موباسان، أناتول فرانس، بلزاك، تيوفيل جويتير، موراس جوكال، لوينبيرو، كالمان ميكزات، فيونك مولنار، كارولى كيفالودى، هانز أندرسون، أوجست سترندبرج، ماينو، تيدور بانوف، بول هيتس.

ولما كان محمد السباعى لم يقتصر فى اهتمامه بالفن القصصى على القصة القصيرة، بل شارك فى الرواية أيضا مترجما ومؤلفا .. فقد اتخذت الرواية وعالمها الرحب مكانا حفيا من الصغير. ومن الأعمال الروائية المترجمة التى طالعها يوسف لأبيه مسلسلة أولا فى الصحف، ثم نشرت بعد ذلك فى كتاب عام ١٩١٣ فى "روايات البيان" عن مجلة "البيان" -فى ٨٨ صفحة من القطع الكبير- رواية تشارلز ديكنز المعروفة "نشيد الميلاد" .. التى هزت الصبى الصغير ويذكر منها مواقف كثيرة فى كبره. ولذا نتوقف عندها قليلا. تعرض الرواية لشخصية بخيل هو الشيخ التاجر سكروج، الذى يقيم الأشياء جميعا حتى الأعياد بمدى ما يعود عليه من مال .. فإذا كانت ليلة العيد تدعو إلى البر، فهى إسراف بلا مبرر، أو تنادى بالتعاطف فهى ضعف سخيف، أو توجب حق عامله فى أجازة نصف يوم

فهى إهدار للمال الحلال .. ولذلك فهى هراء وهذر على حد قوله. تستأهل غضبه الشديد على الناس المأفونين الحمقى الذين يتبادلون التحيات والتمنيات الطيبات ويقضون وقتا سعيدا! لذلك فهى النقمة تحط على كل من احتك به فى تلك الليلة .. حتى الطفل الصغير الذى طلب منه إحسانا .. يطارده بالضرب!

ويصور ديكنز عدم إحساس الرجل بما يموج حوله من فرحة العيد، بعد أن أغلق دكانه وذهب إلى بيته الخرب الذى يقطنه وحده. إن الليلة لم تستطع أن تخرجه عما ألف من ضيق بالبشر وكراهية لهم، مع أن كل ما حوله حتى أجراس الكنائس تنفث بشرا .. ولعل عدم تخلص سكروج من ضغوط مظاهر الأفراح، هو الذى جعله يشعر لأول مرة بنوع من الفزع والرهبة يضغط عليه من السكون المحيط به. وينعس .. ولكن ينتبه بغتة إلى أن هناك من يشاركه الحجرة، فإذا هو شريكه الذى مات منذ سنوات، أو خيال صاحبه بمعنى أدق .. لأنه لم يكن بتركيب الآدمى الجسدى بل بطبيعة الأطياف الشفافة .. ويخبره مارلى أن قيوده الحديدية الثقيلة التى يحملها خلفه ويسلسل بها، هى تجسيد آثامه الأولى وبخله. ويهدده بما ينتظره هو الآخر من عذاب الكى، إذا لم يصحح موقفه ويتوب سريعا. وينبئه أن ثلاثة من الجن أو الأشباح سيزورونه فى نفس الليلة، ثم يختفى خيال مارلى. ولا تلبث الجن أن تتوافد فى مواعيدها التى حددها شريكه السابق، الأول يمثل خيال

أعياد الميلاد التى مضت والذى يطير به إلى طفولته وصباه، فى مواقف مختلفة تعرض للسنوات الخضر فى حياة سكروج بكل أحلامها وآلامها، والتى تدفع بصاحبها اللحظة إلى البكاء .. فاندماجه مع لحظات الصغير -الذى كانه- الشقية، يعمل على إدانته الآن وهو يقسو على الآخرين والأطفال .. وسعادته بابتسامته القديمة تعمق أكثر هذه الإدانة وهو يكتشف ضرورة التعاطف الإنسانى. وعندما تنتهى الرحلة إلى الأمس، يحضر الجنى الثانى الذى يمثل خيال الحاضر، ويطلع سكروج على احتفال الناس بالعيد وسعادتهم الحقيقية به فى أكثر من مكان .. خاصة عند من يعرف وأسفهم له هو، الذى يحرم نفسه لضيق أفقه من مباهجه. أما الجنى الثالث فهو خيال المستقبل، والإختلاف بينه وبين صاحبيه الأولين، هو أن ما يعرض ليس هو تماما ما سوف يحدث بالتأكيد، وإنما هو ما يمكن أن يقع إذا لم يغير سلوكه وأخلاقياته الحالية. ولعل هذه الرحلة فى الغد، كانت أبشعها جميعا .. لأنها صورت المصير والخاتمة .. لمثل نموذج سكروج .. الشره إلى المال الحاقد على الناس الذى لا يحب أحدا فلا يحبه أحد. وتكون صورة الموت فى الوحدة وتجاهل من حوله لاحتضاره بل وارتياحهم لموته وسرقة الحانوتية لحاجياته، بحيث لا تترك لسكروج بقية من مقاومة كى يجد فى حياته الحالية مشجعا على المضى فيها .. بل هو يلح على الجنى ويتوسل إليه أن يساعده فى تغيير منهجه ومبادئه. وعندما يدرك

الجنى أن توبة الآخر خالصة، يعينه عليها متمنيا له حظا سعيدا ..

ويبلغ من عمق الإقناع أن تبدو هذه الأحداث سواء فى الشكل أم المضمون، شديدة الواقعية .. ولا تتخذ مثلا أسلوب ما يراه النائم من أحلام. ويبدأ سكروج صفحة جديدة يهنأ هو ومن حوله بها.

ولقد أحب الصغير يوسف ما كتب ديكنز، ولاشك أن ما تحمل الرواية من إنسانية وما تصور من صراع فى النفس البشرية، جذبته إلى ما تدعو إليه من تعايشنا مع المجتمع وهمومه وآلام أبنائه .. ومن قيم عليا لا تجعل المادة وحدها هى المسيطرة على شئون الناس، بجانب براعة خيال الروائى الإنجليزى فى تصوير شخوصه وأحداثه. ولا نظن أن من السهل على يوسف السباعى أو قارئ آخر للرواية، أن ينسى مثلا تكوين الجنى الذى يمثل أعياد الميلاد التى انطوت .. لقد قدمه ديكنز فى هذه الصورة: "أعجب ما به أن عمودا من النور كان يرتفع من ذؤابته فيفيض الضياء على سائره، وذلك الذى بعثه على جعل قلنسوته مطفاة إذا شاء أن يسطع ويتألق نضاها فتأبطها وإن رام ظلمه وجمودا وضعها على رأسه وكان إذ ذاك متأبطها.

"بل لقد كان بالجنى على تدقيق النظر خلسة أعجب من هذه وأغرب، فكما أن نطاقه كان يبدو به اللألاء فى هذا الجانب طورا وفى ذلك تارة، فما كان منه اللحظة مشرقا

تــراه اللحظــة الأخــرى ظلامــا، فكذلــك كــان شــخص الجنــى يتجـدد للعيـش فـى شتى مـن الصـور .. فبينمـا هـو كـامل كمـا وصفنـاه آنفـا إذا هــو ذو ذراع واحــدة وســاق فــذة. ثــم لا يكــاد يــتراءى لــك كذلــك حتــى تــراه ذا عشــرين رجــلا، فانــه كذلـك إذ لا تـرى العيـن فيـه إلا رجليـن بـلا رأس فمـا هــو إلا كـلا ولا حتـى تـراه رأسـا بـلا جسـد. وكـل مـا زايـل البـدن مـن هـذه الأعضـاء غـاب فـى أعمـاق الظـلام الدامـس لتـوه ولحظتـه حتـى لا أثر لـه. فبينمـا العيـن مـن تلـك الأعـاجيب فـى حـيرة إذا بالخيـال قـد راجع أصلـه وإذا هـو كـأتم مـا كـان وأنصـع"!!

(١٦)

وبجانب عالم الأدب الرفيع الذى وضع محمد السباعى يد ابنه عليه، عرف التلميذ الصغير أيضا الجانب الآخر من القراءة، وهو الذى تحمل كتب التسلية والروايات البوليسية. وكان أشهر أبطالها قبل شرلوك هولمز وأرسين لوبين، اللذين عرفتهما الأجيال التالية أيضا .. ملتون توب وابن جونسون. ولعل هذه الروايات بجانب أنها كانت تستجيب لإلحاح عنف المراهقة وعربدة الدماء الحارة فى الجسم الشاب، كانت تريح قليلا من جدية القراءة الرصينة التى تعلمها قبل أن يطالع أعمال المغامرات التى يبدأ بها المرء عادة هذه الهواية. ولا نعجب إذا كان تأثير هذه الروايات فى بعض النفوس هو بالنسبة إلى كل جيل .. ينفعل بأحداثها ويستهويه أبطالها ويحلم بتقليدها إذا أتيح له ذلك، وإذا كان تكوين محمد عبد الوهاب السباعى يبعد به عن المخاطرات الواقعية، فإن فى تأثر زملائه بالروايات ومعايشتهم لها .. الكفاية ليتنفس عبقها وحلاوتها. ورغم مضى الأيام، فقد جذب ذكرى عالم هذه الروايات البوليسية، قلم القاص يوسف السباعى فكتب أحد أعماله المتقنة وهو قصته القصيرة "ميدو قلب الأسد". وأهمية هذه القصة لا

تجىء من معالجتها لتأثر جيله الطلابى بمغامرات الروايات البوليسية المثيرة فحسب، بل لاستيعابها لشىء آخر كان يستأثر بمفاهيم تلميذنا الصغير فى ذلك الحين، وهو ضيقه بالمدرسة والدروس والاستذكار ..

والشخصية الأولى فى القصة وهو ميدو، صبى فى الرابعة عشرة من عمره، كان يعد من أبرز الشخصيات وأشهرها فى مدرسة شبرا الثانوية -التى سينتقل إليها يوسف بعد وفاة أبيه- والسبب أنه دائم العراك .. نموذج للشقاوة الصبيانية، "معجون بمية العفاريت" كما تصفه أمه، لم يستطع أن يكبت من غريزة عدوانه رغم وجود أبوه الشيخ على بنفس المدرسة .. أستاذا للغة العربية! والوصف الدقيق لميدو تلميذ الثانية ثانوى، يحمل الكثير سواء فى شرابه المتدلى على حذائه الأجرب ذى النصف نعل والدوبارة بدل الرباط، وركبتاه المليئتان بالجروح والكدمات نتيجة المعارك، أم عدم ارتدائه للقميص قط واكتفائه بحشر الجلباب داخل البنطلون بعد أن يلفه جيدا حول وسطه .. توفيرا للقمصان والوقت!

والأحداث تبدأ بلقاء ميدو بصديقه زكى إبراهيم جاد الله -دلالة الأسماء الكاملة على واقع الشخوص- وكان الصديقان يمثلان اسما مشتركا .. مثل لوريل وهاردى فى عالم الفكاهة، الثانى هو العقل المدبر والأول هو القوة المنفذ، وحوارهما يدور حول عملية اختطاف كما طالعا فى روايات المغامرات .. اختطاف ابن ناظر المدرسة. وقد أعد

ميدو كل شيء .. اتفق مع أم سيد الغسالة على أن يحضر لها الطفل لترعاه وترضعه حتى يأخذاه منها .. مدعيا أن الطفل ابن فراش في المدرسة توفى أبوه ومرضت أمه، وأنهما تطوعا للعناية به حتى تبل الأم من مرضها فيعيداه إليها .. قصة محبوكة الأطراف لم يبق عليها إلا التنفيذ!

وقد فكر الزميلان في كل خطوة يقومان بها من خداع عم سعيد بواب المدرسة، بإيهامه بإمكان تعيينه رئيسا للبوابين فى أكبر عمارات القاهرة بدلا من المدرسة الحقيرة .. ليسمح لهما بالخروج، إلى قبول الفدية الكبيرة. فقبل الساعة الواحدة والناظر لا يزال فى المدرسة، يتسلل ميدو إلى بيت الأول حيث تضع الخادمة الطفل فى شرفة المنزل المطلة على الحديقة كالعادة -بينما يكون زكى أو أبو الزيك يراقب الطريق -وبشال عمة والده يستطيع أن يجعله قناعا يخفى به وجهه، فإذا حاولت الخادمة أن تصيح، كممها به! .. أو يلف به الطفل .. حسب الأحوال! وضعت هذه الاحتمالات، رغم اطمئنان ميدو بعد مراقبته للمكان أياما، إلى ما اكتشف من ترك الخادمة كثيرا للطفل فى الشمس، بينما هى تدخل إلى البيت لمغازلة الطباخ!

وإذا كانت الجريمة لم تنشأ من فراغ، ولم تكن تقليدا للروايات البوليسية والسلام .. فقد استهدفت أصلا عدة أشياء، أولها إذلال الناظر وكسر أنفه والإثراء أيضا. ولكن ما هى بالتحديد مطالب زعيم عصابة -المكونة من صبيين!- "مخلب القط بالحانة السوداء"- ذكر هذه الحانة منقول نقل

مسطرة عن إحدى مغامرات ابن جونسون! - لإعادة الطفل حيا؟! الجواب: إرسال ثلثمائة جنيه توضع فى صندوق وتدفن تحت النخلة الموجودة فى دهليز طوسون، وإعطاء المدرسة إجازة شهرا! وحذف مادة التاريخ الطبيعى والجبر والهندسة - مواد يكرهها السباعى! ورفت على أفندى كفتة الضابط بالمدرسة، وكان مشهورا بقسوته! وترقية مدرس غلبان هو فرج أفندى، وكذلك ترقية الشيخ على والد ميدو .. لأن الأقربين أولى بالمعروف! وكان هناك مطلبان آخران يتعلقان بأبى الزيك وميدو .. ألغيا فى آخر لحظة حتى لا يشيا بهما!

وتمت الخطة بنجاح! جاء الناظر أثرها إلى الشيخ على هائجا مائجا متهما إياه أنه هو الذى فعلها! فقد عثر على شاله وفم سيجارته -كان الابن قد سرقه أيضا من أبيه- فى مكان الحادث، زيادة إلى المطلب الخاص به، وبعد أن أكدت الخادمة أن الشيخ كان يصحب "الرجال الثلاثة" الذين ارتكبوا الجريمة! وينكر مدرس العربى، ويتهم الخادمة نفسها بالحادث! ثم يذهب مع الناظر إلى بيت الأخير. وفى البداية تكرر الفتاة أقوالها، ولكنها لا تملك إزاء إصرارها الواهى وتدخل الطباخ، إلا أن تعترف أنها تركت الطفل فى الحديقة، ودخلت المطبخ "تسأل عن الساعة"، وعندما عادت لم تجده ولم تر أحدا بالطبع! وأدرك الشيخ أصابع ابنه المختفية وراء الحادث، ويرجع إليه فى المدرسة، فينكر. ولم يبق إلا أن يذهب إلى بيته، وهناك وجد الطفل

وزوجه تأخذ فى خناقه متهمة إياه أن الطفل ابنه هو من زوجة أخرى!

هذه هى القصة .. وسواء أكانت حقيقية أم خيالية، فهى تصور عالم المغامرات التى كانت الروايات البوليسية تفرض وجوده على القراء من التلاميذ!

•

وبعد هواية القراءة بالنسبة إلى تلميذ ثانوى يوسف السباعى، يأتى الرسم .. ولكن هذه الهواية الثانية تتسلل إليه تسللا غير صريح بعكس القراءة، فهو قد يعد كتبه ويتهيأ للاستذكار، ولكنه يذكر فجأة أن الوقت مبكر للاستذكار أكثر من اللازم! يعنى أن أياما كثيرة جدا مازالت باقية على حلول امتحان آخر العام، ولا ضرورة إذن ليبدأ من اليوم .. وهو قد اعتاد أن يستعد للاختبارات فى الشهرين الأخيرين فقط .. إن لم يكن أقل من ذلك أيضا .. أما الواجبات المدرسية اليومية، فقد كان لا يحفل بها إلا فى أضيق نطاق من يومه إذا لم يكن منها بد .. أما إذا استطاع ألا يفعل فحبا وكرامة! وهكذا رمى كتبه، واستعاض عنها بقلم رصاص أخذ يخط به على صفحة بيضاء خطوطا هنا وهناك .. تشكل فى النهاية رسما! فقد كان يعطى لهواية الرسم الكثير، بدون أن يشعر فى وقت فراغه وفى غير هذا الوقت على السواء! وكان أكثر من يرسم وجوها لمن يعرف ومن لا يعرف ما دامت قد جذبته فى المدرسة أو الطريق،

وخاصة من بين مدرسيه أو الفتيات بالذات.

ويأتى المساء ويكون قد تعب من القراءة والقصص والرسم، فينسل من حجرته ومن مجلس أسرته، إذا لم يكن أفرادها قد ناموا بعد .. إلى مكانه المفضل ومتعته الكبرى الاندماج فى الطبيعة والشرود. وهو يجلس على كرسيه فى الشرفة .. متكئا برأسه إلى حافة المقعد ممددا ساقيه على سور الشرفة -ما أكثر ما يتناول القاص الكبير بعد ذلك هذا الموقف بالتحديد فى قصصه- مقلبا بصره بين السماء والأرض والحقول .. منصتا إلى حفيف الريح .. "تعبث بأطراف أعواد القصب وتسرى بينها كموج هادئ، ومن آن لآخر يتعالى صوت نقيق الضفادع، أو هبوط قط يتسلق السور المغطى بأوراق اللوف" .. ولعل هذا كان أول لقاء له حقيقى مع الطبيعة إلى درجة التلاحم ..

ومع القراءة والرسم، كانت هناك تسلية تتسم بالطابع الفنى أيضا يتيحها البيت هو يهيئ نفسه ليوم "المقابلة" للسيدات .. تجتمع فيه الصديقات عند واحدة منهن كل أسبوع بالتناوب، وفى هذا اليوم يستعد المنزل استعدادا كبيرا لاستقبال الضيفات اللاتى بمضين بين جنباته ساعات طوال، تستغرقها الثرثرة الممتدة ورقص الفتيات اللاتى يصحبن أمهاتهن مع نغمات الطبلة أو الرق المصدف الخاص بربة الدار محمد السباعى، وفى سماع الفونغراف مع اسطوانات المطربين والمطربات مثل عبده الحمولى والشيخ سيد الصفتى وسامى الشوا ملك الكمان وساهون وزكى مراد

(والـد ليلـى مـراد) ومنـيرة المهديـة .. وكـانت هـذه الألـوان مـن اللـهو تسـبى الصغـار الذيـن كـان يسـمح لـهم بـالحضور، ويجـدون فيـها مـهرجانا يكسـر مـن حـدة بقيـة أيـام الأسـبوع الرتيبـة!

(١٧)

يسبق محمود السباعى شقيقه يوسف بعامين تقريبا. وقد ارتبط كل منهما بالآخر ارتباطا وثيقا يضرب به المثل فى القوة، وفى المرحلة الثانوية أخذت هذه الصلة تتبلور بشكل واضح، فهما مرتبطان روحا وجسدا فى المدرسة وخارجها وإن اختلف مزاج أو طبيعة كل منهما -وبالطبع انعكس ذلك فى كتابات يوسف السباعى- ولا يمكن للقارئ العربى أن ينسى أبدا "الأخوان" فى "رد قلبى"! إننا لو وضعنا اسم محمود السباعى بدلا من حسين، ويوسف السباعى بدلا من على .. لما اختلف الأمر قليلا أو كثيرا فى وصف ولدى محمد السباعى الأكبرين .. "كان الاثنان رغم عراكهما الدائم يحب كل منهما الآخر حبا شديدا .. فقد كانا أشبه بالتوءمين، متلازمين فى المدرسة، وفى الاستذكار، وفى الفراش لا يفرق بينهما غير اللعب، فقد كان لكل منهما هوايته التى تلائم طبعه .. كان حسين يهوى الألعاب الجسمانية العنيفة ككرة القدم وألعاب القوى، أما على فكان أميل إلى الهدوء، محبا للقراءة، كثير التفكير، دائم التطلع إلى الطبيعة". (ج١ ص٥٩).

وهكـذا كـان الأخـوان الأكـبر والأوسـط ينتميـان إلـى جيـل واحـد، ممـا جعلـهما أصدقـاء .. بينمـا لـم يكـن الأمـر كذلـك بالنسبة إلى الثـالث الـذى كـان يعـد طفـلا بالنسـبة إلـى الأوليـن فـى شـبابهما. ومـن هنـا جـاءت إشـارات يوسـف السـباعى الكثيرة إلـى نفسـه وإلـى شـقيقه محمـود، وهـو يرسـم صـورة الأخويـن فـى كتاباتـه، وملامـح هـذه الصـورة لا تختلـف فـى أغلـب الأحيـان .. لأنـها تعكـس بـالطبع شـخصيتين حيتيـن. الأكـبر مقـدام غير هيـاب، اجتمـاعى لا يسـتطيع المكـوث طويـلا فـى البيـت، لأن عالمـه وحريتـه ولـهوه تكمـن خارجـه، تسـهل عليـه عمليـة التعـارف علـى الفتيـات. أمـا يوسـف فـهو هـادئ خجـول يمكنـه أن يجـد بيـن جـدران أربعـة، مـا يشـغله عـن الدنيـا المائجـة خـارج الـدار. متقـد العواطـف ولكـن هـذا لا يجعلـه يتقـدم خطـوة أكـثر مـن أن يحـب مـن جـانب واحـد! وكـان موقفـه إزاء أوامـر أو نواهـى الأم التـى كـانت تخشـى علـى أولادهـا مـن "بـره" أو "النسـمة" كمـا يقولـون، أن يقتنـع. فـإذا فشـل لمـا تلجـأ إليـه "السـت أم يوسـف" مـن ضغـوط حقـوق الأمـهات الاسـتبدادية، حـاول أن يتمـرد علـى هـذه القيـود فـى نطـاق ضئيـل .. فـإذا لـم ينجـح استسـلم وأمـره إلـى اللـه .. باحثـا عـن ألـوان أخـرى مـن المتـع لا يحتـاج معـها إلـى مغـادرة البيـت، مثـل القـراءة. يقـول محمـود عـن أخيـه -بقلـم يوسـف السـباعى، كمـا فـى هـذا الاستشـهاد والـذى يليـه- .. "اسـتغرق فـى قـراءة أحـد الكتـب، لا يكـاد يرفـع عنـه بصـره .. وكـان جلـده علـى القـراءة يثـير دهشـتى .. أنـا الـذى لا يطيـق أن يثبـت

بصره لحظة واحدة فى كتاب إلا إذا أكره على ذلك!

أما أخوه محمود، فهو لا يتمرد فحسب بل يثور، ولا يستسلم لسلطان الأم إلا بعد محاولات لا محاولة واحدة كما يفعل يوسف. دار هذا الحوار يوما بين الأخوين أثر منع الوالدة لهما من الخروج:

"وأخيرا ضربت الأرض بقدمى فى ضيق وقلق وصحت به قائلا:

- هذا أمر لا يطاق .. لا يمكن أن أظل سجينا يوما بأكمله فى هذه الدار! .. ما رأيك فى الهرب .. وليحدث بعد ذلك ما يحدث.

فرفع إلى عينيه الزرقاوين العميقتين، ووجهه الأصفر النحيل. ثم رفع بيده خصلة من الشعر الذهبى المدلاة على جبينه، وأجاب فى هدوء:

- أنا أفضل القراءة.

ثم أكب مرة أخرى على تلاوة كتابه فى صمت عميق، وعدت أسأله فى سخرية:

- وماذا تقرأ؟

- رباعيات عمر الخيام.

- وماذا تكون رباعيات عمر الخيام هذه؟

- كتاب شعر .. قديم.

ولم يكن يدهشنى أن يقرأ أخى الشعر .. فقد كان يقرضه .. وأذكر أنه نشر بعضه فى مجلتنا المدرسية".

يكتب يوسف السباعى عن علاقته بشقيقه محمود فى إحدى قصصه: لم يكن الفتى وأخوه مجرد أخوين. بل كان بينهما تآلف شديد نتج عن تقاربهما فى السن واشتراكهما معا فى جميع مراحل حياتهما، فقد كانا شريكين فى البيت والمدرسة واللهو واللعب .. كانا شريكين فى الأفراح والأحزان، وما سقطا فى الامتحان أو نجحا إلا سويا، وما هربا من المدرسة وسارا فى المظاهرات يهتفان "يحيا سعد" إلا سويا، و ما تأخرا عن المنزل ولقيا جزاءهما من الضرب والقرص "فى اللباليب" من أمهما "المخضوضة" التى ظنتهما ماتا دهسا أو غرقا .. إلا سويا، واستمر الأخوان فى كل مراحل الدراسة سويا حتى دخل أكبرهما مدرسة البوليس، فخلا مكانه فى الفراش المشترك بينهما لأول مرة. وكم كان يحس الفتى فى أول الأمر برغبته فى أن يذرف الدموع على الوسادة، عندما كان يذهب إلى الفراش وحيدا فيشعر بالفراغ الذى تركه أخوه.

(١٨)

يقول يوسف السباعى: "وبهذه الوسوسة والخوف .. نشأنا ونحن نمارس لهو الصبية خلسة كأننا نرتكب المعصيات أو نفعل المنكر. وكانت المعصية الكبرى .. والمنكر الأشد .. هو ركوب البسكليت". كان ركوب الدراجة إذن هو المفجر الأول لهلع الأم على أبنائها بشكل غير معقول .. فتحرمهم حتى من هذه اللعبة أو الهواية التى يتمرس عليها كل طفل. ولقد حاول يوسف رغم أوامر أمه ونواهيها، أن يتعلم ركوب الدراجة من خلف ظهرها، كما فعل أخوه الأكبر محمود. ولكن الأقدار التى أعانت شقيقه خذلته هو، فبينما استطاع محمود فى السر ولم ينكشف هذا السر، افتضح أمره هو من أول محاولة. فهو ما كاد يستطيع بصعوبة أن يعتليها ويمسك بالجادون ويتحرك بها سنتيمترات معدودة، حتى سقطت به الدراجة ووقع على وجهه و .. "تخرشم" .. امتلأ وجهه وذراعه بخدوش لا يمكن إخفاؤها، رغم أنه حاول ذلك وفشل. وكان المخرج الوحيد هو ادعاء أى شىء آخر لا صلة له بالدراجات، وأعد نفسه لذلك فعلا. وكان يمكن أن "تفوت" لولا أن سوء حظه جعل أحد أقربائه يمر فى تلك اللحظة بعينها

ويشاهد الحادث وينقله سريعا إلى الست أم يوسف، بحيث سد على صاحبنا تماما كل مناطق النجاة.

والذين يعرفون الست عيشة و"معزتها" لابنها الأوسط يوسف بالذات، الذى كانت تحب فيه رقته وعدم محاولته إغضابها وحفاظه على مشاعرها مهما كانت مواقفها التى تتخذ و"أدبه" .. يدركون كيف كانت صدمتها عميقة لا توصف عندما وصل إليها "الخبر الأسود". لقد "صعب" عليها أن يكون يوسف الطيب الهادئ الوديع وأحن أولادها عليها الذى تثق فيه وتطمئن إليه، هو الذى يتمرد على إرادتها ويطيع نفسه الأمارة بالسوء و .. "يركب العجل"! ورغم اقتناع صاحبنا جيدا أن من حقه الذى لاشك فيه أن يسوق الدراجة كبقية خلق الله، إلا أنه أدرك "خطأه" المنطقى، وتخيل حال أمه فحزن .. وازداد ضيقا عندما وصل إلى البيت، ولم تكن دموعها -وهى السريعة الدمعة- التى لم تجف هى التى آلمته، بل كان وجهها وحده كافيا ليعرف كيف يبلغ قنوطها.

ولا يزال السباعى يذكر وقع هذا الحادث على نفسه "وكرهت العجل وركوب العجل .. بعد السقطة فى الطريق والفضيحة فى الدار. وأنا بطبعى أكره العنف وما يستدعى العنف وما ينتج عن العنف، وأكره أن أتعب نفسى فيما يمكن أن أكون فى غنى عنه .. وأن أشغلها بما لا فائدة لها منه .. وهكذا انتهت المسألة بأن أقنعت نفسى بالكف عن تعلم العجل وأن فى العجل الندامة وفى القدم السلامة .. وقنعت

من ركوب البسكليت بسلامة الجسد ورضاء الوالدين وقلت لنفسى .. إن الجنة تحت أقدام الأمهات .. والجنة خير من العجل وأبقى"!

ومرت الأيام وغاب الحادث مؤقتا فى تلافيف الماضى والنسيان وخرجت الدراجات من عالمه .. ولكنه لم يكن يعرف إذ ذاك أن هذا الخروج ليس إلى الأبد .. بل إلى سنوات معدودة .. بعدها سيلتقى بها لقاء غير سعيد فى مكان سيدخله بمحض اختياره بل ويلجأ إلى الواسطة لاقتحام معقله .. وهو الكلية الحربية!

(١٩)

وفى هذه المرحلة من العمر التى تتفق مع الدراسة الثانوية، يكبر الطفل ويعى الصبى فيها الأمور حوله أكثر. وتتعمق جذور الأحداث والمواقف والمشاهد والانطباعات، ويبدأ صاحبها يدرك ما تحت السطح .. آخذا فى تأمل الناس والأشياء، وبالطبع يبدأ بأسرته هو وبأبويه بالذات .. ويتوقف يوسف -ونحن معه- عند بعض ما يموج به عالم الوالدين.

وقارئ اليوم الذى يعيش ما أورثه تخرج الآلاف من الفتيات من المعاهد والجامعات وتوظيفهن فى مختلف المجالات وعملهن فى مواقع الإعلام والثقافة .. يتنفس ضرورة أو حتمية تواجد المرأة المثقفة فى بيته شريكة حياة. وينكر أن تكون زوجة بلا مؤهل دراسى، فما بالك إذا كانت لا تعرف القراءة أو الكتابة؟! هذا الحال يدفع دفعا فى مجال دراسة محمد السباعى، إلى محاولة الوصول إلى مفاهيم المثقف والأديب الكبير فى اقترانه بفتاة أمية. ولا تكون الحجة هى غياب الفتاة المتعلمة فى أوائل القرن العشرين، أو تجمد أحاسيس الفنان الجامح العاطفة، الذى ظل عاشقا للجمال يتلهف عليه ويبحث عنه ويعجب بالحسن

الريان والصبا خاصة فى بنات المدارس، أو كفه عن الاشتعال قلقا .. لا هذا ولا ذاك .. فقد كان هناك ما هو أكثر أهمية، وهو الترفع عما يشين النفس.

نعم حتى فى هذا الوضع لا تغيب عن الصورة، كرامة محمد السباعى على نفسه واحتفاظه بكبريائه، ونحن نظن أن الهوى يمكن أن يعبث بكثير من الأشياء ومن ضمنها الكرامة والكبرياء. بل إننا نعثر فى مجال اختيار الحب الباقى، إن شخصية محمد السباعى لم تغب لحظة وهى ممثلة تمثيلا دقيقا يشمل الكيان كله ولا تقدم تنازلات عن قيم صاحبها .. الذى يبغض الشهرة والمنصب والمال، ويريد أن تكون العلاقات بين الناس وبين الجنسين .. علاقات إنسانية بعيدة عن المطامع والمصالح والمظاهر، وتتعلق بما تحت السطح لا بما فوق الجلد. يحدد راندنا هذا المنهج تحديدا فى إحدى كتاباته بقوله: لا أحب العالمات من النساء، ولا أعبأ مثقال ذرة بمن تعرف ما معنى التأليف والمؤلفين، لأنه لا قيمة عندى لمعارفها الأدبية، وإنما هى فى نظرى كمن يهدى القطر إلى البحر، والتمر إلى هجر، ولا أحب أن تقول لى الغانية إن كتاب كذا وكذا من وضعى وتأليفى، لأنه شىء أنا به أعلم الناس، ولا يزيد فتيلا فى قوتى وثقتى ببراعتى. كلا أنا لا أريدها تفضى إلى فؤادى من هذا الطريق، وإنما أود أن تقرأ صحيفة قلبى وما سطرت ثمة أقلام الهوى، تنظر إلى شغاف مهجتى وتبصر ما خرقت هنالك سهام الجوى. إنما أريدها أن تحبنى لذاتى

من غير ما علة ولا سبب، لأنى أحب ذاتى من غير ما علة ولا سبب. وكما أنى أعشقها عاطلة من حليها عارية من حللها، فكذلك أريد أن تعشقنى عاطلا من حلى الأدب، عاريا من حلل الفصاحة والفلسفة. إنما حجتى على تقاضيها العطف على، والميل إلى هو عطفى عليها، وميلى إليها. وأن صورتها أبدا نصب عينى وبين جنبى".

والوقوف على مفهوم محمد السباعى فى المرأة التى تعجبه، يجسد مواصفات الإعجاب كما تمثلت فى طبيعة عيشة المصرى. التى لم ينقصها الذكاء منذ البداية فاستوعبت جيدا تكوين هذا الزوج الذى أحبت .. فعملت على أن تكون له ما يحتاج. والحياة العاطفية لأمهاتنا وجداتنا فى حرز مصون من التقاليد التى كانت تحرمهن حقهن فى التعبير عنها، كما تفرض وصايتها الحديدية على من يجرؤ على الاقتراب منها. ولذا لا يملك الدارس فى هذا الموقع، إلا هذه الإشارة السريعة .. يدور هذا الحوار يوما بين حفيدها محمد محمود السباعى وهو صبى وبينها، أثر ملاحظة الصغير لمدى تعلق جدته الشديد بذكرى زوجها محمد السباعى الذى كان قد مات منذ أكثر من ثلاثين سنة:

- أنت كنت بتحبيه يا نينه؟

فيجىء الرد من بين دموعها:

- هوه كان فيه حد يا بنى ممكن يستحمله غير إذا أحبه.

يفسر اللواء محمود السباعى العلاقة بين والديه وهو يجيب على التساؤل المندهش لاستمرار زواج المثقف الكبير

والفنان البوهيمى من فتاة أمية .. بنجاح غير عادى وسعادة، بقوله: كان أبى خارج تكوينه الفكرى ومزاجه الفنى وما يتصل بهما، أشبه بطفل كبير فى حاجة دائمة إلى من يعينه وخاصة فى أموره المعيشية، وذلك كان اللون الملائم الذى يحتاجه من النساء هو المكمل له وليس المشابه فى الملكات والقسمات. فهو يفتقد "الموهبة" التى تمكنه مثلا من أن يصرف الماهية على مدى شهر كامل مقسمة إلى ثلاثين يوما -دعك من أن يتمكن من ادخار القليل أو الكثير منه، فهذه معجزة بالنسبة إليه فاتها زمن المعجزات! -لأنه لا يستطيع أن يتحكم فى مرتبه أكثر من يومين ثلاثة بالعدد بلا مبالغة. ومن الحكايات التى تروى عن جهله البشع بأحوال المعيشة حتى الضرورى منها، أنه كان أيام عمله بالمنصورة مدرسا بمدرسة المنصورة الثانوية الأميرية، وهو يقطن شقة بمفرده .. لا يقدر إذا حل الظلام والبيت لم يدخله الكهرباء بعد، أن "يولع" لمبة الجاز نمرة "٥" فيضطر أن يحملها بيده ويخرج إلى الطريق ينتظر أول عابر سبيل يمر به، ليشعلها له! وهكذا كان أبى فى أمس الحاجة إلى زوجة "تلمه" كما يقول المثل الشعبى.

نعم لم يكن بين محمد السباعى زوجه، تناقض بل تكامل. وكان الاختلاف بين الطبيعتين، هو الذى مكن لحياتهما المشتركة أن تمتد بجذورها فى الأعماق وتستمر حتى بعد أن فرق الموت بينهما. فإذا بالأرملة الشابة الحسناء تحافظ على عهده وترفض أن تتزوج بعده، وتتوفر

علـى تربيــة أولادهــا الثلاثــة حتــى يتخرجــوا ويــتزوجوا وينجبـوا وتربـى أحفادهـا أيضـا .. وتدمـع عيناهـا كلمـا ذكـر أمامها اسـم محمـد السباعى.

ومـن الطريـف أن السـيدة "عيشـة المصـرى" التـى وقفـت ضـد تجـاوزات زوجـها الفنـان، كـانت هـى التـى سـاعدته مـن غـير أن تـدرى فـى أن يقـوم بـهذه الاندفاعـات بشـكل أكـثر اطمئنانـا وربمـا أكـثر توكيـدا! فقـد كفتـه مئونـة التفـرغ لبيتـه كـزوج وأب وأعفتـه مـن مسـئوليته فـى الإشـراف علـى الأولاد .. كمـا أنـها هيـأت لـه فـى داره الراحـة والـهدوء والجـو الملائـم لصـاحب القلـم. وهـذا الاطمئنـان إلـى أن أمـوره المعيشـية والمنزليـة والأسـرية فـى يـد أمينـة محبـة وتتحقـق علـى أحسـن مـا يحـب، منحـة انطلاقـة أكـبر فـى تحديـه ومزاجـه الفنـى .. ممـا يغضـب زوجـه فتـهب مدافعـة عـن التجـاوز الـذى حـدث أو مـا تسـميه "حـل شـعره"! وعندمـا كـانت تثـور، كـان يحـاول تهدئتـها ضاحكـا بقولـه: لازم تعرفـى يـا أم يوسـف أن عنـدك قـرد بيـنزل دهـب .. ولازم يـأكل فسـتق علشـان ينزلـه .. ولـو مـا أكلـوش مـاح يجيـش الدهـب .. أهـو أنـى كـده! ومـا أكـثر مـا كـانت تسـتجيب السـت أم يوسـف إلـى النصيحـة مضطـرة، ومكـره أخـاك لا بطـل. لقـد كـانت تكـره لزوجـها أن يكـون علـى مـا هـو عليـه .. رافضـا متحديـا سـاخرا مـن المجتمـع والنـاس، لكـن مـا باليـد حيلـة مـع كـل محاولاتـها .. فلتتجـاهل إذن أو "تبلـع" مـا أمكـن هـذا الفسـتق الـذى يقـول عليـه السـباعى أو مـا لا ترضـى مـن سـلوكه، والمنـافى لمـا ألفـت فـى معظـم الأحـوال .. ليـس اهتمامـا

بمكافآت كتاباته المالية، بل حفاظا على رجلها نفسه!

ولعلنا لا نتصنع فى استعارة هذه اللقطة الحياتية بتصرف من إحدى روايات ابنهما الأوسط يوسف السباعى، التى تصور شخصيتين لهما من التكوين المشابه ما حمل الأب والأم. وهذه اللقطة عميقة الدلالة مع مظهرها البسيط، فى تبيان العلاقة القوية التى كانت تربط بين الزوجين، مع تباين المستوى الثقافى الكبير ..

"رمق الأب ابنه بنظرة إعجاب وهو يتفحصه من أسفل إلى أعلى قائلا:

- طولت يا بنى .. تعال قف بجانبى أمام المرآة لأقيس طولك ..

وكان الابن قد تعود أن يقف بجوار أبيه .. ليرى إلى أى حد قد استطالت قامته. ونظر الأب إليه وهو يقف بجواره فى المرآة قائلا:

- إيه ده يا واد .. لقد أصبحت أطول منى .. لن تجد بعد ذلك من تقيس عليه طولك.

وبدا التجهم على وجه الأم وهى تأخذ قول الأب بطريقة متشائمة لم يقصدها الأب، فهتفت قائلة:

- لماذا تقول هذا؟ ربنا يعطيك العمر الطويل ويقيس طوله عليك دائما .. تف من بقك سبع تفات.

وصاح الأب ضاحكا:

- يا ستى لا أقصد أنه لن يجد من يقيس عليه طوله ..

لأنـى سـأموت .. بـل لأنـه قـد أصبح أطـول منـى .. ولـن أصلـح لـه مقياسـا للطـول.

وردت الأم فـى إصـرار:

- معلـهش .. برضـه تـف مـن بفـك سـبع تفـات.

- ولمـاذا سـبعة .. خمسـة لا تنفـع؟

- قلـت لـك سـبعة.

- وإذا جـف ريقــى؟

- ليس هـذا وقـت مـزاح.

ويتـدخـل الابـن قـائلا:

- تـف بقـى يـا بابـا وريحــها.

- حـاضر .. حـاتف عشـرة.

وأسـرعت الأم تقــول:

- لا .. سـبعة بـس.

وضحـك الأب قـائلا:

- يـا وليـة اعقلـى.

ثـم أصـدر صـوت التـف والأم تعـد حتـى بلـغ السـابعة فقـالت:

- كفــى ..

- اسـترحت؟

- أجـل.

ثـم دعت من قلبـها:

- ربنـا يـخليـك لـهم.

ونظر إليـها الأب فـى دهشـة؟

- أمال بتـدعى على ليـه .. كـل مـا زعلـك إن ربنـا يـاخذنى؟

- بعـد الشـر؟"!

(٢٠)

لا نستطيع أن نستوعب مواقف محمد السباعى الشجاعة فى تربية أولاده، التى سبقت عصره ولا تزال تسبق عصرنا نحن أيضا بعد وفاته بحوالى سبعين سنة، قبل أن نقف على فكره فى هذا الجانب الذى يفسر سلوك هذا الأديب الكبير. يقول محمد السباعى: أرى معظم الآباء والمعلمين لا يسكنون أو يرون الصبية منكبين على الكتب والكراسات .. هذا حمق منهم وفضول وتطفل على الأستاذ الحقيقى، أعنى الطبيعة .. الطبيعة أعقل من الآباء وأعلم، وأخبر بدماغ الصبى وأطب بعلاجه .. ألا ترى برهانا على حكمتها إذ هى صرفت الصبى بعد انقضاء الدرس الأخير إلى المزارع والرياض .. إذا كان إلحاح الوالد على ابنه بمواصلة الدرس دليلا قطعيا على الجهل والغباوة، من دقق النظر أبصر أن خير أوقات الغلام وأريحها ليست هى ساعات الدراسة بل ساعات البطالة، إذ يهيم الصبى فى الأسواق، ويرتع فى الحقول والبساتين، ساعات البطالة ساعات غنية متوقدة مفعمة بالملاحظات والفوائد والتجارب. ما رجعت البصر إلا وددت أنى كنت بعت ٥٠٠ ساعة من الحصص اليابسة الجرداء بمثلها من ساعات الكسل والهرب وسط الشوارع والضواحى .. وإنى

للآن لا أغبط التلميذ على نعمة هى أتعس من رفته بضعة أيام من المدرسة يقضيها فى كلية الحياة الكبرى .. تلك الكلية التى أخرجت آباءنا من العرب، وأخرجت أمثال ديكنز وبلزاك من نوابغ الإفرنج، إذا الغلام لم يتعلم من الشوارع فذلك لأنه لم يملك ملكة التعلم".

إذا كانت العادة فى البيت المصرى أن تبكر الزوجة أولا فى الصباح قبل غيرها من أفراد الأسرة، ثم ينهض الأبناء وأخيرا الزوج .. فإن فى بيت محمد السباعى يختلف الوضع أحيانا .. فقد كان الأب ينافس الأم فى القيام "من النجمة" ويوقظ أولاده، لا استعدادا للذهاب مبكرين إلى المدرسة، بل ليأخذهم فى نزهة خلوية بكورية والأحياء هادئة والحدائق لا تزال تنفث أنفاسها العطرة الطازجة والشوارع لم تلوثها بعد الأتربة والدخان والأنفاس! كما لا يخلو الأمر أحيانا من أن يحملوا معهم كرة حتى لو كانت "شرابا" .. لزوم اللعب شوطا أو عدة أشواط، لا بمنأى عن الأب بل بمشاركته كذلك .. فهو لم ينس بعد أنه كان أحد "كباتن" كرة القدم فى شبابه قبل أن يجرفه الأدب والفكر والكتابة!

لقد كان محمد السباعى يقدس اللعب فى بلد "يستحرمه"! ومن كلماته المشهورة فى هذا الصدد: الإنسان حيوان لاعب محتاج بطبيعته إلى اللعب طفلا ويافعا وكهلا وشيخا، ولا غرو فإن اللعب فى ذاته عمل برىء طاهر .. وهو مهرجان النفس، وعيد القلب وهدنه الروح فى معترك العمر.

ونستطيع أن نعرف المزيد من تفاصيل تربية محمد السباعى لأولاده، إذا استمعنا أو قرأنا ما كتبه ابنه يوسف السباعى فى هذا الجانب .. "أذكر مرة أنه نهرنى بشدة لا لأنى ألعب، بل لأنى أذاكر دروسى! وأذكر أنه أعطى أخى أحمد ريالا .. لا لأنه نجح، بل لأنه ضرب أحد أبناء الجيران -وكان الولد أكبر منه- روسية فبطحه وأسال دمه! وأذكر كذلك أن والدتى كانت تجمعنا أنا وأخى فى حجرة صغيرة وتغلق علينا الباب ونحن نستذكر دروسنا، لا خوفا علينا من الخروج، بل خوفا من دخول أبينا علينا وتعطيلنا، ولم يجد معه الإغلاق، فكان يصعد إلى أحد المقاعد ويشاغلنا من الشراعة الزجاجية!!".

كما يروى عنه ابنه الأكبر محمود السباعى الذى فقد الأب وهو فى حوالى الخامسة عشرة من عمره .. أنهما كانا يسيران معا فى الطريق، وإذا بطفل صغير يطلب من محمد السباعى إحسانا. وكانت إيجابية تلقى الدعوة هى أن يعطيه مليما أحمر نحاسيا كما يفعل غيره .. وكان للمليم فى أوائل العشرينيات من القرن العشرين سلطانه وقدرته الشرائية المعترف بها التى تساوى أكثر من أربعين ضعفا اليوم، فوضع الأب يده فى جيبه وأخرج قطعة فضية من ذات الخمسة قروش قدمها للغلام الصغير، وكانت النتيجة ردى فعل عنيفين، الأول من الشحاذ الطفل الذى فوجئ بالمبلغ الضخم وروع فى آن، وأخذ يستوثق من صاحبه عن حقيقته وهل هناك خطأ ما، وعندما تيقن أن السباعى يعنى

ما أعطى، ثنى أصابعه بشدة وقبضت كفه على العملة الفضية وأخذ ذيله فى أسنانه وطار .. غير مصدق .. ربما أيضا خوفا من أن يراجع الآخر نفسه بعد قليل ويسترد هبته العظيمة! أما رد الفعل الثانى فكان من الطفل الآخر محمود السباعى .. الذى غضب غضبا شديدا واستهول أن يفعل أبوه هذه "الحماقة". وبدا أنه يبذل جهدا خارقا رغم صغر سنه، ليختار اللفظ المهذب الذى لا يسىء ولا يغضب. ولكن الأب لم يجشمه التجربة، وأراحه من هذا العناء. همس له ضاحكا .. هل تظن أن هذه فعلة غبية يا بنى وأننى كنت مغفلا كبيرا إذ أفعل .. لا .. يا بنى .. لتعلم أن مساعدة الغير، دين كبير فى أعناقنا لهم .. وإن ما نحصل عليه من إسعادنا إياهم، يفوق كثيرا ما نقدم من قروش مهما زادت فهى أقل قيمة .. وإذا لم يشارك المال فى إسعادنا نحن أيضا بهذا الشكل، فما فائدته الحقيقية.؟

وكان الفنان البوهيمى الذى يريد أن يعيش لحظته فحسب، "يستخسر" أن تدخر له الحكومة -أيام كان موظفا بها قبل الاستقالة- هذا الجزء اليسير من ماهيته الشهرية ليجده عند وصوله إلى الستين مجمعا. وفى ذلك الحين لم يكن اقتطاع المعاش جبريا كاليوم، ولذلك كان النظام المالى يسمح للموظف إذا أراد، أن يأخذ مربوط الدرجة كاملا فلا ينقص عن إجمالى المرتب مليما، وكذلك فعل محمد السباعى.

وكانت هذه القضية هى أولى القضايا اليومية المثارة بين

الزوجين .. هو يحتاج إلى كل قرش فى المرتب، ويريد أن يستمتع بماهيته كلها له ولأسرته .. ولا يطمئن إلى حكاية واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، فالأعمار بيد الله. وهى التى تؤمن بأن الحياة ليست حاضرا فحسب، بل هى مستقبل أيضا. وإذا كان الميت لا يحتاج، فهو يترك من خلفه حاجات .. وإن مسئولية الوالدين لما يرعيان من أبناء. لا تنقطع بموت أحدهما أو كليهما معا .. بل هى مستمرة لضمان غد فلذات الأكباد. ولاشك أن مسئولية إدارة البيت والقيام بشئون الأولاد الثلاثة التى كانت تقوم بها الست أم يوسف، جعلتها تدرك بصورة أوضح وأقسى .. المصير المفزع الذى يمكن أن يتعرض له الأبناء وهم زغب الحواصل بلا معاش. ولذلك كانت تلح على الزوج ألا يستقيل وألا يسحب نسبة المعاش أولا بأول .. ولكنها خسرت هذه المعركة المزدوجة بالذات خسارة محققة، ولم يلن محمد السباعى فى هذا الجانب الثانى بالذات أبدا.

وكان البديل الوحيد لدى الست "عيشة المصرى" أن تدخر .. ولم يكن الادخار عندها يعتمد كلية على ما تستطيع اقتطاعه، من مصاريف البيت وريع قطعة الأرض الصغيرة فى القرية وحسن التدبير .. فهذه كلها موارد بسيطة لا تكفى لطمأنة أعماقها وهى تستشعر الفزع من الغد .. الذى يبدو لها دائما بوجه كالح لا خير فيه، مادام رجلها مستمرا فى تحرره وبوهيميته وعدم إدراكه للواقع المعيشى الذى يتطلبه الحاضر ويتطلبه أيضا المستقبل. ولم تفكر

أبـدا فـى شـخصها هـى إزاء الغـد، لأنـها تعـرف أنـها وضعـت قلبها وأيامـها جميعـا فـى خدمـة هـذا الرجـل، الـذى أحبتـه بكـل عيوبه التى تعرفها هـى جيـدا قبل غيرهـا .. وأنـها تتحمـل هـذه المسـئولية راضيـة سـعيدة. ولكـن الأولاد .. وعندمـا تصـل إلى هـذه النقطـة يصيب التوتـر أعصابـها، وتفعـل كـل مـا يخطر ببالـها ليزيد ما تدخـر. وكـان واحـد مـن هـذه الأسـاليب، مـا ترثـه الزوجـة المصريـة عـن أمـها وجدتـها ويسـرى فـى دمـها وهـو المغالطـة فـى الحساب! ولـم تكـن تـرى فـى ذلـك مـا يعيـب لسـببين: الأول أنـها تفعـل ذلـك نوعـا مـن الضمـان لصـالح الأولاد .. لا لتعطيـه لأخيـها أو أسـرتها. والثـانى أنـها ليسـت البادئـة فـى هـذه المغالطـة، فقـد سبقها هـو إليـها، حيـن أخفـى ويخفـى دائمـا بعـض كسـبه ومكافآتـه الصحفيـة عنـها .. والبادى أظلـم! وكـان هـذا يحـدث حقيقـة من محمـد السباعى!. فـهو يعمـد إلـى إخفـاء جـانب مما يصـل إليـه مـن مـال، خاصـة مـن الصحـف الأخـرى التـى تسـتكتبه غـير المعـروف عنـه مشـاركته فيـها مثـل "السياسـة" أو "البـلاغ". وكـانت السـت أم يوسـف مـع أميتـها تحـس بذلـك، لا مـن إدراكـها أن أولادهـا يتسـترون علـى الأب، وبـالذات يوسـف الـذى كـان ألصـق الأبنـاء بـه فـى ناحيـة الثقافـة والأدب والكتابـة. والـذى كـان محمـد السـباعى يعتمـد علـى رأيـه أولا فيمـا يكتـب، أو وهـو يرسـله إلـى الصحيفـة التـى ينشـر فيـها يـأتى لـه ببروفـة مقالـه لتصحيحـها وإرجاعـها ثانيـة فحسـب، بـل بمـا كـانت تجـد مـن دلائـل ماديـة تؤكـد لـها صحـة مـا تذهب إليـه ويخفـى زوجـها.

يقص ابنهما الأصغر أحمد السباعى، أن أمه كانت تعثر على بعض النقود أحيانا تحت السجادة أو خلف الدولاب أو وراء الكتب أو تحت أكوام المجلات والصحف، وهى تنظف موقعها .. فتأخذها بلا ضجيج ولا تشير إلى ما وجدت. حتى تدفع زوجها أكثر إلى أن يخبئ فى أماكن تختلط عليه بعد حين ويظن أنها لا تزال موجودة، وحتى لا تجعله شديد الحرص إذا جهرت بأنها تعرف!

ومن ناحية أخرى كانت الست عيشة مطمئنة تماما إلى أن محمد السباعى من تاريخه معها ومن تجاربه المعدودة، هو آخر من يفهم فى السوق والمشتريات والبضائع الجيدة أو الرديئة .. وربما لا يعرف من أين يمكن أن يشترى هذا الصنف أو ذاك -ستحل هذه التهمة فى قابل الأيام على أحد أبنائها وهو يوسف- وأنها بذلك تستطيع أن تخدعه تماما وهو لا يدرى.

وهكذا عندما كانت تعرض عليه الحساب، تكون المبالغ مضاعفة، والأصناف لا وجود لها لأنها لم تشتر أصلا. أو أن الكمية المحددة لم يجئ إلا نصفها. ومع خيبة محمد السباعى حقيقة فى الشراء، إلا أنه كان يدرك بوضوح أن امرأته تغالط، وأنها تخطئ إذا فهمت أن عدم قدرته على مساومة البائع مثلا، أو معرفة المحال التى تبيع الأرخص، يعنى أنه يفقد المنطق والحساب يقدم إليه .. وأنه كامل السذاجة فى تصديق ما ترسم الزوجة على وجهها وما تحاول من تحكم فى نبرات صوتها -لم تعرف بالطبع أنه

يؤمن بالفراسة أو قراءة الوجوه وأنه يكتب عن مثل هذه الموضوعات كثيرا .. لأنها لا تعرف القراءة!- وأن بعده عن الأسواق ليس كما تظن يساوى الانقطاع التام حتى أن يسمع ويرى خارج البيت! ولا يخلو الأمر من طرائف تكشف حقيقة ما تصطنع الست أم يوسف رغم ذكائها. وهذه واحدة منها لا تزال تذكرها الأسرة ويتناقلها الأبناء عن الآباء.

"لقد وقعت الست عيشة فى مطب مضحك عندما أرسل لها حماها لفافة من حانوته الكائن فى الغورية مع أحد الصبية التى تعود أن يرسلها من آن لآخر. وكانت اللفافة تحوى خمس لوفات وكيسا به خيار وجوز هند. وأدخلت الست أم يوسف ما أرسله الحاج فى كشف الحساب على أنها مشتريات اشترتها، وهى واثقة أن الحاج لم يتعود أن يسرد على ابنه أى زوجها هى ما يرسله من هدايا بين آونة وأخرى.

"وجلس محمد السباعى يستمع إلى كشف الحساب الذى تقدمه إليه زوجته يوميا، ليقف على أوجه الصرف التى تم فيها إنفاق ما يدفع إليها من جانب كبير من الماهية .. وكان من بين مصاريف اليوم اللوف والخيار وجوز الهند. وتساءل ببراءة:

- هل اشتريت لوف؟

- أجل.

- وخيـار؟

- أجـل .. وجـوز هنـد أيضـا .. ألا تصـدق؟

ثم اسـتدارت تنـادى الخـادم:

- هـات جـوز الـهند والخيـار واللـوف وريـهم لسـيدك.

وأحضـر الخـادم اللفـائف ووضعـها أمـام السـباعى، وسـألته زوجـه فى تحـد:

- أرأيـت .. وصدقـت؟

- عجيبـة!

- ما هى هـذه العجيبـة؟

- المصادفـة!

- مـاذا تقصـد؟

وابتسم محمـد السباعى وقـال ببسـاطة:

- لأنـى اشـتريت لكـم لـوف وجـوز هنـد وخيـار .. وتركتـه فى دكـان أبى لكـى يرسـله إليـك .. ولكـن يبـدو أنـى أشـطر منكـم فى الشـراء لأنـى اشـتريتها بنصـف الثمـن!

ونظـرت امرأتـه إليـه بغيـظ وهـى تقـول:

- وهـو لمـا أنـت اللـى شـاريها .. لمـاذا تركتنـى أروى لـك كـل هـذا الكـذب؟

- مجـرد تسـلية.

- أصلـك فـاضى .. علـى العمـوم أنـا دخلتـها فـى الحسـاب.

- كمـان ..! يعنـى اشـتريتها .. وأدفـع لـك ثمنـها .. مضـاعف .. هـذا يسـمى .. نصـب.

- نصـب .. نصـب .. دخلـوا الحسـاب وخـلاص.

- يا ولية بطلى.

- أهو متحوش لأولادك .. محدش عارف الدنيا ..

والالتقاء بمحمد السباعى فى بيته ضرورة حتمية .. على الأقل للوقوف على ما ضربه الأب لأولاده فى سلوكه من صراحة وقيم، لم تختلف فى كثير أو قليل عما كان يدعو إليه فى كتاباته من مبادئ متحررة. وأغلب الظن أن سلوك الأب فى البيت وخارجه، هو الباعث أو المشجع الأول لأولاده خاصة يوسف، لأن يحذو حذوه ويصبح هذا الإنسان الصريح فى حياته وسطوره، الذى لا يكذب والجدير بالثقة. ولنعيش هذا بضع دقائق فى بداية يوم هذا الفنان المؤمن بأن الصدق والشجاعة والحرية الشخصية التى لا تؤذى الآخرين مهما كان اندفاعها .. أشياء ضرورية لبناء المجتمع من جديد وجعل جوانيته تلتقى ببرانيته فى وجه واحد نطالع به أنفسنا والناس فى وقت واحد. ولنكتف هنا بإحدى اللقطات الدالة التى يذكرها أولاد محمد السباعى أنفسهم وأشار إليها يوسف أيضا فى إحدى رواياته.

كان محمد السباعى ينهض مبكرا من نومه، ويكون العمل الأول الذى يقوم به وهو لا يزال فى حجرته، اللعب بالحديد وهو عارى الجسد .. يرفع الأثقال الحديدية فى انهماك لا حد له كأنه يعد نفسه لبطولة العالم. ثم يثنى ذراعيه ويفردهما بالسلك ذى اليايات لتقوية الساعدين وتنشيط الصدر. وإذا كانت الست عيشة قد فرضت على نفسها، استساغة الكثير مما يفعل زوجها، فهى لم توفق فى أن تبرر

لرجلها ما يقوم به كل صباح والذى لا يقتصر على الألعاب الرياضية .. فبعد أن يقوم بآخر تمرين من هذه التمرينات، يندفع عاريا من غرفته إلى الحمام .. ولم الخجل وهو بين زوجه وأولاده، ليس هناك غرباء حتى فى وجود خادم أو خادمة صغيرة، لا تفرق .. فإنه من الأسرة أيضا.

ولم يكن هذا العرى أمام الأولاد والخادم، هو الذى يسوء الزوجة فحسب، بل كان هناك أيضا الجيران الذين يمكن أن يطالعوا هذا المشهد. ومحمد السباعى لا يهمه أبدا أن يراه الجيران عاريا، فكل إنسان حر فى بيته. ولذلك فهى إذ تنتظر من زوجها القيام بما يصنع كل يوم، فهى تعمل حسابها على إغلاق النوافذ بإحكام. ولكن الأمر لا يخلو من أن يغير السباعى فى مواعيد قيامه، والشبابيك مفتوحة لسبب أو لآخر .. فلا تملك إلا أن تستنجد بأولادها فزعة للإسراع بغلقها صائحة:

- يا دهوتى .. اقفلوا شباك الصالة .. الجيران تقول علينا إيه!

وفى هذه الأثناء يكون الأديب الكبير "ولا هو هنا" ..

"ولا يلقى محمد السباعى بالا إلى زوجه ولا إلى الجيران بل يأخذ الدش البارد -فى الصيف أو الشتاء على حد سواء- وهو يرفع عقيرته بالغناء:

- يا نور العيون آنست.

وعندما ينتهى من الدش، ينطلق عاريا إلى حجرته والماء

يتدفق من جسده إلى الأرض ويغرق الأبسطة وهو مازال يصيح مغنيا:

- يا ما أنت واحشنى وروحى فيك.

والأم تصيح بابنها:

- الحق أبوك بالبشكير .. قبل ما يغرق البساط.

ويخطف الابن البشكير ويعدو وراء أبيه وهو يضحك قائلا:

- هو لسه حا يغرق البساط .. ده غرق الدنيا بحالها.

ويناول أباه البشكير قائلا:

- إيه يا بابا اللى أنت عملته ده ..

ويرد عليه الأب ببساطة ..

- استحميت.

- دا أنت غرقت الدنيا.

- دلوقت تنشف!

ويسمع محمد السباعى صراخ الست أم يوسف فيتساءل بدهشة.

- الولية أمك بتصرخ ليه؟

- عشان خرجت من الأوضة عريان.

- وفيها إيه؟

- الجيران يشوفوك!

- ويشفونى ليه؟

- عشان الشبابيك مفتوحة.

- شبابيك مين؟

- شبابيكنا.

- و هو ليه بيبصوا فى شبابيكنا؟

ولا يعرف الابن الصغير كيف يرد عليه فيجيبه فى حيرة.

- أنا عارف بأه .. أهم بيبصوا.

- يبقى خليهم يشوفوا!

وقبل أن يعاود الغناء يقول فى إصرار:

- أنا حر فى بيتى"!

(٢١)

وعلى كثرة الأشياء التى يموج بها عالم جنينة ناميش بالنسبة إلى يوسف السباعى، فإن هناك اسما بالذات كان وثيق الصلة بهذا الحى .. وهو الرمالى أو عائلة الرمالى .. والتى كانت تملك إمبراطورية واسعة الأرجاء فى هذا الحى .. فهناك عمارات الرمالى، ووابور الرمالى، وعربخانة الرمالى، ومدخنة الرمالى، وأفران الرمالى، وعيش الرمالى .. وهكذا كان يجب إذا كنت من قاطنى جنينة ناميش، سواء أردت أم لم ترد، أن يكون لك ارتباط ما بصاحب هذا الاسم! وقد فعل يوسف السباعى. ولم يكتف بذلك بل أورثه لقرائه .. وهو يتناول دنيا الرمالى هذه فى الكثير من قصصه. العربخانة التى تحوى الكرات القديمة، وعلب الصفيح والأطواق .. واسطبلاتها وخيولها، ورائحة السبلة، والعصافير المعششة حولها وأفخاخ الصبية المنصوبة لصيدها. والميدان الذى كان طفلنا وصبينا يتوهمه فسيحا مترامى الأطراف لا يقاس به ميدان عابدين، فإذا به عندما تقدم به السن، صغير ضيق لا يسمح لك فيه بالعدو، أو كما يقول هو: وجدته كالحق .. تكاد ذراعاى تلمسان جوانبه. والمدخنة العالية والآلات القديمة، التى كان هو

وأصحابه يمتطونها ويعملون منها مركبات متخيلين إياها تنهب بهم الأرض! وأحواض الترشيح التى علاها الزيت وبدت خضراء، والأفران التى تفوح منها رائحة النخالة، وأصوات آلات الطحين تدور فى طرقات رتيبة ودقات منظمة، وأكياس الدقيق تتعالى كأنها الأهرام .. وعمال المطاحن يرتدون الجوالات كأنها القمصان، وقد شابت رءوسهم من الدقيق، وأكوام "الدحريج" والزلط الناتجة من غربلة القمح .. وأشاء وأشياء شاركت حياة الصبى وكلها تحمل اسم .. الرمالى.

ولم تكن دنيا الرمالى العامة وأملاك أسرته المتشعبة فى جنينةناميش، هى فقط التى اتصلت الأسباب بينها وبين صبينا، كإحدى المعالم الرئيسية للحى يتنفسها أينما توجه، بل كان هناك باعث خاص جاء من سكن أسرة محمد السباعى مرة فى إحدى عمارات الرمالى بل فى بيت الرمالى نفسه عندما خلت فيه شقة، وكان السكن فيها هو آخر عهدهم بجنينة ناميش وحى السيدة زينب كله. لم يستمر بقاء الأسرة فيه طويلا وانتقلت بعده إلى شبرا، وكان الانتقال إلى هذا السكن بالذات فى بيت الرمالى، حلم الأسرة جميعا مذ وقت طويل، لما يمتاز به البيت من وجاهة ومظهر أرستقراطى وحديقة واسعة وشجرة توت ضخمة تستقر على بابه .. رغم ما قيل عنه إنه بيت شؤم .. وإن الشقة التى يريد أن يسكنها محمد السباعى بالذات، هى مركز هذا الشؤم .. فقد خرج منها ثلاثة أموات! ولأول مرة التقت

رغبات العائلة كلها فى اللهفة على هذا السكن، الأب المثقف الذى لا يؤمن بالخزعبلات، والزوجة التى تعتقد فى الخرافات، والصغار الذين بين بين! وانتقلوا إليه .. وكان يوما أشبه بالعيد، فقد تحقق الأمل، ولكنه لم تمض بضعة أسابيع، حتى حل الموت لأول مرة أيضا عنيفا على الأسرة، واختطف الأب محمد السباعى!

(٢٢)

تعرف الأجيال الجديدة أسماء طه حسين وعباس العقاد وإبراهيم المازنى، ولكنها لا تكاد تقف من اسم أستاذهم محمد السباعى -مع أن فارق السن بينهم وبينه ليس كبيرا بل متقاربا- على خبر أو بلفظ أدق على تحديد .. لأسباب كثيرة، أولها أن انضمام أصحاب هذه الأسماء إلى الأحزاب السياسية التى كانت قائمة فى ذلك الوقت، مكن لهم أن تتجاوز شهرتهم القلة المثقفة إلى الكثرة المتابعة للسياسة، بجانب إلقاء صحف هذه الأحزاب الأضواء على كتابها ومتابعتهم فى إنتاجهم وأفكارهم سواء فى حياتهم أو بعد مماتهم. بينما كان محمد السباعى يرفض باستمرار الانتماء إلى هذا الحزب أو ذاك -كما سيفعل ابنه يوسف من بعده- حفاظا على استقلاله وعدم اطمئنانه إلى موضوعية أو أمانة أو صدق مواقف هذه الأحزاب. وثانيها منهج محمد السباعى نفسه .. المتحرر الثائر ضد المفاهيم التقليدية، المؤمن بالجوهر وليس المظهر، ولذا كان فى حياته لا يعبأ كثيرا أو قليلا بالشهرة أو بالتردد على من يعرف من أصحاب النفوذ والمنصب والمال.

ومع أن هذا الرائد العظيم كان يأخذ أكبر المكافآت التى تعطى للأدباء، إلا أن إسرافه لم يكن يبقى له شيئا .. بجانب أنه استقال مرارا من وظائفه الحكومية، فلم يترك معاشا.

وقد كتب يوسف السباعى وتحدث كثيرا عن أبيه، سواء فى أول كتبه وهو مجموعته القصصية "أطياف" أم أحدث ما ترك فى المكتبة العربية. وهذه لقطات عن محمد السباعى من روايته "نحن لا نزرع الشوك" ومن المعروف أن شخصية الأب محمد السمادونى تكاد تتماثل مع شخصية الأب محمد السباعى.

يدور هذا الحور بين زوجه وبينه:

- طول عمرك وأنت غرقان فى الكتب. ماذا أخذنا منها .. كان زمانك مدير أو وزير.

- الحمد لله .. الذى نجانا من هذا .. كنت سأضيف حمارا إلى الحمير التى تزخر بها البلد.

- قصر ديل .. كفاية عليك المزينين والقهوجية الذين تصاحبهم وتضيع معهم وقتك.

- الأسطى محمود المزين .. خير عندى من مائة مدير.

- هذا هو ما نأخذه منك .. خليك واكس نفسك وواكسنا معاك .. حتى المعاش .. الذى لن يبقى لنا غيره لا تريد أن تنهيه.

- سيخصمون منا بضعة جنيهات .. خسارة.

- خسارة أن يكون لنا معاش ينفعنا فى اليوم الأسود .. هل يدرى أحد ما تأتى به الأيام.

- دعينا نعيش يا ولية .. لا تحملى هم الغد .. عمر الخيام قال أمس ولى وغد لم يولد.

- هذا هو ما نأخذه منك .. ومن عمر سخام بتاعك!

"ولم يكن سى محمد يهمه .. غير يومه .. يسعى ليأخذ منه أقصى ما به .. يقرأ ويكتب .. يأكل ويشرب .. ويغازل ويضحك .. ولم يكن يزن الناس بمراكزهم أو بأموالهم وبأصلهم .. وإنما بخفة دمهم .. ولطفهم وبشاشتهم .. وطيبتهم .. وكانت علاقته بهم تقوم على مدى قدرتهم على مبادلته النكتة ومشاركته المزاح.

"ويروى أبوه عنه أنه استقال من وظيفته فى وزارة المعارف ليغلق على نفسه حجرته فى البيت ليحفظ ديوان ابن الرومى فى وقت كان أبوه مفلسا وكان هو بمرتبه من عمله فى الوزارة .. مصدر الرزق الوحيد للأسرة.

"ذلك هو سى محمد .. يسير فى الطريق منتفخ الأوداج كوزير .. ثم يستضيف شحاذا ليتناول معه الغذاء فى أقرب مسمط .. ويعطى ريالا من محفظته لمحتاج .. ثم يقترض قرشا ليركب الترام حتى لا يعود إلى بيته فى منتصف الليل سائرا على قدميه.

"يغير طريقه .. إذا رأى من بعيد كناسا يثير الغبار .. أو رأى .. حسن أفندى يجلس أمام بيته .. وهو يتشاءم من نظرته .. ليلف بضعة كيلو مترات .. حتى يصل إلى مقصده .. تجنبا للغبار .. أو لحسن أفندى.

"وقبل أن يعود إلى البيت يبضع ما لذ وطاب .. ويندفع إلى السلم طارقا درجاته فى عنف واعتداد وفرحة .. كأنه يقول: أنا قادم .. افتحوا الأبواب والأذرع واستقبلونى".

كان طويلا عريضا أبيض الوجه مشربا بحمرة، قوى العضلات شديد قبضة اليد، يستطيع أن يلوى سيخ الحديد القوى، ذواقة فى تناول الطعام، يستطيع أن يأكل .. عددا كبيرا من كيلوات الفاكهة فى الطريق وفى منزله على حد سواء.

يقول محمد فهمى عبد اللطيف فى كتابه "فلاسفة وصعاليك" عن شخصية محمد السباعى:

"ذلك رجل عاش مع الحياة وجها لوجه، يتلقى بأساءها كما يتلقى نعماءها، ويعيش مع شرها كما يعيش مع خيرها، فلا يعنيه أكانت الأمور إلى إدبار أم إلى إقبال، ولا يبالى أطلعت عليه الأيام بالنحس أم بالإسعاد، ذلك لأنه كان يرى أن النفس الإنسانية أكبر وأشرف من أن تهلك حسرة فى طلب أكلة، أو أسفا على وظيفة، أو هوانا وراء أى مطلب من مطالب هذه الحياة. ومادامت الغاية واحدة وكل حى إلى القبر مصيره، فسواء راكب الطريق الخشن، وراكب الدثار الدمث، سواء أكان الوصول على قطار الطيش والغرور، أم على قدم خاشعة من التقى والقصد .. فالأمور بغاياتها. فإن تهيأت الرفاهية فى الوسيلة فحبا وكرامة، وإلا فهو واقع الأمر لا حيلة للإنسان فيه، والشقاء فى الحسرة على الشىء

أسوأ وأقسى من الشقاء بفوته وضياعه.

".. وعلى هذا المذهب قطع مرحلة الحياة عابر طريق، وهو مذهب على ما أرى، هداه إليه طبعه قبل أن يصل إليه بثقافته، لأن إنسانا ما لا يحتمل هذا اللون من الحياة، إلا إذا كان مفطورا عليه بطبعه، وله فى نفسه صورة كامنة تتصل بوجدانه وعواطفه، والحق أن هذا لم يكن من السباعى صوفية تباعد بينه وبين الحياة، ولا زهدا ينأى به عن مباهج الدنيا ومسراتها، ولا فلسفة بقيم الحياة المقررة من قبله، والممتدة من بعده، ولكنه كان شجاعة نفسية فرضها عليه فرط شعوره بإنسانيته، وتقديره للقيم الإنسانية، حتى كانت هذه الإنسانية فى رأيه أكبر من الحياة نفسها، لأنها أبقى من الحياة وأخلد فى هذه الأرض".

ويفسر محمد فهمى عبد اللطيف وقع طبيعة السباعى الأب على المجتمع وفهم هذا المجتمع له، فيقول: "لقد أدركت السباعى فى آخر أيامه وعرفت عنه كثيرا، وسمعت عنه أكثر. وخلاصة الرأى فى هذا الرجل أنه كان شخصية غريبة فى منبتها وفى بيئتها. وأحسب أنه كان لا يطاق بين الناس، لأن العبقرية عظمة لا تطاق، ولا تحتمل عند عامة الناس، وأكبر ظنى أن كل من عرفه لأول وهلة قدر أنه مجنون، أو به مس من الخبل. والناس يحسبون العباقرة مجانين، لأنهم يعيشون فوق إدراكهم، ويحلقون فى أفق أعلى من أن تبلغه عقولهم، وما كانت تصرفات السباعى فى الحياة وبين الناس، إلا مما يحير الألباب والعقول"!

لقد عاش أولاد محمد السباعى إذن وخاصة ابنه الأوسط يوسف، هذه الحياة وهذه التصرفات .. وفتن بها أكثر من غيره، لأنه فهمها وعرف أنها جميعا تنبع من الصدق مع النفس والآخرين قبل أى شىء آخر، واستجابت طبيعته إليها. ولاشك أن مثل حادث استخدام كراريس التلاميذ وقودا لإنضاج الطعام، عمل اعتبره يوسف فذا وشجاعا لا يقدر عليه إلا أبوه. ولعل أثره على وعى الصغير الذى كان يستشعر عظم الفارق بين الظاهر والخافى فى الإنسان، كان أكثر مما فعلت استقالة الأب من وظيفته، لأن هذا الحادث وقع داخل المنزل وكان هو من شهوده. ولنترك صاحب كتاب "فلاسفة وصعاليك" يقصه علينا أيضا وهو يقول: كان السباعى يشتغل مدرسا فى إحدى المدارس، وفى يوم عاد إلى البيت ظهرا يحمل حملا من كراريس التحضير وكراريس التلاميذ فى الإنشاء والمحفوظات لتصحيحها، ففاجأه من فى البيت بأنهم فى حاجة إلى فحم للكانون لإنضاج الطعام. ولم يجب السباعى بكلمة، ولكنه تقدم من الكانون، وأخذ يغذى ناره بما يحمل من الكراريس، وفيها عقول التلاميذ وثمرة اجتهادهم، ومازال حتى نضج الطعام على آخر كراس!! ويعلق السباعى -الكبير طبعا- على هذه الحادثة مغتبطا فيقول: والله ما رأيت أرزا أنضج ولا ألذ طعما، ولا أصفى بهاء من ذلك الأرز الذى أنضجته نار الجهل"!!

.. وفى ذلك اليوم البعيد عاد من سهرته مبكرا على غير

عادته، وفى هذه المرة لم تنم طرقات قدمه على السلم عنه، وفوجئت الأسرة به وهو يطرق الباب .. وكانت خطواته الثقيلة التى يمشى بها لأول مرة فى حياته تعكس ما يعانيه من ألم .. وظنت زوجه فى البداية، أنه ثمل ولكن صوته الضعيف المتهالك وهو يقول: لا أستطيع أن أبصر شيئا .. أنا متعب .. متعب جدا، أرجف القلوب حوله. وارتمى على الفراش ولم يقو على خلع ملابسه، وذهب يوسف سريعا مخترقا شوارع جنينة ناميش متجها إلى حارة السيدة مختصرا الطريق إلى جنينة لاظ ثم إلى شارع الوافدين ومنه إلى شارع الخليج حتى بلغ ميدان السيدة ليأتى بالدكتور رضا، ولولا أن الطبيب عرف أن المريض هو الكاتب المشهور، لما جاء معه .. فقد انتهى من عمله وآخر مريض. وفحصه الطبيب وبدا عليه الوجوم، وأشار برفق إلى أن السباعى أصيب "بشوية" ضغط .. وطلب أن توضع على رأسه طاقية ثلج مع استعمال بعض الأدوية التى كتبها فى روشتته.

ولم تكن الأسرة والجيران الذين جاءوا، فى حاجة إلى فهم معنى قولة الطبيب، فقد حط عليهم الفزع وانتهى الأمر، بمجرد تهالك محمد السباعى على السرير. فمعنى أن يفعل الرجل القوى هذا .. أنه مريض جدا. "الناس كلهم يجوز عليهم الرقاد والمرض إلا هو .. إنها لم تره يمرض قط .. دائما يغنى .. دائما يمزح .. ودائما يلعب بالحديد .. ودائما يعدو عاريا ليأخذ دشا باردا .. ودائما يستمتع

بالطعام والشراب .. وحتى عندما يكتب .. يجلس ليقرأ ما كتب لابنه .. فى استمتاع وفرحة".

"حضر الجد والعمة وبقية الأهل ليشاركوا الأسرة الصغيرة جزعها على الأب والتفافها حوله. ومرت بضعة أيام .. والرجل القوى .. ملقى فى إغفاءته الطويلة فى الفراش .. بطاقية الثلج على رأسه .. وإبرة الجلوكوز مدفونة فى أحد عروق يده .. يقطر منها السائل المنحدر من الخرطوم الممتد من الآنية الزجاجية المعلقة فى داير السرير وأفراد الأسرة يتحركون حوله كالأشباح.

وفى يوم أقبل الدكتور .. ليفحص الرجل الراقد والذى لم يفق منذ أن أغفى إلا دقائق نطق فيها بضع كلمات ثم عاد إلى إغفاءته .. يهذى بجمل متقطعة وكلمات غير مفهومة .. وبدأ الطبيب فحصه .. وبدأ الجسد القوى وقد ترهلت عضلاته وبرزت عظامه. وفى نهاية الكشف لم الطبيب أدواته فى الحقيبة .. ولم يحاول أن يكتب روشتته التقليدية .. ولكنه نظر إلى الجد الذى وقف بجواره يستند على عصاه وقد استطالت لحيته وتناثر الشعر الأبيض حولها وأمسك بيد ابنه المريض يربت عليها فى حنان ويهمس له فى صوت يقطر الدمع من نبراته:

- سلامتك يا محمد .. سلامتك يا بنى .. سلامتك يا حبيبى .. رد على ريحنى".

وبعد قليل يعلن الطبيب للجد وهما منفردان، أن

المريض سيصاب بشلل نصفى، ولكن المهم أن ينجو.

"أية صدمة وقتذاك .. أبى القوى الجسد المفتول الذراعين، الذى لم يكف يوما عن لعب "الدومبلز والساندوز" والذى كان يقبض بكفه على كتف أى إنسان فيتهاوى أمامه، أبى الفخور بقوته المعجب بشكله .. يصبح رجلا مشلولا قعيدا؟! لا .. لا .. هذا مستحيل. هذا أمر لا يمكن تصوره .. ومع ذلك فقد أضحى الشلل بعد ذلك أمنية يأباها علينا القدر. فقد استمرت الغيبوبة، واستمرت الطاقية الثلجية، واستمرت حقن الجلوكوز تدفع فى جسده الواحدة بعد الواحدة .. عشرة أيام وهو فى رقدته لم يفق سوى مرة واحدة، ونحن ساهرون من حوله لم يغمض لنا جفن إلا فى الليلة العاشرة عندما ظننا أن حالته قد أخذت تتحسن. ولكننا استيقظنا فى الفجر على حركة غير عادية، وأمر أخى محمود أن يسرع إلى دار قريبة بها تليفون لاستدعاء الدكتور رضا، وانطلق أخى يعدو خارج الدار، ووقفت أمام الفراش وبقية الأهل.

"إننى أذكر جيدا آخر ما رأيته .. لقد أخذ شهيقا طويلا ولم يخرجه، وشهيقا آخر ولم يخرجه، ومرة ثالثة ورابعة ثم كف عن الشهيق والزفير وأخذت أنظر إليه وأنا لا أفهم، حتى سمعت صراخا حولى.

"وانطلقت من الدار أعدو وراء أخى لأطلب منه ألا يستدعى الطبيب .. لأن أبانا قد مات. كانت كلمة غريبة

على لسانى ولا أذكر أنى أفصحت بها فى أول الأمر .. بل قلت له "خلاص" فلما سألنى عما أعنى بكلمة "خلاص"، وقلت له: بابا مات.

"كنت وقتذاك فى الرابعة عشرة، وأذكر أنى ارتميت على الأرض أمزق الثياب وأغطية الأرائك بأسنانى غير مصدق أن أبى مات .. حتى بدأ النعش يخرج من باب البيت، ورغب البعض فى أن يحجزونى فى البيت فلا أسير وراء النعش .. ولكننى انطلقت أعدو وراء الجنازة واندسست بين المشيعين ونظرى معلق بالنعش المحمول على الأكتاف وقد وضع على حامله طربوش أبى، أما طربوشه الآخر، فقد كان على رأسى.

وسارت الجنازة من السيدة إلى القلعة إلى المجاورين، وأنا لا أدرى مما حولى شيئا إلا أبى الراقد داخل الصندوق الخشبى. وبدأت مع السير أستشعر شيئا من السكينة وأحس أنى سائر فى صحبة أبى، وأن الفرقة لم تحدث بعد، ولم يعد لى أمنية سوى أن يطول الطريق وتظل الجنازة سائرة إلى مالا نهاية، ولكن النهاية حلت، ووصلنا إلى المقابر ثم ودعنا وافترقنا". ("أيام وذكريات" - ص٣٩٩-٤٠٠).

(٢٣)

كـانت الشـكوى الدائمـة لـلأم مـن زوجـها البوهيمـى، أنـه لا يعطـى لبيتـه حقـه مـن الرعايـة كمـا يجـب. ولا يعـد نفسـه المسـئول الأول والأخـير عـن أسـرته فيتفـرغ لـها بعـد انتـهاء عملـه، كـالأزواج الآخريـن "المـهاودين" الـذى يحسـنون تربيـة أولادهـم بالعصـا، ويظـهرون لـهم العيـن الحمـراء حتـى يمشـوا على العجيـن "مـا يلخبطـوه". هـذه الاتـهامات التقليديـة التـى كـان الأبنـاء يسـمعون أمـهم تديـن بـها أبـاهم، حتـى ليظـن بعضـهم أحيانـا فـى سـاعة غضـب أنـها تعـبر عـن تنـافر هـائل ينتظـر اللحظـة الأخـيرة للانفجـار، الـذى يجـهر بـهذا العـداء! غـير مدركيـن بـالطبع أن هنـاك حبـا مكينـا جمـع شـمل الأبويـن ولـم يفـتر أبـدا. وأن تقـاليد المجتمـع التـى لا تسـمح للـهوى مـهما كـان بيـن الزوجيـن .. بـالإعلان عـن نفسـه بجـانب خجـل أمـهاتنا .. وكذلـك جـهل الصغـار بأعمـاق مـا يـدور حولـهم. فلـم يـدرك الأبنـاء حقيقـة مـا تكـن الأم لـلأب، إلا عندمـا اختطـف القـدر محمـد السـباعى مـن بينـهم. فلـم يكـن مـا يجـرى فـى البيـت مجـرد إعـلان حـداد أو مظـاهر حـزن، بـل لوعـة تـهز أعمـاق الزوجـة والحبيبـة علـى مـن فقـدت. فقلـب السـجاجيد والصـور المعلقـة، وتحويـل اللـون الأبيـض حتـى فـى البياضـات ومـلاءات

السرير إلى الأسود بصبغها، وغير ذلك من ألوان التعبير عن الأسى .. كان لا يقارن ببكاء أمهم الصامت كلما جاء ذكر الأب .. لا فى فترة الحداد "الرسمية" أو ما ترسم التقاليد، ولا فى عام الوفاة .. بل ما استمرت بها أنفاس الحياة تتردد .. حوالى ثلاثين سنة - بعده ..

أحدث غياب الأب شرخا لم يلتئم أبدا فى نفس زوجته. وإذا كنا نعرف أنها رغم مضى الزمن وعمل عنصر النسيان والعمر الذى امتد بها بعده أكثر من ربع قرن، كانت تتمثله دائما ولا يغيب عن ذهنها أبدا وتبكى إذا ذكر اسمه أمامها .. فيمكننا أن نتصور حالها فى الأيام الأولى التى أعقبت الوفاة. ونفسها تذهب بددا وتطير شعاعا وهى تحس مع مظاهر العطف التى تحيطها، أن فقد زوجها هو مصيبتها وحدها هى وأولادها قبل كل شىء. وأن عليها مع كل حزنها وخسارتها أن تتماسك سريعا جدا قبل أن يدعوها من حولها إلى هذا التماسك، وتجابه ما تتطلب الكارثة من شخصية حازمة -أعنى أكثر حزما- تمسك بدفة مركب الأسرة حتى لا تغرق، ومسئولية يجب أن تتسع لتقوم بدور الأم والأب أيضا.

ورغم أن الزوجة الشابة كانت هى التى تمسك بمقاليد الأمور داخل الأسرة فى حياة زوجها، وهى التى تحول القروش والجنيهات التى تصل إليها من يد محمد السباعى إلى تغطية كاملة لكل حاجياتهم، وترعى الأولاد وتتابعهم فى صحتهم ومرضهم ومدرستهم واستذكارهم ولهوهم جميعا ..

إلا أنـها أدركـت بوضـوح الفـارق الكبـير بيـن أن تفعـل هــذا وزوجـها حـاضر يمـلأ عليـها حياتـها .. تلتمـس منـه العـون فـى أيـة سـاعة شـدة مستشـعرة الأمـن والملجـأ والاسـتقرار فـى ظلـه، مـهما كـان سـادرا فـى بوهيميـة داخـل أو خـارج البيـت .. وبيـن أن تفعـل ذلـك وقـد خلـت منـه الدنيـا بأسـرها وافتقدتـه إلـى الأبـد، وبـاتت بـلا معيـن مـن أليفـها ورب أسـرتها .. ولعلـها فـى هـذه الأثنـاء أيضـا قـد أدركـت بينـها وبيـن نفسـها ربمـا لأول مـرة .. كـم كـانت تـهواه رغـم أنـه لـم يكـن زوجـا نموذجيـا مـن وجهة نظرها هـى.

ولـم يكـن استنفاد النفـس مـن وهـدة اليـأس أو مغالبـة الآلام التـى تثـور وتغلـى فـى الأعمـاق وتصعـد علـى السـطح مشـكلة الملامـح الآسية، هـى وحدهـا التـى تتطلـب مجاهدة. بـل كـانت هنـاك أيضـا الناحيـة الاقتصاديـة .. وبلفـظ آخـر .. الجـانب المـالى. وصحيـح أن الـزوج الفنـان كـان لا يحفـل بالمـال، ويسـرف فـى تبذيـره إذا جـاء، ولكنـه إذا احتاجـه فـهو يتصـرف .. وكـانت تطمئـن إلـى هـذا. ولكـن الاطمئنـان اليـوم لـم يعـد ممكنـا، خاصـة وأنـه خـرج مـن عملـه الحكومـى بـلا معـاش. ولسـبب آخر أيضـا غـير مـا ذكرنـا قبـلا، وهـو أن قلـة بقائـه فـى الوظيفـة وكـثرة استقالاته، جعلتـه لا يسـتحق معاشـا! ولـم يعـد باقيـا لتسـيير المركـب، إلا القليـل مـن المـال الـذى تملـك، ومـا يجيئها من البلـد -إحـدى قـرى المنصـورة- مـن غـلال. ،

وتحركـت سـريعا، وبـدت أكـثر صرامـة فـالأمر جـد لا هـزل .. ومـا حـك جلـدك مثـل ظفـرك فتـول أنـت جميـع أمـرك .. أو

"اللى إيده فى المية مش زى اللى إيده فى النار" كما كانت تردد.

نعم لقد وقفت العائلة كلها معها: الجد .. والعم .. والخال، ولكن حتى لا نغفل الحقائق أو نتوهم ما ليس له وجود .. فإن وقوف الأسرة لا يعنى كما يمكن أن يذهب الظن، أو كما تخيلت أنا يوما أنها كانت تشارك فى الإنفاق على عائلة محمد السباعى .. زوجه وأولاده لموت ربها المفاجئ وظروفها الخاصة .. ولكن هذا لم يحدث لسببين هامين. الأول، وهو الأهم أن "عيشة المصرى" ذات الأنفة والكبرياء والحب للزوج لم تكن تقبل مجرد التفكير أن يستشعر الآخرون هذا الإحساس وهو الاحتياج بالنسبة لها ولأولادها. بجانب تصميمها، على أن تحافظ على ذكرى محمد السباعى القوى المعتد بنفسه، الذى كان يؤمن بأن الدنيا لا تستأهل التفكير ولا العمل لغد فيها، والذى كثيرا ما ردد .. "الدنيا أحقر من أن نحرك لها ساكنا هى كالطفل الصغير تضحك فنداعبها وتغضب وتصيح فنتركها حتى تذل وتخضع"!

والسبب الثانى ما يستوعبه إدراكها جيدا مع صغر سنها لقسوة الحياة وأن كل إنسان مشغول بنفسه، وأن هذه اللمة لا تلبث أن تنفض. وأن هذه المشاعر المتدفقة كطبائع الأشياء أيضا إلى نهاية سريعة--كما أن حماها الطبيب التاجر المتوسط لا يزال مسئولا عن ابنه، وأن "سلفها" الحريص قد أنجب فهو صاحب بيت، وأن شقيقها هو أيضا لا يعيش

فى سعة.

تنفست السيدة عيشة هذا الواقع بوعى شديد، لأنها فكرت فيه قبل أن يحدث ويموت زوجها بوقت طويل. فقد كانت تحس وكأنها النبوءة الصارمة، أن مثل هذه الحياة التى تعيشها أسرتها الصغيرة لا يمكن أن تستمر بهذا الشكل، الذى يريده محمد السباعى متحررا من كل قيد .. حتى من الاطمئنان إلى غد مستقر بالنسبة إلى الأطفال على الأقل، لذلك اعتمدت على نفسها تماما، أو كما يقول طه السباعى "لقد قامت هذه السيدة الفاضلة بتربية أولادها فى كنفنا كلنا .. ولكنها وحدها كانت المستقلة بتربيتهم".

ولما كان يوسف يعد أصدق أصدقاء الأب من بين أبنائه، خاصة عندما ظهرت على الولد الصغير هواية القراءة ومزاجه الفنى .. وأخذ يتابع كلمات أبيه فى الصحف التى ينشر فيها، ويطالع مقالاته وقصصه ورواياته ومترجماته .. فإن هذا الابن كان أكثر من قاسى أبشع ألوان الحزن بين أشقائه، هذا الإحساس بالفقد الذى عانى منه طوال حياته كما يحدد أدبه، وكما أشارت مثلا رواية "نحن لا نزرع الشوك" التى ظهرت طبعتها الأولى فى عام ١٩٦٨ أى بعد حوالى الأربعين عاما من وفاة محمد السباعى.

ومن الغريب أن البكاء وحده لم يكن هو لغة صغيرنا التى وجد نفسه يستخدمها .. تفريجا معذبا لحزنه وتعبيرا مؤلما لما يضطرب بين جوانحه من عذاب، فتعينه فى

محنته. فقد كان هناك أسلوب آخر مختلف تماما، قام ويا للعجب بنفس المهمة للطائر المذبوح .. وهو الغناء .. نعم .. كان الغناء هو اللغة الأخرى التى عبر بها يوسف عن ألمه، ولم يجد تناقضا فى أن يفعل. كان من المعروف عن يوسف حبه للغناء و"الدندنة"، ليس فى مجال الحد الأدنى وهو مستوى "الحمام" بعيدا عن الأنظار، بل فى كل الأوقات والمناسبات لا فرق بين ساعة الفرح أو الحزن - سيكون الغناء، لا كتابة الأغانى، أحد العناصر التى سيتناولها بعد ذلك كثيرا وباهتمام فى قصصه .. لدرجة أن تعتمد واحدة من أكثر مجموعاته القصصية امتيازا، على هذا العنصر، وهى "أغنيات"! لقد كان يرى دائما، أن الأغانى "ليست أصواتا تصدر من الحناجر وتنبس بها الشفاة، ولا رنينا ينبعث عن الأوتار والمزامير والدفوف، لكنها نشوات القلوب واهتزازات الأرواح .. هى ذوب المشاعر المرهفة والأحاسيس الحارة المتدفقة .. التى تتفق مع البواعث المنغصة والسعيدة". ولذا كان طبيعيا مع نفسه أن يغنى ويدندن .. حزينا متهالكا على نفسه. ولولا أن الأسرة تعرف جيدا مدى الحزن الصادق الذى يعانيه صغيرها لفقد أبيه وتضرب به المثل، فتحاول جاهدة أن تخفف عنه. لظنت به الظنون وشكت فى صدقه ومدى ما يضمر للراحل من مشاعر، ومع ذلك فمثل هذا الأسلوب مهما كانت بواعثه، ليس مقبولا من وجهة نظرها -ولا من وجهة نظر المجتمع- على الإطلاق كما أنه من ناحية أخرى لم يكن يتم بين

جدران أربعة أو على مرأى من أهل الدار وحدهم فحسب، بل أمام الجميع بلا استثناء داخل وخارج المنزل .. بما لا يمكن بالطبع أن يفسر أو يبرر. وهكذا طلبت الأم من ابنها الأوسط أن يكف عن هذا العيب فلكل مقام مقال، ولكن يوسف لم يفعل. "ولم أكف عن الغناء. فقد كنت لا أرى هناك تناقضا بين حزنى وغنائى، بل كنت أشعر أن غنائى قطعة من حزنى .. وأن بينهما توافقا كاملا وانسجاما تاما".

وكان هناك ملمح آخر غير مباشر أيضا لحزن يوسف على أبيه، وهو اهتمامه الزائد أى يوسف بأخيه الأصغر أحمد .. ولعله أراد أن يعوضه قدر ما يستطيع لا عن فقد العزيز الذى غاب، بل الصديق الإنسان الحنون المتحرر الفكر، فهو يهدهده قبل أن ينام -لنذكر أن الفارق بين عمريهما أربع سنوات- ويحكى له الحواديت التى علقت فى ذهنه من جدته أو مما كان يكتب محمد السباعى أو من القصص المقررة عليه فى المدرسة مثل كليلة ودمنة والحمامة المطوقة والفأر جؤذر. وأغلب الظن أن الموقف المباشر لهذا الدور الذى كان يقوم به يوسف، هو دفاعه المستمر عن أحمد خاصة عندما يتعرض لشجار شقيقه الأكبر محمود. هنا يلتزم يوسف بالوقوف فى صف الصغير ظالما كان أو مظلوما!

(٢٤)

وأغلب الظن أن عنصر السرحان المشهور فى تكوين يوسف السباعى، تأصل وجوده بعد وفاة أبيه. ففى حياة الأب لم يكن الابن فى حاجة كبيرة أى أكثر مما يحتاج المراهق الصغير الذى فى سنه مع بعض التجاوز لملكاته الفنية، إلى الإغراق فى عالم التهاويم فى الكثير من ساعات ليله ونهاره أيضاً. فقد كان الأب الفنان يملأ عليه حياته ويسعد هو بقربه ويغبط نفسه أن وهب له القدر أباً أديباً مشهوراً بهذا الشكل .. وصديقاً كبيراً ندر من زملائه أو أصدقائه من أتيح له أن يجد فى الأبوة الصداقة .. خاصة فى ذلك الزمن البعيد الذى كان فيه نموذج الأب المثالى هو الصارم "الكشر" .. صاحب "زغرة" العين التى "تلبش" وضربة الخيزرانة التى توجع، حتى فى ساعات اللهو -بل إنها فى هذه الساعات بالذات- كان الأب محمد السباعى يشغل منها حيزاً ليس بالضئيل .. فسواء كان متواجداً فيها أم لم يكن، كان اللاوعى يعمل حسابه. فإذا لم يساهم السباعى فى لهو أبنائه يشاركهم ألعابهم، فهو يقوم بدور لا يقل أهمية .. وهو الدفاع عن شرعية هذه الألعاب ومغبتها أيضاً.

فزوجه لا تعترف غالباً بحق الأولاد فى أن يشغلوا فراغهم بما يعن لهم من وسائل التسلية، فهى كأم مصرية صميمة -ولا تزال هذه الأم المصرية تعيش بمفاهيمها هذه حتى اللحظة- تجد أن الفراغ إذا كان لابد أن يشغل، فيجب ملؤه فوراً بأيسر السبل .. أن يتابع فيه الأولاد استذكارهم لدروسهم، ولماذا لا يفعلون طوال الأربع وعشرين ساعة؟ "هم وراهم إيه"؟ أو .. أن "يتخمدوا" بلا كلام أو سلام فى سبات عميق! ولذلك كان الموقف الذى تتخذه دائماً ست أم يوسف، هو الوقوف العدائى على طول الخط ضد ما يقوم به الابن من ألعاب. وهنا تكون مشاركة الأب الضرورية و"المصيرية" التى يتوقف عليها عدم الوقوع تحت طائلة عقاب الست الوالدة .. فى التصدى لمفاهيم زوجه .. لا بقصد إقناعها من حيث المبدأ بحق الأولاد فى التسرية عن أنفسهم، فهو يعرف قبل غيره أن لا فائدة ترجى من وراء مثل هذه المحاولة، بل بهدف الحيلولة دون إنزال الإكراه البدنى المختلف الألوان على مرتكبى جريمة اللعب فى أوقات الفراغ!

ولكن عندما غاب الأب وغابت أشياء كثيرة جميلة من حياة ابن الرابعة عشرة .. وجد يوسف نفسه يعيش فى دنيا أخرى كالحة الوجه ضيقة المنافذ سيئة الخلق. ليس هذا فحسب بل وجد نفسه غير مفهوم لغيره، حتى بالنسبة لمن تحبه أشد الحب وهى أمه. ومع أنه كان يعرف فى حياة أبيه، قيمة هذا الأب وأثره فيه، إلا أنه أدرك بوضوح لا مزيد عليه أن معاصرة المرء للأحياء والأشياء تلغى بحكم

وجودها واقترابنا منها .. الكثير من النسب .. ولا توقف أصحابه إلا على السطح أو على مسافات غير بعيدة منه .. أما الأعماق فدونها هذا الاقتراب الشديد بيننا وبين الأحداث أو الشخصيات. وكان يوسف عظيم الإحساس بالكارثة، وبدا له فى بعض الأحيان أن مصابه فيها أكثر من أن لو كان الغائب العزيز هو نفسه .. ومن ناحية أخرى أدرك بيقين أن صفحة حبيبة من حياته قد طويت تماماً ولا سبيل أبداً إلى تعويضها، مهما كانت الحياة تدخر له من أطايبها. وكانت الأيام التالية للوفاة تؤكد له، سواء من خلال من يكن له الحب أو الإعزاز أم من لا يفعل .. بشاعة هذا الحاضر وما يجب عليه أن يقاسيه من ألوان من العذاب لم يكن له بها عهد من قبل. كان كل عصب فيه يبكى، مع أن مآقيه لا تصب، فقد عرف فى نفسه وعرفه من حوله بعد الأيام الأولى من الحادث أنه عصى الدمع. وبدأ .. يسرح طويلاً وأكثر ما ينبغى، وبدأت عادته فى المكوث بالشرفة بعد أن ينام أهله شاردا! بالساعات، مفكراً متطلعاً إلى السماء هائماً فى الفضاء .. تجىء هذه الكلمات بعد ذلك فى بعض قصصه ..

"واستعصى عليه النوم فقام من مضجعه متثاقلاً، واتجه إلى الشرفة وأخذ يتطلع إلى الفضاء الفسيح وملأ بالهواء صدره ثم أخرجه فى زفرة قوية .. علَ الهواء يأخذ معه فى خروجه بعض أحزانَ قلبه". (قصة "مجنون الهوى" - مجموعته الأولى "أطياف" ص١٤٨ - ط١). ويقول فى عمل آخر .. "كانت أحب الأوقات إليه تلك التى كان يخلو فيها إلى

نفسه بعد العشاء .. فيضطجع فى إحدى الشرفات ويمدد ساقيه ويسيح ببصره نحو السماء. كان الفتى يحس فى ذلك الوقت أنه ليس من أهل الأرض .. إذ يحمله خياله الشعرى الرقيق، ويطوف به محلقاً فى سماء المتعة والنعيم".

ولعل الصغير وهو فى وحدته يتأمل الأفق، كان والشفة مطبقة .. يتحدث إلى أبيه ويناجيه أو يبحث عن مكانه فى السماء ويسائل الفضاء الرحب عن مقام محمد السباعى .. وهل يستطيع أن يكتشف مكانه فى عالم النجوم والكواكب اللانهائى. ولاشك أن طول معاناة الصغير لهذه العواطف والأفكار، هى التى حفرت فى أعماقه هذا الرنو الشديد إلى عالم السماء وإلى إقامة العلاقات بين الحى والميت وإلى الحوار بينهما. وإلى التأكيد بأن انتقال الإنسان إلى العالم الآخر، ليس فناء أو إنهاء لوجوده أو لصلته بين الناس. ولهذا عندما استطاع أن يمسك القلم بعد ذلك ويصبح أديباً ويكتب القصة، كانت هذه المعايشة الجديدة القديمة التى لم تفتر، على طرف تناوله.

فى قصته "إذا السماء انشقت" يكون هم أحمد الطفل الصغير الذى توفيت أمه بائعة الفول النابت فى حى "عشش الماوردى" منذ أيام، وتركته وحيداً فى الدنيا للهم والاعتماد على نفسه للحصول على لقمة العيش .. هو التوفيق بين ما يقال عن موتها وبين صعودها إلى السماء، كما أشارت والدته نفسها قبل أن تخمد فيها الأنفاس.

وإذ يسـأل الصغـير جارتـها بهانـة:

- أيـن أمـى؟

- ذهبت إلـى "التربـة".

- ومتـى تعود مـن "التربـة"؟ ولـم ذهبـت؟

- ذهبـت لأنـها مـاتت .. أمـا عـن عودتـها .. فـلا أظنـها ستعود أبـداً .. إن المـوت لا يعيـد أحـداً ..

"المـوت .. إنـه لاشـك مشكلة عسـيرة! أصعـب كثـيراً ممـا كـان يظـن .. لشـد مـا خدعـه المـوت .. كيـف يذهـب بأمـه إلـى "التربـة"ولا يعيدهـا أبـداً .. ولكـن مـن يـدرى .. ربمـا يكـون هـو الـذى ذهـب بـها إلـى السـماء .. ولكـن العجـوز الحمقـاء ظنـت أنـه ذهـب بـها إلـى التربـة، أجـل .. أجـل .. لقـد حـل العقـدة وفـهم اللغـز، إن أمـه لا شـك قـد ذهبـت إلـى السـماء كمـا قـالت لـه .. لقـد ذهـب بـها المـوت .. ليتـه يذهـب بـه هـو الآخـر، ولكنـه لـن يرضـى .. فلقـد قـالت لـه أمـه إنـه مـازال عليـه أن يـؤدى دوره فـى دنيـا التعاسـة والشـقاء والعـوز والحرمـان .. فلينتظـر إذن حتـى يـؤدى دوره".

ولكـن معانـاة الصغـير فـى الحيـاة القاسـية وعـدم شـعور أو اهتمـام أحـد بـه، يضطـره إلـى عـدم الانتظـار، ويفكـر أحمـد فـى أن يقـترب مـن السـماء التـى ذهبـت إليـها أمـه، وليـس هنـاك وسـيلة مناسـبة لذلـك فـى تصـوره وهـو ابـن حـى المـاوردى فـى السـيدة زينـب -نفـس مرتـع طفولـة يوسـف السـباعى- مـن صعـوده أعلـى بنـاء فـى المنطقـة كلـها وهـو مدخنـة "وابـور الرمـالى" العاليـة. أسـرع يرتقـى سـلمها فـى غفلـة مـن الخفـير،

ورغم برودة الجو وضعفه هو وجوعه، إلا أنه استمر صاعدا على هذه الدرجات الحديدية الضيقة التى تبدو أنها ممتدة فى جوف السماء .. فالهدف يستأهل التضحية حقا .. "بضع درجات أخرى ويصير فى السماء .. من يدرى؟ قد يستطيع وقتذاك أن يسمع تسبيح الملائكة وترنيمهم بل قد تمتد إليه يد الله فتحمله إلى أعلى فيسير متجولا فى شوارع السماء الذهبية التى لا حر فيها ولا قر، المليئة بالأطعمة والفاكهة .. وسيلتقى بأمه التى طال شوقه إليها .. وسيرى أباه الذى لا يستطيع أن يتذكر شكله .. إنه لاشك سيحمله بين يديه وسيعطيه نقودا كما يفعل كل الآباء مع أبنائهم.

"وتحامل الصبى على نفسه وعاود الصعود .. وكان صعوده فى هذه المرة بطيئا متثاقلا .. فقد كانت قواه خائرة وأطرافه مرتجفة والريح فى اشتداد .. وأحس برأسه تدور .. وبغشاوة تعلو بصره .. ونظر إلى أعلى فخيل إليه أنه قد وصل.

"أجل .. لقد وصل أخيرا .. فهذه الضياء التى تشع، وهذه الجبال الذهبية المضيئة القمم، وهذه الأشجار المتكاثفة التى تلوح من بعيد .. لابد وأن تكون الجنة نفسها. ووقف الصبى يلهث .. مبهور الأنفاس، لقد أضحى الآن بين السماء والأرض. وعاود الصعود ينقل قدميه ويديه كأنها من فرط التصلب والإنهاك لم تصبح منه ..' بل وكأنها أطراف إنسان آخر .. بل كأنه هو نفسه ليس هو.

"وأخيراً أعياه الجهد وجمدت أطرافه .. وخيل إليه أنه لن يستطيع الحراك .. أنه فى حاجة إلى من يعينه .. لقد أنبأته أمه أنه إذا صعد السلم فستهبط للقائه .. ترى أين هى؟ وأحس الصبى بالبكاء يخنقه .. وصاح يستنجد فى صوت مبحوح "آم" .. "آبا" .. وحملت إليه الريح صوتاً حنوناً يهتف به "أنى آتية". وسرت فى جسده قشعريرة، لقد كان الصوت صوت أمه .. لقد أحسست به أخيراً .. وهى لاشك قادمة إليه .. إنه كان يحس أنها لاشك آتية .. فما خذلته قط فى الأرض .. ولا فى السماء.

"واندفع الصبى فى نوبة من البكاء .. وأحس بأطرافه تتراخى، وبأنه لم يعد يقوى على التماسك .. وأنه يوشك أن يهوى .. وبعد لحظة .. أحس بأن أصابعه قد أفلتت السلم وأنه هوى قليلاً .. فصرخ صرخة مدوية صائحاً: "آم .. الحقينى يام". وهنا انشقت السماء، وهبط منه سلم ذهبى قد تعلقت به الأم بطرفه ومدت يدها فجذبت الصبى بعد أن أفلتت أصابعه سلم المدخنة وناولته لرجل قد وقف فى أعلى السلم الذهبى .. فاحتضنه بين ذراعيه وأخذ يتسلق به السلم والمرأة وراءه.

"وأحس الصبى بالدفء والراحة .. إن الرجل لاشك أبوه .. لشد ما طال شوقه إليه وإلى حمايته واستمر الثلاثة فى الصعود على السلم الذهبى واحتوتهم أضواء السماء .. ووصل إلى أذن الصبى صوت موسيقا عذبة ناعمة .. وأحس بهدوء جميل .. لم يحس به فى الأرض قط، وهتف بأبيه

وأمه .. ما أجمل السماء وما أقبح الأرض!"

هذه بصمة تجسد جانبا من المسار الذى كانت تتجه إليه مشاعر صبينا فى جلساته التى ينفرد بنفسه وتأملاته الخاصة، وهو يحاول أن يبحث فى السماء الواسعة ما أمكن عن البقاع العلوية التى تصعد إليها الأرواح ومنها روح أبيه ليتبادل معها الحديث الشجى. وبصمة ثانية تعكس جانبا آخر من اتجاه تلميذ السنة الثانية ثانوى الذى أفقده الموت ملاذه الأول وهو يناجيه، ويتبلور فيها عدم انفصال العالم الآخر عن الدنيا .. فالرحيل عن الحياة الفانية لا يفقد صاحبها أواصر الصلة بينه وبين الأحياء، وبين هؤلاء ومبادلة الميت الحوار المهموس أو المرتفع. فى قصة "حديث على قبر" - مجموعة "من العالم المجهول" يزور البطل صاحبه الميت فى قبره، عملا بالاتفاق بينهما والثانى على قيد الحياة، على ألا يقعدهما الردى عن الالتقاء مرة فى العام، يقص الحى على صاحبه المتوفى أخباره الخاصة وأنباء الوطن العامة أيضا!

ولم يكن تأمل عامل الموت يسوق فحسب إلى إشباع رغبات حبيسة، بل دعا كذلك مع استمرار الصحبة إلى استئناسه ووضعه وسط مفاهيم المجتمع السائدة المشوهة، فى مكانها الصحيح من حلقة خلق الإنسان. مما جعل صاحب هذه التأملات عندما يملك قدرة على البيان، أن يتحول إبداعه فى تناول الموت إلى استيعاب جديد فى هذا المجال يتميز به الأدب المصرى الحديث، ولم يعرف فيه

قبل أن يفعل يوسف السباعي. كما تجسد فى الكثير من أعماله خاصة روايته "السقا مات"، نعم إلى هذه الدرجة كان عمق وهوية هذا السرحان.

ولم يكن التأمل وقتها مجرداً، أى ما يشكل انقطاع صاحبها عما حوله مستغرقاً فى عوالمه البعيدة المتداخلة، بل كان بضغوطه يدفع ابن الرابعة عشرة إلى أن يسطر ما يشغله فى مذكرات يومية ملأ منها عدة كشاكيل اتخذت شكل الخواطر فى البداية، ثم بدأت تنتفض فى أسلوب قصصى ثم فى شكل أقاصيص قصيرة.

وتمر الأيام والشاب الصغير مضعضع الحواس، تحاول الأم وهى تبكى "كأن عينيها صنبوران تالفان" -كما يصف يوسف السباعى يوماً- أن تجعله يتماسك وتنبسط أساريره فيعدها، ولكن من أين له هذا .. "لقد تجمد التجهم والحزن فى ملامحه بحيث استقرت قسماته فى وضعها الحزين بطريقة طبيعية لا جهد فيها ولا تكلف .. إن إحساساً بالحزن يرسب فى باطنه .. كجزء من كيانه .. يسرى مع كل فكرة تدور فى ذهنه .. أو رغبة تنبض بها مشاعره .. أو أمل يراود نفسه، بات الحزن إحساساً طبيعياً له هو الأصل فى قلبه وكل إحساس سواه طارئ غريب ..

"عندما نجد أنفسنا فجأة عاجزين عن أن نرى .. أوثق الناس صلة بنا .. وأقربهم إلى قلوبنا .. عاجزين أن نراهم الآن .. وغداً .. وبعد غد .. وفى الشهر القادم .. والعام

القادم .. عاجزين عن أن نراهم .. أبدا .. شىء مرير .. يصعب قبوله".

لقد فقدت كل الأشياء طعمها .. ويحيط به الشرود.

وتمضى الأشهر سراعا .. ويرسب يوسف فى السنة الثانية الثانوية، ويعيد السنة .. وتضطر الأسرة إلى الانتقال إلى شبرا وتترك جنينة ناميش والسيدة، لتكون قريبة من العم طه السباعى الذى يستطيع أن يحصل لأبناء أخيه على معاش استثنائى من الدولة قدره اثنا عشرة جنيهاً. وبعد قليل تشترى الست أم يوسف قطعة أرض تبنى عليها طابقاً واحداً تسكن فيه مع أولادها، ويكون يوسف قد التحق مع أخيه الأكبر محمود بمدرسة شبرا الثانوية .. ويعود فى الظاهر إلى حياته الطبيعية رويداً رويداً .. ولكن أعماقه كانت مليئة بالأسى والشجن.

ولاشك أن الصغار كانوا اكثر ضيقاً .. خاصة فى العامين الأولين .. نال يوسف بالطبع نصيبه من هذا الضيق والتضييق، وربما الأكبر حسب وقعه عليه وعلى إحساسه المرهف، وزاول هموماً معيشية لم يألفها من قبل، وتربصت به فى هذه الأيام من صباه .. أشباح مخيفة أنكى من تلك التى كانوا يفزعونه بها فى طفولته. وتختلف عنها فى أنها حقيقية مائة فى المائة لا يدخلها الشك من بين يديها أو من خلفها .. وأنها أيضاً لا تقتصر على توقيت دون آخر. فهى ليست مثل البعبع أو "العفاريت" أو الجن التى تظهر فى

الليل أو الظلام فقط، بل هى تتجسد فى كل وقت .. فى النهار والليل معاً، والأول بالذات لأنها تحب أن تبدو للعيان فى كامل جبروتها وعز الضوء.

وكان أول هذه الأشباح ما نجم عن ضآلة المصروف اليومى، الذى يضطر صاحبها إلى استخدام قدميه أكثر مما يستعين بوسائل المواصلات العادية من عربة سوارس وترام وقطار .. مهما كانت المشاوير بعيدة. وهكذا. عرف صاحبنا أن المشى يمكن أن يكون عذاباً، وخاصة لمثله الكثير الانطواء الأميل إلى البقاء فى الدار.

وكان الأفزع من هذا ألا يدع نفسه تنجذب إلى ما يبيعه كانتين المدرسة من أشياء، تأتى على المصروف كله الذى يستوعب الصرف على أكثر من حاجة. فقد استطاع أن يمتلك منذ وقت طويل إرادة قوية تقيه كثيراً هذه الانزلاقات أو ما تدفع إليه النفس من رغبات. وكان أخطر ما فى ذلك أن يتعرض لدعوة من زميل إلى تناول شىء من الكانتين أو غير الكانتين من طعام أو شراب. ولم يكن لهذا الأمر كما يمكن أن يتبادر إلى الذهن صلة بانطوائية يوسف وبعده عن الصلات الاجتماعية، أو لأنه موسوس من ناحية الأطعمة أو الأشربة التى تباع خارج المنزل .. بل العكس، كان راغباً فى أن يتبادل مع زملائه هذه "التحيات". و لكنه لما كان يرفض أن يدعى ولا يدعو، أو يهدى إليه ولا يهدى .. ولما كانت العين بصيرة واليد قصيرة فى نفس الوقت، فقد جاء رفضه بإصرار غريب على عدم استجابته إلى حد الجفاف لأن

"يتفضل" .. بعكس أخيه الأكبر محمود الذى لم يكن "يدقق" كثيرا فى هذا الجانب ولا يحمل مثل هذه الحساسية لهذه الأشياء "التافهة". وجاء سلوك يوسف هذا غير مفهوم بالنسبة إلى المدرسة، وقد تحمل صاحبنا مفاهيم زملائه الخاطئة ولم يفصح.

وكان هناك أيضا ما هو الأكثر مدعاة للفزع، أن يسأله بعض الزملاء الذين يقطنون وسط البلد عن سكنه، وعندما يعرفون أنه فى شبرا -كان أغلبها يبدو منذ سبعين سنة أشبه بضاحية نائية راقية للقاهرة- وفى منزل يطل على الحقول .. يسرع الصغار إلى رسم صورة زاهية لسكنه، تكاد تضعه فى مستوى قصور الضيعات فى الريف الأوربى كما تقدمه الروايات التى يطالعون. وليت الأمر يقف عند هذا الحد، فتصورهم ينقلهم إلى دعوة أنفسهم إلى زيارته والاستمتاع بمباهج الريف التقليدية. ولدهشتهم كان هو الذى يتجاهل دائما التعقيب.

يصور السباعى ما كان يعتوره من إحساس وهو بين نارين هذين، عندما قدم هذه اللقطة فى إحدى رواياته: كان يصمت عندما يتحدث الرفاق عن بيوتهم وذويهم .. ويطبق هو شفتيه عندما يجد أن المقارنة مخجلة مروعة. وكانت نفسه تدفعه إلى الفرارة، عندما يسأله الصبية أين يسكن، فيقول فى ضاحية كذا، فيقولون إنهم سيحضرون إليه لمشاهدة الريف، ولركوب الخيل، وصيد السمك والعصافير، وتناول الغداء .. الحمقى .. المخابيل .. من يظنونه .. أى

خيل؟ وأى سمك وعصافير؟ وأى غذاء .. ويفر منهم، وهل يملك إلا الفرار أو الفضيحة"!

وإذا كانت هذه الآلام يمكن مواجهتها بشكل أو بآخر أو تجاهلها أصلا و"الأخذ عليها"، فهناك شبح استعصى عن الترويض .. فأرقه فى ليله ونهاره ولم يستطع له دفعا أو تحايلا أو تخفيفا، وهو الرقع! .. الرقع التى توضع على الأماكن المهترئة من الملابس وخاصة البنطلون. فى البداية وفى حياة أبيه كان لا يخاف أن تتعرض بعض المواضع من ثيابه للبلى، فهو يعرف أن هناك رجلا وظيفته "رفا" يصلح ما أفسده الدهر من الثياب، بإتقان لا مزيد عليه بحيث يخفى بصمات أصابعه على أصحاب الملابس أنفسهم. ولهذا كان عدم فهمه أكثر من صدمته، عندما فوجئ لأول مرة بالرقعة التى وضعتها أمه على أحد ثيابه. لم يفهم الباعث الذى دفعها إلى هذا العمل .. أولا لأن أمه لا تفهم بالتأكيد فى الرفى، وثانيا لأن الذين يقومون بعمل الـ"رفا" لم يموتوا بعد. زيادة إلى أنه لم يتحول إلى مجذوب من مجاذيب السيدة، الذين يعرفهم جيدا، ولم يفكر فى أن يفعل حتى يتزيى بزيهم .. فلماذا إذن يحدث الترقيع؟ وعندما أجابت الأم على استفساره الصارخ بأن "ما معناش فلوس" أدرك مدى إحاطة الضائقة المالية به وبأسرته. ومدى الألم الذى عليه أن يرزخ تحته حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .. خاصة وأن القدر لم يتح لوالدته أن تبلغ أصابعها مهارة الرفا، فتضطر إلى الرقعة.

(٢٥)

ولاشك أننا فى حاجة إلى أن نلقى نظرة إلى هذه البقاع التى كانت تشكل عالم الصغير إذ ذاك وهو يتحرك فى أرجائها. ولن نجد بالطبع خيرا من صبينا نفسه يقودنا إلى هذه الأماكن التى تغيرت معالمها .. فلندعه إذن يصحبنا ونحن نجتاز هذا الدهليز الذى كان يمر به من بيته فى طريقه إلى المدرسة، والموصل بين شارع روض الفرج وشارع طوسون المؤدى إلى مدرسة شبرا الثانوية. يحدثنا السباعى عن دهليز طوسون .. إنه كان ممرا ضيقا لا يزيد اتساعه على مترين يخترق المزارع، ويقوم على أحد جانبيه سور شائك من أشجار الفتنة وغيرها من الشجيرات الشائكة المتكاثفة المتربة المليئة بالزواحف والحشرات. ويكون هذه السور هو الحد الشرقى لحدائق المانجو المحيطة بمدرسة شبرا، والتى كانت فيما مضى سراى الأمير عمر طوسون -لنذكر الإشارة إلى ذلك فى نشيد مدرسة شبرا الثانوية الذى كتبه السباعى. أما الجانب الآخر من الدهليز فتمتد بجواره مزارع القصب والخبيزة والسلق .. ويصور يوسف السباعى كما فعل وهو يعرض لهذه الذكريات القديمة أحد معالم هذا المكان وهو ساقية .. نعم فقد كانت

هـذه البقعـة فـى ذلـك الحيـن فضـاء وحقـولا، وليسـت أكـثر الأحيـاء ازدحامـا فـى مدينـة القـاهرة كمـا هـى اليـوم. وكـان موقـع هـذه السـاقية فـى نهايـة الدهلـيز وقبـل أن يلـف المـرء علـى يمينـه فـى الطريـق المـؤدى إلـى المدرسـة عبر الشـارع فـى الجـانب الأخـير مـن الطريـق، وكـانت هـذه السـاقية التـى تمثـل عـالم الفلاحيـن والقريـة، شـيئا طريفـا بالنسـبة إلـى الصغـار سـكان المدينـة مثـل صبينـا. ولذلـك كـانوا يقفـون إزاءهـا يتسـلون بمشـاهدتها، ويقذفـون الحجـارة فـى البـئر الـذى ترفـع منـه الميـاه حتـى ينـهرهم صاحبـها القـروى مـن داخـل كوخـه المجـاور للسـاقية ناعتـا إيـاهم بـأولاد الحـرام .. ويكـون هـذا إيذانـا بانتـهاء التسـلية، فيعـدون إلـى البوابـة الكبـيرة المفضيـة إلى طريـق المدرسـة!

ولـم يتغـير عالمـه المدرسـى فـى شـبرا عنـه فـى السـيدة .. فـهو كـاره للمدرسـة، يرنـو إلـى أن يخلـص منـها بيـن يـوم وليلـة .. ولكـن أنـى لـه ذلـك .. "كنـت مثـالا للطـالب العـادى الـذى لا يمـيزه شـىء .. لا ذكـاء ولا غبـاء .. ولا قبـح ولا وسـامة .. ولا خفـة ولا ثقـل .. لا شـىء أبـدا .. كـأننى المـاء .. لا لـون ولا طعـم ولا رائحـة .. كنـت شـخصا غـير مميـز ولا محسـوس .. أحـس بـأننى ضـائع فيمـن حولـى كـأننى حبـة فـى أردب مـن قمـح" .. ويعتمـد يوسـف السـباعى علـى هـذا التكويـن .. تكويـن شـخصية الإنسـان العـادى ليفسـر بـه شـروده! يقـول: كنـت ككـل تلميـذ عـادى .. كثـير السـرحان فـى الـدرس .. كارهـا للاسـتذكار فـى البيـت!

وإذا كانت حصص اليوم الدراسى كلها "كوم" فإن آخرتها "كوم" ثان! فهذه الحصة التى تعد أحب الساعات إلى التلاميذ، والتى تأذن بانتهاء اليوم الدراسى الثقيل يبدو الزمن فيها يسير بمعدل أسرع، ويقسر الفصل نفسه على أن يفهم ما يلقى إليه أو يدعى الفهم. ويستشعر التلميذ التخفف من جفاف الدرس، وتأخذ قيود المدرسة فى التحلل .. وتقترب الدنيا الخارجية .. ويبدو الطريق أو البيت فى متناول اليد وليس بعيدا بعيدا فى آخر الدنيا. ويبدأ الاندماج فى عالم ما بعد الخروج، ومناقشة آخر تفاصيل المشروعات والأعمال التى خطط لها الصبيان منذ الصباح الباكر .. فهى قاب قوسين أو أدنى من التحقيق. فمجرد إشارة البدء وهى الجرس الأخير، يكون الانطلاق. ومنذ وقت مبكر فى هذه الحصة، يكون كل تلميذ قد أعد كتبه ووضعها بجواره على المقعد، حتى إذا ما دق الجرس أسرع بخطفها ولا يضيع دقيقة واحدة فى فتح الدرج وغلقه والبقاء لحظة ثانية فى الفصل بعد أن يقرع الجرس.

ويضرب الجرس وتنتهى الحصة الأخيرة، وينطلق التلاميذ كالإعصار، وتهب المدرسة كلها .. "فى هرج وطنين كأنها خلية نحل .. ويتكأكأ الصبية على الباب يتسابقون إلى الخروج كأن بداخل المدرسة من يسوقهم بالسياط، أو كأنما ينتظرهم خارجها كنز أو وليمة".

ويتنفس يوسف الصعداء، لقد تخلص من يوم دراسى آخر "وعقبال الباقين"! ولا يختلف سيره بعد الظهر عن

الصباح، فهو كالعادة يطوح بحقيبته فى يده .. "ويقذف بقدمه كل حصاة أو حجر يصادفه، حتى بدا طرف حذائه من فرط اصطدامه بالحجارة حائل اللون أجرب" .. والاختلاف الوحيد فى شكله، هو وضع طربوشه. إنه لم يعد فى وضع الزاوية القائمة .. بل المنفرجة إذ يجعله ينزلق على مؤخرة رأسه مظهرا "قصته" أو مقدمة شعره!

ولا يعنى هذا أن شبرا الثانوية لم تكن منذ البداية تحمل ما يحبب إليها الوافد الجديد أو الطالب الحزين كما سمته المدرسة، فهناك مدرس يحبه صبينا فيها لأنه كان بعيدا عن "طينة" المدرسين العادية. لا يفرض هذا الحب وداعة نفس أو طيبة قلب فحسب، بل روح فنان وذهن شارد .. قربته كثيرا من يوسف الذى يستوعب فى نفسه ذات العناصر. "كنا نحبه جميعا بلا استثناء .. وكيف لا نحب مدرسا لا نكاد نحس وجوده ولا يكاد هو يحس وجودنا رغم ذلك الضجيج الذى كنا نحدثه فيوقظ أهل الكهف!" ولم يكن تكوين متولى أفندى عبد الرحيم مدرس الرسم الداخلى، هو الذى يعكس فقط تركيبه الفنى، بل كانت ملامحه الخارجية أيضا تشارك فى إعطاء هذا الانطباع، فقد كان الرجل يتميز ببذلة أسموكن سوداء وياقة منشاة ذات أطراف مثنية يخرج منها عنقه المعروق الرفيع يحمل فى نهايته رأسا صغيرا ذا شعر أشعث، وقد أسند منظاره السميك على أرنبة أنفه.

وسبب خاص أيضا كان يحبب يوسف فى مدرسه، وهو

رعاية الثانى له .. زيادة على أنه كان يعتبر حصصه "أوقاتا للترفيه والتسلية"، يخفف عنه عناء بقية حصص اليوم، وهذا كله جعل متولى أفندى عبد الرحيم كما يقول عنه تلميذه "ليس بصاحب كفاءة ظاهرة فى مهنة التدريس، وهى مهنة تحتاج قبل كل شىء إلى "قرداتى" يعرف كيف يعامل هؤلاء "القرود" الذين يسمونهم "التلاميذ" .. لقد كان الرجل فنانا أكثر منه أى شىء آخر".

(٢٦)

وكان هناك شيء يعربد تحت السطح الهادئ في أعماق الصغير الثائرة، وهو إحساسه بعدم التميز .. قرين التكوين العادي. ولعله مهموما ساءل نفسه، إذا انفرد بها بعيدا عن الناس، ألا يحمل شيئا ذا قيمة يجعله يعدل أو يلغي شعوره بأنه "نكرة" أو ما أشبه، لا يلحظه أحد .. رغم أنه من ناحية أخرى يود لخجله ألا يلحظه أحد! وبالطبع لم يكن هذا النقاش يدور بينه وبين نفسه بشكل مجرد أو في هدوء بل كان الغليان النفسي إطاره. ومن رد فعله العنيف، بحث صاحبنا يوما عن أي شيء يميزه حتى لو كان سيئا. ومن الطريف أنه لم يجده أيضا .. فقد كان عاديا حتى في هذا الجانب، يقول في إحدى قصصه عن صبي يماثله تكوينا، ولا نظنه إلا هو: وحتى في الشر أو في الخيبة لم أستطع أن أكون مميزا .. فلم تكن لي القدرة على أن أكون من النوع الشقي الشرير الذي يشتهر بكثرة معاركه مع المدرسين .. والذي يخشاه الجميع، لأنني كنت أميل إلى الاستسلام والاستكانة، ولم أستطع كذلك أن أكون شهيرا بالغباء والخيبة، فقد كان القدر البسيط العادي الذي أتمتع به من الذكاء يقف حجر عثرة في ذلك السبيل".

وأخذ السرحان بيده فى عملية إنقاذ وهمية، ففى أحلام اليقظة الملاذ .. وكان أحد هذه العوامل التى تتيح للصبى أن يرتفع بنفسه .. المظاهرات. صحيح أنه شارك فيها يوما، لكنه أصبح يكرهها لما تلجأ إليه من شجار، وتحطيم الترام وقيام المعارك بين الطلبة والبوليس .. وهذه كلها أشياء شريرة. ومع ذلك كانت هذه المظاهرات فى شروده تنقذه من واقعه المر وترفعه إلى أعلى عليين. فهذه المظاهرات الخيالية تتيح له أن يشارك فيها .. لا فردا عاديا فى وسطها .. بل قائدا لها .. فى مقدمتها. يصور بعد ذلك مسيرة أحلامه فيكتب ..

"الطلبة متجمهرون فى فناء المدرسة .. يريدون الخروج فى مظاهرة. والناظر قد أمر بإغلاق الباب .. وأنا واقف بين مئات الطلبة فى ركن الفناء مسكين غلبان .. أرقب ضجيجهم وهتافهم .. وأنتظر النتيجة وأنا لا أملك إلا الرضوخ لما سيحدث، متطلعا بعينى تارة إلى زعماء الطلبة الذين ارتقوا بعض الأشجار وأخذوا يخطبون فى حماس .. وتارة إلى حجرة الناظر، وتارة إلى حجرة البواب، وتارة إلى البوابة الضخمة المغلقة". هذا هو الواقع، فماذا من أمر السرحان .. لنعتمد أيضا فى هذا المقابل على كلمات السباعى نفسه .. "أنا المسكين الغلبان .. قد صحت فى الطلبة بصوت جهورى آمرهم أن يكفوا عن الضجيج وينصتوا إلى .. وأعتلى أقرب شجرة ثم أبدا فى الخطابة. وحدث عن خطابتى ولا حرج .. أين منى سحبان وسعد

زغلول لقد فعلت خطابتى فى الطلبة فعل الشرر فى الوقود، وهبطت من على الشجرة واحتضنتها بذراعى وهززتها بضع هزات واقتلعتها من الأرض ثم تقدمت بها إلى الباب الضخم فدفعته بها دفعة قوية تهاوى أمامها وتدفق الطلبة حولى مندفعين إلى الخارج وقد حملونى على أعناقهم!"

وإذا كانت المظاهرة فى شروده أرادت أن تخرجه من عدم قدرته على مواجهة الجماهير أو "ترويضها" والنفاذ إلى روحها والتأثير عليها واحتوائها، فإن الواقع حاول ذلك أيضا عندما عرض عليه أن يصبح ممثلاً فى فريق المدرسة!

لقد كان خجله يجعله بالطبع غير وطيد الصلة بالمسرح، ولا يفكر أبدا مثلا فى اعتلاء خشبة المسرح .. المدرسى أو غير المدرسى، كما يفعل زملاؤه. ولكن عاملا مساعدا شارك فى هذا الدفع وهو صديق الطفولة أحمد مختار قطب التلميذ فى نفس الفصل، إذا كان له رأى آخر .. فقد وجد فيه وجها مسرحيا أصيلا. وكان قطب يقوم فى ذلك الحين بدور مكتشف المواهب فى مدرسة شبرا الثانوية، يعطيه هذه المسئولية الشرعية قبل أى شىء آخر .. رئاسته لفريق التمثيل .. فهو بذلك أحق الناس من وجهة نظره بالطبع، بمعرفة الطيب والخبث نعنى الموهوب والمدعى فى هذا الحقل الفنى.

ولما كان قطب منذ البداية يعرف فى صديقه كراهيته أو عدم استعداده لكل ما يجعله وهو الحيى الانطوائى محط

الأنظار، فلم يكن واثقا من النتيجة وهو يدعوه إلى الالتحاق بفريق التمثيل. ولكن جد من الأحداث ما دعاه إلى أن يبذل كل جهوده لإقناعه. تطلع قطب وكان فى فريق الهوكى -الذى يضم يوسف أيضا- إلى رئاسة هذا الفريق كذلك. واستطاع بعد المحاورة والمناورة والاتصال بالمسئولين فى المدرسة، وتكوين رأى عام تلاميذى يقف معه ويؤيده، ويرى فيه ممثل العناية الإلهية لإنقاذ لعبة الهوكى بشبرا الثانوية .. أن يصل إلى هدفه، ويصبح رئيسا للفريق .. وبالطبع كان لصديقه السباعى الذى أصبح أيضا نائبا للرئيس، دور غير صغير فى حملة التأييد هذه .. إذ كان ساعده الأيمن، فعول قطب على مكافأته. فماذا يفعل؟ هداه تفكيره إلى أن يجعله أحد النجوم الأول فى عالم الأضواء والشهرة .. أى فى فريق التمثيل! وليستفيد من ناحية أخرى بمشاركة ساعده الأيمن له دائما .. وعرض عليه الفكرة ملحا. وفى البداية ما كاد يوسف يسمعها حتى رفض فى الحال حتى مناقشتها وكأنها دعوة إلى الانتحار، ثم اضطر إلى مناقشتها .. "وأنت مش غريب يا قطب .. ما أنت عارف أننى ما أقدرش أتكلم مع حد غريب، فاشحال بقى أواجه الجمهور والمتفرجين .. لا .. يفتح الله". ولكن قطب الذى تأكد بما لا يقبل مجالا للشك أهمية يوسف له، زيادة على ما تضفيه رفقته من متعة لم يوافق. وأصر على إدخال صديقه فريق التمثل، وأخذ يقنعه بدل المرة مرات .. حتى بدا الأمر ليوسف أنه ليس بالخطورة التى يتوهم،

وأنها ليست مسألة شنق وإنما هى شىء عادى جدا لا يحتاج إلى أكثر من إغفال أن هناك عيونا تراقب وتعد الأنفاس .. بالإندماج التام فى الدور المؤدى. فهل هو أقل من غيره؟ أبدا .. مستحيل. وهكذا لان يوسف للفكرة .. وأخذ يعد نفسه للالتحاق بالفريق.

ولكن يأخذ عمن؟ يتمرن على من؟ من هو الذى يمكن أن يعطيه بعض الخبرة المسرحية ويقوده إلى عالم الفن السحرى المجهول؟ لم يكن هناك كما توحى الأوضاع أعلم بالمسرح وأكثر فهما له بطبيعة الحال من رئيس فريق المسرح ذاته .. أحمد مختار قطب. صحيح كان هناك الممثل الكبير جورج أبيض الذى يمرن التلاميذ، ولكن كيف السبيل إليه .. إلى أستاذ الأساتذة .. أستاذ مختار قطب. وهكذا بدأ السباعى، ولم يأخذ عن صاحبه أخذا مباشرا بل فعل بدون أن يدرى هذا الصاحب .. فهو يلاحظه فى تدريباته وإلقائه ووقفاته وسكناته ومخارج ألفاظه. وكانت القطعة الأثيرة لدى قطب التى يكثر من ترديدها .. كلمات لشكسبير فى مسرحيته "عطيل" يقول فيها البطل المغربى لصديقه: الخائن يا جو: وراء .. وراء .. إليك عنى، لقد مددتنى على خشب التعذيب .. أقسمت أنه خير للإنسان أن يخدع كثيرا من أن يعلم بخديعته قليلا"! ووجد فيها السباعى بعد أن حفظها وقلد فيها صديقه رئيس فريق التمثيل ما استطاع، أنه اقترب كثيرا من الهدف، ولم يبق على اقتناص ثمرات الشهرة والمجد التى لم يفكر فيها قبلا

لغبائه فى دنيا المسرح .. إلا القليل. ويتصور ذهول أستاذ الأساتذة جورج أبيض عندما يقف على اكتشاف موهبته، فتتبدد كل مظاهر قلقه. ويجىء اليوم الموعود، وكانت فرقة المدرسة تؤدى أحد المشاهد فى مسرحية "البخيل" للكاتب الفرنسى جرنجوار، التى يقوم فيها قطب بدور البطل وهو البخيل .. وكان المشهد يصور حادث اكتشاف البخيل ضياع ثروته التى سرقت ويصيح: النجدة النجدة. وقام قطب بدوره خير قيام كما ظن صاحبه السباعى الذى تخيل أن عقود الثناء ستنثال من فم جورج أبيض فوق رأس صديقه العزيز. ولكنه فوجئ بالممثل الأكبر يصرخ فى قطب ساخرا منه ناهرا متهما إياه .. أنه يمثل الدور هو نائم على نفسه، وليس هكذا يكون الفن .. ثم يقترب جورج أبيض من النافذة، وكانت حجرة البروفات تطل على فناء المدرسة، وقام بتمثيل الدور صارخا: النجدة النجدة. ولما كان صوت أبيض كما هو معروف، قويا مجلجلا .. يمكن أن يصل بسهولة إلى سابع جار، فقد هبت المدرسة كلها على صرخته مستجيبة إلى استغاثته، وقد نسيت أن هناك فريقا للتمثيل وأن هناك الممثل الكبير جورج أبيض!

وكان على السباعى بعد هذا الفصل الذى هز ثقته بنفسه وبصديقه رئيس فريق التمثيل معا، أن يدخل بدوره امتحان القبول، ولحظتها لم يسترجع كل مخاوفه القديمة فحسب، بل ضاعف منها إلى درجة سدت عليه الطريق وأفقدته القدرة على النطق، قبل أن يتقدم خطوة ناحية أبيض.

وبدلا من أن يقول "وراء .. وراء ألخ". تراجع هو وراء وراء حتى تسلل من المكان تسللا .. قانعا من الغنيمة بالإياب!

ورغم هذا الإخفاق الأول، فلم تنته قصة السباعى مع المسرح وهو فى المدرسة الثانوية .. وجد مختار قطب أنه من غير المعقول، أن يكون رئيسا لفريق التمثيل ولا يشاركه صاحبه يوسف فى هذا العمل بشكل من الأشكال! ولكن ماذا فى المسرح غير التمثيل الذى هرب منه؟ لم يطل قطب التفكير، وجد أن هناك شيئا اسمه التلقين والملقن، فلماذا لا يكون يوسف ملقن الفرقة؟ واستجاب السباعى إلى إلحاحه، وبدأ يعمل ملقنا .. ولكن "فرحة ما تمت خدها الغراب وطار"! لنترك السباعى يسترجع الذكرى ويقص علينا ما حدث: "وجلست "ممسكا برواية" البخيل" وأخذت أردد الكلمات للممثلين، وبعد لحظة سمعت جورج أبيض يتساءل فى دهشة:

- إيه ده؟

وهز مختار رأسه متسائلا:

- فيه إيه؟

- أنا سامع صوتين .. هو فيه اتنين بيمثلوا؟

وهز مختار رأسه وقال:

- د .. ده الملقن.

- ملقن؟ .. ومال صوته جامد كده ليه .. لا .. لا .. ما ينفعش .. شوف حد تانى .. ده آخر واحد يصلح ملقن"!!

ولـم يكـن هـذا أيضـا آخـر عـهد يوسـف بالمسـرح أيـام صبـاه .. وإذا كـان قـد أخفـق فـى حكايـة التلقيـن، فقـد نجـح فـى عملـه .. مديـرا للمسـرح! فقـد أصـر قطـب مـرة أخـيرة علـى أن يبقـى يوسـف معـه فـى الفريـق مـهما كـان الوضـع. ويعقـب السـباعى ضاحكـا: نجحـت طبعـا .. فقـد كـان كـل مـا علـى، أن أضـع فـى الحجـرة منضـدة وبجوارهـا بضعـة مقـاعد .. لكـى يجـروا عليـها البروفـات!

وإذا كـان أحمـد مختـار قطـب -الـذى أصبـح بعـد ذلـك محاميـا مشـهورا وكاتبـا منـاضلا- قـد رأى فـى الثلاثينيـات مـن القـرن العشـرين أن يوسـف السـباعى يصلـح للتمثيـل .. فلـم يكـن وحـده الـذى ذهـب هـذا الـرأى، فقـد شـاركه فيـه فـى الستينيات أحـد العـاملين فـى الحقـل السـينمائى وهـو المخـرج حسـن الإمـام، عندمـا اختـاره للتمثيـل فـى فيلـم "يوسـف الصديـق"! وفـى هـذه المـرة لـم يفكـر صاحبنـا أبـدا .. إذ رفـض بـإصرار مسـتنكرا الفكـرة .. فلـم ينـس بعـد تجـارب قديمـة!

وأصـاب تلميـذ الخامسـة الثانويـة اليـأس مـن إمكـان خروجـه مـن القوقعـة، ولكـن وقـع حـادث يغـير هـذا كلـه .. إذ يكـون صاحبنـا بطـلا لقصـة حـب مـن جـانب واحـد طبعـا هـو جانبـه. ويسـمع صاحبنـا رأى حبيبتـه الحقيقـى السـيئ فيـه .. إنـه بـلا مـيزة. وتكـون صدمـة مروعـة .. آخـر مخلـوق ينتظـر منـه الإهانـة .. يهينـه وفـى موضـع بـالغ الحساسـية. زاد مـن وقعـها، تعبيرهـا عـن واقـع يكـون صاحبـه أول مـن يؤمـن بـه وبصدقـه.

يكتب تلميذنا بعد ذلك .. "لقد كان هذا أكثر ما حز فى نفسى، وأوجع قلبى، فلا أظن أن هناك ألما للإنسان من أن يسمع شتائم ونقائص، موجودة فيه فعلا، ولا يستطيع أن ينكرها، أى فضل فى .. وأى ميزة بى؟". ويحس بشكل قاس لهفته على من يخفف جراحه. من يرد إليه الثقة بنفسه. وكان يريد أن يستقطب هذه القوى من داخله لا من خارجه، فلعل تكوينه الأميل إلى الانطواء والوحدة، كان يرفض استقبال يد العون لو وجدت من الآخرين. فى هذه اللحظة عرف ربما لأول مرة فى حياته، كيف تكون الحاجة وتمنى ما لا سبيل ساعتها إلى إدراكه، وماذا يعنى تفوق المرء بشىء .. بموهبة تميزه قليلا أو كثيرا عن الغير. وافتقد لحظتها بشكل مأساوى بلورة "موهبته". وأخذ يناقش هذا الموضوع مرة أخرى بزاوية مختلفة تماما عما فعل من قبل .. فيها من الترحيب أكثر ما تحمل من التجاهل والإنكار. وبدأ يشك فى أحكامه السابقة وسخريته بمدرس العربى وبمدرس الرسم. لماذا لا يكون الأمر حقا على شىء من الصدق؟ وإنهما كانا يعنيان فعلا ما ردداه؟ وإنهما يملكان من الخبرة بالحياة ما يتيح لهما اكتشاف البذرة قبل أن تنبت، مالا يملك أو تستطيع سنه المحدودة أن تفعل؟

وسواء أكان هذا عملا بمبدأ "للضرورة أحكام"، أم أن الصدمة التى هزت صبينا الصغير قد أيقظته من سباته أو أوهامه، فقد عول على أن يتمسك بما كان ينكر. "لم يكن يهمنى من قبل أن أكون شيئا، ولا أن أكون ذا ميزة .. وكنت

أبذل بالجهد والمثابرة على شيء لا أريده .. أما الآن فما أشد حاجتى إليه، ليتنى فقط .. أكون ذا موهبة".

ومع آلامه التى تفجرت، تفجرت أيضا مواهبه .. وليس مثل الشعر تعبيرا عن هذه المشاعر التى كانت تضطرم فى أعماقه. وهكذا وجد نفسه يقول الزجل ويكتب القصيد .. "فاضت نفسى المرهفة اللهفى المحرومة بالحنين بسيل فى قصائد ومواويل تذوب رقة وتقطر جوى". وإلى تلك الأيام يرجع مواله الشجى الذى يقول عنه: نظمته فى ساعة سهد فى بهمة الليل. كنت لا أفتأ أردده لنفسى فى لحن حزين وأنا أتقلب على المرقد الجافى .. والموال هو:

يا ساكن القلب طيفك مر فى بالى
وراح وسابنى عليل حبه بقى وبالى
وفؤادى من حر شوقه صار حطام بالى
وهو ساهى وسالى ما افتكر فيه
يئسى عهود الهوى ويهجر ولا يبالى

ولم يكن الجديد فى هذه الكتابة ممارسته لفن الزجل، فقد جرب تلميذنا العاشق قبل ذلك أكثر من مرة قوله .. بينما العكس بالنسبة إلى الشعر. فقد كتبه لأول مرة، وكان عمله الأول فيه نشيد المدرسة الذى لا تزال تهتف به حناجر الطلبة فى كل حل وترحال. يقول السباعى: كانت المرة الأولى التى أحاول أن أقرض فيها الشعر، ولم يكن يخطر لى ببال أن أجلس لأقضى الساعات الطوال مجهدا

ذهنى فى نظم الكلمات ورص القوافى، ولم أكن شاعرا بالفطرة، ولكنها كانت الإرادة، وكان الجلد، وكانت الرغبة فى أن أكون إنسانا ممتازا".

ولعلنا إذ نتوقف قليلا أمام عمله الشعرى الأول، ندهش لموضوعه الوطنى .. لا العاطفى. ولكن الدهشة فى رأينا تزول، إذا تذكرنا رأيه أن الوطنيّات هى قمة الوجدانيات التى تعبر عن تجاوز فناننا الصغير لعاطفته الخاصة.

وتبدأ قصيدته الأولى التى كتبها نشيدا لمدرسته بهذه الكلمات التى لا تحتاج إلى إشارة لعمق مصر فى وجدان الشاب الصغير يوسف السباعى.

يا مصر يا أمتى
يا طيب أرض الوطن
يا مصر نحمى الحمى
من عاديات الزمن
نقدم ولا ننثنى
ولا نذوق المحن
شبرا تنادى بنا
كونوا جميعا يدا
لا نخاف الموت أو نجبن وإن
قلب الدهر لنا ظهر المجن
نقهر الدهر ونسخر بالزمن
وأمام النيل نجثو سجدا

وهـا هـو ذكـر المـوت يتسـلل حتـى إلـى النشـيد الخـاص بمدرسـته الثانويـة، ونفـس الظـلال الحزينـة تتعـرض أيضـا لمقطوعتـه الزجليـة التـى نشـرها فـى نفـس العـدد مـن مجلـة شبرا الثانويـة .. ينـاجى بـها زهـرة ..

يـا زهـرة فوقـك نـدى ميـن بـس بكـاك
بتحبـى لازم يـا زهـرة والدمـع سلـواك
والا دى دمعـة رثـا للعاشـق الباكـى
مـا تـردى يـا زهـرة حـالك فـى البكـا حالـى
بتقولـى دمعـة فـرح اللـه يهنيكـى
أيـوه يـا زهـرة افرحـى واتـهنى بجمـالك
النسـمة بـترق لـك والشـمس ساجدالـك
والكـل عاشـق لكـى والدنيـا أبقالـك
مـا لكيـش غـير الأيـام بـس اللـى حاسداكـى
خـايف قـوى منها لتجـور على حالـك

وانسـابت مشـاعره علـى الـورق يسـود بـها الصفحـات ويسـكب عليـها العـبرات وينفـث فيـها أحزانـه، ونسـتطيع أن نقيس حجـم هـذه التجربـة وهـى تتجـاوز الخـاص إلـى العـام، وتنطلـق مـن مجـرد التعبـير وإشـباع رغبـة تعمـل علـى انفـراج أزمـة، إلـى المشـاركة فـى نشـاط فنـى، ونشـر هـذا الإنتـاج الأدبـى فـى المجـالات الصغـيرة أو الكبـيرة .. أى المجلـة المدرسـية كشـبرا الثانويـة أو المجلـة العامـة كمجلتـى لأحمـد الصـاوى محمـد أو المجلـة الجديـدة لسـلامة موسـى. يقـول يوسـف السـباعى عـن تلـك الأيـام مـن حياتـه .. وأخـذت فـى الكتابـة،

وفى عشية وضحاها كنت قد كتبت معظم ما فى مجلة المدرسة، دون أن أكون فى هيئة تحريرها. حتى جعلتهم أمام أمر واقع واضطروا إلى أن يخلقوا لى منصبا جديدا هو نائب رئيس التحرير .. بعد أن رأونى كل شىء فى المجلة، وانهمكت فى الرسم وملأت لوحاتي جدران المدرسة، واحتلت رسومى لوحة الإعلانات التى يعلن فيها عن المباريات الرياضية .. بعد أن ابتكرت طريقة جديدة فى إخراجها والإعلان عنها. وفى ذلك العام نشرت لى، وأنا تلميذ، أول قصة فى إحدى المجلات الكبرى، ورأيت اسمى يوضع جنبا إلى جنب بجوار كبار الكتاب.

كانت مجلة مدرسة شبرا الثانوية التى اضطلع بالعبء الأكبر فيها يوسف السباعى، علامة كبيرة من علامات طريق حياته .. فهى لم تنتشله قليلا فحسب من عالم أحزانه المنغلق منذ وفاة والده، بل جسدت له إمكانياته الفنية التى يمكن أن يتحرك فى مجالها ويتنفس. ولهذا كان طبيعيا جدا أن تكون الخطوة التالية لتحركات الفنان الصبى، هى أن يراسل المجلات الثقافية باعثا إليها إنتاجه. وهكذا وهو فى البكالوريا أى فى الثانوية العامة سنة ١٩٣٢، أرسل بقصته "تبت يدا أبى لهب" إلى أحمد الصاوى محمد رئيس تحرير مجلة "مجلتى"، كما أرسل بعمل آخر هو "جريمة ملاح" إلى سلامة موسى رئيس تحرير مجلة "المجلة الجديدة" .. وهى نفس قصته التى نشرها قبل ذلك فى مجلة شبرا الثانوية باسم "فوق الأنواء"!. ومن السار أن كل ما أرسل .. نشر!

وإذا كنا قد عرضنا للقصة الثانية فى موضع آخر، فلنقدم "تبت يدا أبى لهب"، التى استوعبتها مجموعته القصصية الأولى "أطياف" عام ١٩٤٧ .. بعد ذلك.

تقع حوادث القصة فى إحدى قرى الواحات، ويقوم الراوى الذى يذهب إلى هناك لقضاء بعض الأعمال، بالحكى. فهو يفاجأ فى أحد زياراته وقد نهض مبكرا لجولة فى البلدة، بالشيخ عبد الباقى الرجل المتدين الذى كان قبلا من قطاع الطرق، يحفر حفرة تتسع لجثة ميت يدفنها فيها. ويشك فيما يرى ويظن بالرجل الظنون، ولكن الأمر لا يلبث أن ينجلى عن شىء آخر عكسى، له صلة بالصبى المسكين الأعمى الذى يرتل القرآن فى المسجد، ويتخذ منه سكنا أيضا. أما بطل القصة وصاحب الجثة فهو، أبو لهب الذى جاء القرية منذ أكثر من خمس عشرة سنة، لا يدرى أحد من أين. جاء فقيرا شحاذا لا يملك مليما أو هكذا ادعى، ولكنه بعد شهر واحد أخذ يقرض الناس بالربا قرضا غير حسن .. فهو يأخذ رهنا أضعاف قيمته .. حتى إذا رددت له ماله، أخذه وأخذ الرهن أيضا!

- وإذ لم يكن للإنسان ما يرهنه؟
- لم يحدث ذلك البتة.
- رجل لا يملك شروى نقير.
- يا سيدى .. المال لا يهم.
- لا يهم .. وما الذى يهمه؟
- زوجته يا سيدى إن كان له زوجة، فإنها تفى -فى

عرف أبى لهب- بالرهن وزيادة .. إن أبا لهب جد متساهل، جد طيب .. تمكث الزوجة طول مدة القرض فى بيت أبى لهب، تقضى حوائجه، حتى إذا رد الدين استلمها زوجها. وإن اشتكى وتبرم، فأبو لهب لن يعطيه بعد ذلك شيئا، ولتحل عليه اللعنة ..

ولم يكن غريبا أن تصبح القرية جميعا مدينة لأبى لهب .. حتى الثرى الشيخ عمر جاد الله! لقد احتاج إلى مال ورهن عنده لآلئ زوجه بدون علمها، وإذا استطاع أن يحصل بعد قليل على مقدار ما اقترض .. ذهب والوقت ليل إلى أبى لهب يرد دينه، ولكن المرابى الذى سحرته المجوهرات بيت فى نفسه أمرا. أخذ من الثرى المال، ولكنه تظاهر أنه أخفى اللآلئ فى مكان أمين خارج داره .. وذهبا معا. ولما مرا بالقرب من البئر، دفع أبو لهب، الرجل فسقط من حالق، واتهم القضاء والقدر بالحادث.

"وجاءت امرأته تصيح، وتولول، ومعها طفلها فى الثامنة من عمره .. وفتح أبو لهب كوخه، وخرج يعزيها ويهون عليها خطبها بقوله:

- كان الله فى عونك يا سيدتى .. هونى عليك فالبكاء لا يفيد .. ارحمى طفلك يا سيدتى.

واقترب أبو لهب من المرأة وأمسك بذراعيها، فاستملحها .. وفكر قليلا .. فإذا بثلاثة عصافير تتهاوى بحجرٍ واحد .. كان عليه أن يخبرها بأن زوجها كان صديقه الصدوق،

وخليله الوفى، ثم يأخذها ويسر فى أذنها -كلام فى سرك- بأن زوجها مر عليه قبل ذلك بأسبوع وأعطاه بضع لآلئ ومجوهرات. ورجاه -أن يحفظها عنده أمانة إلى أن يطلبها منه، أما إذا لا قدر الله - حدث شىء (وقد كان يا سيدتى يشعر بدنو أجله) .. فتوفى، وانتقل إلى رحمة الله فليضم امرأته وابنه تحت كنفه، وبيع منزلهما وما فيه. "أحسنت يا أبا لهب .. لقد ضم الزوجة فى كنفه وتحت رعايته .. والمجوهرات محفوظة عنده، فلا خوف عليها ولا حرج، وثمن البيت لا بأس به من أن يصبح لقمة سائغة وغنيمة باردة. وبعد ذلك يبقى له الذكر الطيب، والأثر الحسن، ويقول الناس: إن أبا لهب -أحسن الله إليه- من كثرة بره وإحسانه، أشفق على زوجة الشيخ عمر وابنها، فضمهما إلى كنفه ليقوم بأودهما، وليذد عنهما غائلة الفقر والبؤس.

"لم يستغرق ذلك التدبير من أبى لهب سوى بضع ثوان .. وما أسرع ما جرها إلى الكوخ، ثم أسر إليها بما أضمر .. وتعجبت المرأة .. فكلام الرجل -مع أنه عجيب- إلا أنه معقول وجائز .. وسيكون معقولاً وجائزاً أكثر، لو تكرم أبو لهب وأراها اللآلئ. ولم ير أبو لهب مانعاً من أن يريها إياها، وأمسكت المرأة بالجواهر تفحصها .. عجباً! .. إنها جواهرها بعينها، إذن لقد صدق الشيخ.

"ولم تمض مدة يسيرة حتى كان كوخ أبى لهب قد ضم إلى ساكنه، ساكنين". وتمر أيام يفاجأ المرابى بعبد الحميد طفل ضحيته، يقف على حافة البئر متأملاً القاع البعيد ..

ويتساءل بينه وبين نفسه فزعاً .. هل يشك الطفل؟ وهل يمكن أن يفعل؟ ولا يجد ما يصنع إلا أن ينهره لاعناً -ولكن الطفل يكرر فعلته ولا يرعوى. ويشتد غضب الرجل إلى الدرجة التى لا يستطيع فى المرة الأخيرة أن يكظم ثورته. فيفقأ عين الطفل، وما تكاد الأم ترى وحيدها بهذا الشكل، حتى تكاد تجن، فتملأ الدنيا صراخاً. ويكون جواب أبى لهب، أن ينهال عليها ضرباً ويبدأ مكشراً عن أنيابه يسومها سوء العذاب فيما يلى من أيام .. الأمر الذى يضطر المرأة إلى أن تهرب بطفلها إلى أهل القرية، مستغيثة من المرابى. ولا تكاد تفتضح الجريمة حتى يثور الناس، ويذهب جمعهم إلى الرجل مسلحين بفئوسهم وعصيهم .. ولكنه يكون قد فر. فيحطمون بيته ويحرقونه إلى أن يصبح أطلالاً. وبعد قليل يموت الرجل فزعاً مكتئباً عند الرجل الذى فر إليه وهو الشيخ عبد الباقى ..

وإذا بدا أن تلميذ مدرسة شبرا الثانوية، يناقش فى هذه القصة التى نشرتها له مجلة "مجلتى" قضية الربا فى المجتمع المصرى .. وهى يومذاك تشكل إحدى المآسى التى وقع تحت سيطرتها الكثير من المواطنين، سواء بالشكل الجماعى المنظم أى البنوك العقارية الأجنبية، والشكل الفردى فى القرى والمدن وبالذات بعد أزمة الثلاثينيات العالمية .. فإن هناك قضية أخرى لا تقل أهمية إن لم تزد، عالجها ابن السابعة عشرة فى نفس قصته. ويدهش المتلقى كيف شغلت باله -بال السباعى- وتناولها وهو فى هذا العمر

المبكر .. هذه القضية هى مسئولية الإنسان أو عدم مسئوليته إزاء ما ركب فيه من طباع وما شكل فى بنائه من تكوين. تدفعه إلى ما يتخذ من سلوك وموقف، أو هى بتعبير آخر قضية .. الجبر والاختيار.

ولقد وقفت القصة مع الرحمة -ولنتعمق دلالة ذلك فى تركيب يوسف السباعى- التى يجب أن نداوى بها الشرور، لأن أصحابها مرضى قبل أن يكونوا مجرمين. يدور هذا الحوار بين الشيخ عبد الباقى والراوى حول أبى لهب:

- لم يكن أحد أحق بالرحمة من هذا المخلوق.

وضقت بهذه الفلسفة الكاذبة ذرعاً، وكدت أتهور على الشيخ عبد الباقى فأضربه، أو أسبه ثم صحت:

- كيف تقول إنه أحق بالرحمة؟ .. لعل نفسيكما الشريرتين قد امتزجتا واتحدتا!

- يا سيدى .. أيرضيك أن أعطيك ثوباً مهلهلاً، ثم أعاقبك وأعذبك لأنك لا تبدو فيه وجيهاً أنيقاً؟

- كلا بالطبع .. وما دخل ذلك فى قضيتنا؟

- يا سيدى أيعطى الله رجلاً، نفساً شريرة، ثم يعذبه لأنه لم يكن صالحاً؟!

- لا تنس يا شيخ عبد الباقى أن الله يعطيك العقل، ويريك الطريق السوى، وطريق الشر، ثم يتركك حراً فى أن تسلك أحد الطريقين.

- أليس الله يا سيدى، يعلم قبل أن تفعل شيئاً، ماذا

ستفعل؟

- نعم إن أعمال الإنسان ومستقبله مكتوب عند الله.

- أفى قدرة الإنسان أن يفعل شيئاً غير ما قدر الله له؟

- كلا.

- إذن فما ذنب أبى لهب إلا أنه سار فى طريق كتبه الله له، وكان فى قدرة الله أن يسلكه طريقاً خيراً .. فهو يا سيدى أحق بالرحمة من غيره من مخلوقات الله .. إنه أحق بالرثاء .. يجب يا سيدى أن نغلق السجون، ونفتح بدلاً منها ملاجئ لذوى النفوس الشريرة، فنعطف عليهم ونرثى لهم .. أليس من الغباوة أن نعطف على مرضى الأجسام ونعذب مرضى النفوس .. إنهم مرضى يا سيدى .. إنهم ذوو عاهات مستديمة".

ولاشك أن القصة الأخرى .. "فوق الأنواء" أو "جريمة ملاح" .. أكثر تماسكاً من هذه القصة. ولعل السبب أن مسرح أحداثها سواء فى نهر النيل أم شون روض الفرج، مما يعرفه الصغير الذى يسكن فى شبرا .. جيداً. بجانب أنها تهتم بشكل أكبر بالنوازع الإنسانية، بينما "تبت يدا أبى لهب" التى تختار الواحات موقعاً لوقائعها، لا يعرف مؤلفها تلميذ خامسة علمى ثان عنها شيئاً لا كثيراً ولا قليلاً. وانعكس هذا فى الجو العام للقصة الذى لا يحمل طابعاً بيئياً معيناً .. مما استلب جانباً هاماً من عنصر الإقناع. خاصة أن يوسف السباعى لم يولد فى القرية .. أقرب الأجواء إلى الواحة، ولم يعش فيها -ولا يكاد يكتب عنها فى

المستقبل أيضاً! ومن الطريف أن الصبى الذى اختار "الواحة"، لن يفعل ذلك ثانية فى المئات من القصص التى سيكتبها بعد ذلك. اللهم إلا مرة أو مرتين بالتحديد .. الأولى فى إحدى قصصه القصيرة وهو يجعل بطله الضابط العاشق ينقل إلى الواحات، فيراسل صاحبته من هناك. والثانية فى رواية "رد قلبى"، وعلى ينقل إلى الواحات، مغضوباً عليه بفضل النبيل إبراهيم والد أنجى إثر تقدمه بطلب يدها! وفى كل من الحالتين أو الثلاث لم نعش أجواء الواحات نفسها، ربما لأن قاصنا كان أكثر اهتماماً بأبطاله منه بالبيئة.

ويلاحظ القارئ كذلك "بذرة" استيحاء السباعى للمعانى الإسلامية فى آيات القرآن، التى انعكست بعد ذلك فى قيم شخصياته، وتبلورت فى مجموعته المعروفة "نفحة من الإيمان".

ولكن ماذا بشأن الست عيشة وهى تعرف أن ابنها الأوسط، قد بدأ يكتب وينشر فى المجلات المشهورة .. أى أنه أصيب بداء الكتابة، هذا الداء الذى أضاع أباه؟

لم يكن الزهو الذى يمكن أن يتملك أية أم أخرى هو إحساسها، فالالتزام الذى تعيشه إزاء أبنائها اليتامى لم يترك لها أن تنعم بغير المسئولية الجادة، حتى تصل المركب إلى بر الأمان ويتخرج الأولاد. ولهذا فوجئت وصدمت، فزعت أن تعيش مرة أخرى حياة زوجها البوهيمية فى شخص

ابنها. نعم لقد فوجئت بهذا الحدث .. مع أنها كانت تقف على كل الخطوات التى سبقت النشر، ولكنها أبداً لم تربط بينها وبين أن يكون يوسف أديباً. صحيح كان يقرأ كثيراً أكثر من أخيه الأكبر محمود، ويكتب أحياناً أشياء غير مدرسية فى كراريسه .. عرفت ذلك لأنه كان يفعلها باهتمام غير عادى. ويخطط أحياناً لمجلة حائط، كما شاهدت نشاطه وأعماله الأدبية فى مجلة شبرا الثانوية .. والمجلة الخطية التى كان يراسل بها صديقاً فى العطلة الصيفية. ولكن هذا كله لم يكن يعنى أبداً أنه يريد أن يكون مثل أبيه، وأنه يبدأ الطريق الطويل الموصل إلى الكتابة أو "سكة الندامة". وتقشعر الأم وهى تتخيل مصير ابنها الحبيب، لو دفعه الشيطان لا قدر الله إلى أن تدركه حرفة الأدب، ولعلها أحست بانهيار آمالها وتعاسة حظها أكثر من ذى قبل، وتضحيتها وهى تقف شبابها وحياتها فلا تتزوج فى خدمة أولادها، يمكن أن تذهب بددا بهذا الشكل لو استمرت هواية يوسف وتأصلت فى نفسه! فى إحدى قصص يوسف السباعى، تصوير لحال الأم فى هذا الموقف وهى تستشعر الخيبة والإحباط .. لا الفرح والهناء إزاء موهبة الابن الأدبية .. "إننى لا أتمنى له شيئاً إلا أن يبتعد بنفسه عن الكتابة والأدب. ماذا تظنينه ليصبح مهما بلغ من النبوغ .. أيصبح كأبيه؟ .. لقد عاش عمره فقيراً ومات دون أن يترك لنا ما نستطيع العيش به .. ولا أعلم ماذا كان مصيرنا لولا ذلك المعاش الذى خلفه لنا من وظيفته الحكومية التى كان

يزدريها ويحتقرها .. ماذا أفاد من الأدب والكتابة. حتى الذكرى قد بخلوا بها عليه." (ص٨٣-٨٤ "خبايا الصدور").

ولعل موقف الأم هذا، هو الذى شكل دافعاً آخر هاماً، جعل يوسف كما سنرى فى الكلية الحربية، لا يفكر أثناءها فى شىء آخر إلا دراسته العسكرية.

(٢٧)

وكانت هذه الانتفاضة الداخلية الكبيرة التى انعكست فى نشاطه الخارجى .. هى البداية التى لم تعد بصاحبها إلى الوراء أبدا .. منذ تلك الأيام فى السنة الخامسة علمى ثان فى مدرسة شبرا الثانوية. واستمرت فى نبضه الحى حتى آخر يوم فى حياته. ولكن هذا التغيير الجذرى الذى يشكل مقاومة هائلة، لم تغير شيئا من سمات طبيعته الحقيقية .. فى رقته وإنسانيته وطيبته، وشروده، وعدم اقتناعه بأنه يختلف فى كثير أو قليل عن الآخرين. عدم الاقتناع هذا الذى ظل يؤمن به دائما وهو فى كل مناصبه الكبيرة .. فيصرح قائلا: "إنى لأرى نفسى -المتهم بالنبوغ والعبقرية- خلوا من كل ما يبشر بعبقرية .. أو يدل على نبوغ. بل إنى لأرانى محروما حتى من الذكاء العادى، ومن أى صفة تنبئ بخير"! إن ملامح عدم التصديق عندما يجامله صديق أو مدرس وينعته أنه ممتاز أو ذكى أو ما شاكل ذلك من الصفات، تتخذ نفس التعبير بعد أن لمع وأصبح إحدى الشخصيات العامة المشهورة المحبوبة! فهو لم يؤمن أبدا حتى بينه وبين نفسه، أنه حائز على شىء غير عادى، غير مشاع بين الجميع. ولعل هذا هو الذى أنقذه دائما رغم

المناصب الكبيرة التى شغلها. من أن يتحول إلى موظف عظيم بيروقراطى، تنقطع الصلات بينه وبين هموم الناس وأفراحهم، وآلام الرجل العادى وآماله. إن آفة المسئول فى بلادنا، تجىء ممن يحيطون به ويقفون حائلاً ضد تجاوزه لموقعهم .. فيكونون عينه التى ترى وأذنه التى تسمع وعقله الذى يفكر. ومن هنا يأتى جهله بما يحدث، وبالتالى فهمه لما لا يعرف، فتنقطع علاقاته بالآخرين. إن الباب غير المغلق بين يوسف السباعى وبين الناس، لم يحجب عنه الحقائق .. وهكذا لم يتغير فيه شىء. وهو يرفض أن يفسد طبيعته التى لا يرى فى تكوين صاحبها من المميزات. ما يفضل شخصاً آخر! ونستطيع أن نتخيل مثل هذا -الذى جاء فى إحدى قصصه- الذى يدور بين أحد رجال التعليم وبين أديب معروف:

- لقد كنت نابغة من يومك .. إنى أذكرك جيداً .. فقد درست لك فى إحدى السنين عندما كنت مدرساً بالمدرسة الابتدائية، وأذكر أن النبوغ كان يشع من عينيك.

- (بينه وبين نفسه ساخراً) من عينى أنا؟ كله إلا هذا! ولكن ماذا أقول له إذا كان يذكر هذا جيداً، وإذا كان واثقاً تمام الثقة من هذا النبوغ الذى كان يشع من عينى! ماذا أقول له؟ أأقول إنه أكد لى ذات مرة أنى أغبى تلميذ رآه فى حياته؟! ولكن لا. لا داعى للفضائح .. لقد أمر الله بالستر!

ويقال لصاحبنا مرة أخرى .. وما أكثر ما قيل له من

زملاء زمان .. بعد هذا الزمان، إنه كان الأول دائماً. ولا يعرف هؤلاء كم يسخر السباعى بالحديث وصاحبه، لأن فى هذا الحديث افتياتا على الواقع الذى يعرفه هو أكثر من غيره بالتأكيد! وفى حكاية الامتياز أيام سنى الدراسة، لا يذكر أنه كان الأول إلا مرة واحدة .. يتيمة .. لم تتكرر. كيف؟! لنسمعه وهو يتحدث: "عاد ذهنى يبحث فى زوايا الماضى عن مرة واحدة كنت فيها الأول .. فلم يذكر سوى مرة واحدة كنت فيها الأول .. لسبب واحد هو أنى كنت الممتحن الوحيد. لأنى مرضت فى الامتحان الأصلى، وامتحنت وحدى"!!

ولكن بعيداً عن موقف صاحبنا مع نفسه، وعن حكاية "النبوغ" أيضاً .. يجد القارئ أنه ليس أمراً عادياً -ولنكتف بمرحلة الصبا وفى شبرا الثانوية بالذات- أن يجتمع فى تلميذ صغير .. أن يكون فى وقت واحد رساماً وخطاطاً وشاعراً وزجالاً وقصاصاً ولاعب هوكى وكرة. فهذه المواهب جميعاً الأدبية والرياضية التى مارس التلميذ الصغير ألوانها، بمستوى من الإتقان طيب .. يؤكد ما بقى لنا منها فى الناحية الفنية منشوراً فى مجلة شبرا الثانوية أو فى ثنايا قصصه القصيرة بالذات .. أصالة هذه المواهب من جهة ودلالتها منفردة أو مجتمعة على ما يحمل صاحبها من نبوغ أدبى -لا مدرسى- مبكر. وفى هذه الناحية لا يصدق ادعاء السباعى فى إحدى قصصه بعد ذلك مهوناً: لا نابغة "ولا حاجة" .. إنها مسألة حظ .. لقد حق على المثل

"قيراط بخت ولا فدان شطارة"!

ومن الأشياء التى ظلت فى طبيعته أيضاً واستمرت فى دمه .. السرحان والشرود .. وهما كلمتان تأتيان كما نعرف فى مقدمة قاموس يوسف السباعى. يشكل منها الكثير من المواقف والشخصيات والصفات التى تحيط بغيره أو بذاته، ولكن فيم بالتحديد كان هذا الانفلات عن الواقع، والبعد عن اللحظة الحاضرة؟ إن كاتبنا يندر أن يتحدث عنه، سواء بالنسبة إلى فترة صباه وشبابه التى تكثر بها استكمال الكلمتين، أم مرحلة رجولته. فكيف نبتت هذه البذرة، وفيم كان استيلاؤها عليه بشكل عام؟

أكثر من عامل كان يدفع بالصغير فى أحضان شروده، نفس حساسة وقلب رقيق يتعذب لآلام الغير. ولنذكر قصته الأولى التى نشرها فى مجلة المدرسة وهو تلميذ بشبرا الثانوية وهى "فوق الأنواء" -نشرت بعد ذلك فى مجموعته القصصية الأولى "أطياف" باسم "جريمة ملاح"- وتعاطفه الشديد مع المرأة الآثمة والضحية معاً .. زيادة إلى أنه لم يستسغ المنهج الدراسى أبداً، ولذا كان دائماً تلميذاً عادياً.

فلاشك أن المدرسة أيضاً شاركت فى توكيد شروده .. وذلك بفضل جمود المقررات وأسلوب حشو الأذهان وعدم اكتمال شخصية الأستاذ أو فشل صاحبها فى الإقناع بالدرس. كانت عدم قدرة المدرس على احتواء تلاميذه وجذبهم إلى مادته، بمثابة دقات جهاز إرسال تجيبه على

الفور عدم القدرة على الإصغاء عند يوسف. وتكون النتيجة انصرافاً كلياً عن الدرس والفصل والمدرسة، إلى أية أشياء أخرى تقيمها دنيا السرحان العظيم! وكان أهم المواد التى تشجع صاحبنا على شروده، هما علما الطبيعة والكيمياء! وبات إعجاب يوسف بالمدرسين، هو من يدعه منهم فى سرحانه! .. متجاهلاً وجوده، لا يقتحم عليه خلوته. ويبدو أنه من السهل على المعلمين، اكتشاف هذا الصنف من التلاميذ أصحاب الخلوات .. فكل منهم دائماً فى حالة أقرب إلى الانكماش فى النفس .. متقوقع - مما يتيح له أن يعربد فى هيمانه. يصف السباعى فى إحدى قصصه، واحداً من هؤلاء المدرسين الذين لا يزعجون تلاميذهم بقوله: كان مخلوقاً مهذباً .. ولم يحاول أن يقوم بتلك الألاعيب التى كان يقوم بها سلفه، من مفاجأتنا بالسؤال فى خلال الشرح ليعرف ما إذا كنا منصتين أم غافلين. كان رجلاً طيباً يلقى الدرس فى هدوء، ثم يسأل عما إذا كان أحد منا يريد الاستفهام عن شىء لم يفهمه، ثم يغادر الفصل بسلام. وهكذا كان صاحبنا مدرساً نموذجياً فى نظرى، يهيئ لى الفرصة الطيبة للشرود والسرحان، دون أن يرغمنى على الاستماع أو يقطع على حبل تفكيرى، ودون أن أتوجس منه خيفة، أو أتوقع شراً"!

وشئ ثالث لا يجب أن نلغيه من حسابنا ونحن نطالع ملامح سرحان يوسف السباعى فى سنه الصغيرة هذه، هو الضغط المالى بشكل ما، الذى كانت تجتازه الأسرة بعد وفاة

عائلها .. الفنان البوهيمى الموظف كثير الاستقالة، إلى الدرجة التى كان فيها بلا معاش عندما مات! ولولا المعاش الاستثنائى الذى حصل عليه لأسرته شقيقه طه السباعى بعد ذلك، لتعرضت الأسرة إلى هموم ثقال وهى تكابد حياتها المالية. كان بيت صبينا إذن يعيش مستوى هذه الحياة التى يطلق عليها المفهوم الشعبى كلمة "الستر". وهو كما نعرف ليس العيش المريح بل الفقير المحتاج أو الضرورى الذى يكاد يكفى بالكاد .. أما ما وراء ذلك من ألوان النعيم أو الترف، والحياة ليست ضروريات فحسب، فلا سبيل إليها. بل أكثر من هذا كله .. "كان يحس أن مجرد مواصلة الحياة .. قد بات فى حد ذاته أملاً ليس من السهل بلوغه. لقد باتت ضرورات العيش التى كانت تمارس بغير عناء، وتتحقق كشىء مسلم بوجوده .. باتت هذه الضرورات .. أملاً عسيراً .. يحتاج إلى تفكير دائم وجهد مستمر .. وتوارت إلى جواره بقية الرغبات والآمال .. وأضحى الاستسلام إلى التفكير فيها والانشغال بها .. نوعاً من الترف .. ومعصية يستحق مع امتلاء نفسه باليأس .. وتمرد روحه على الحياة -أن ينتهى عن ارتكابها ويزجر عن إتيانها. كانت مواصلة الحياة .. قد باتت أهم كثيراً من الاستمتاع بها".

فكيف يستطيع إذن أن يوائم بين القدرة والطموح؟ بين الإمكانية المحدودة والقوى الكبيرة المنطلقة؟. ووجد نفسه يسرح، ثم اكتشف فى هذا الأسلوب راحته التى تيسر

له أن يعيش واقعه الذى لا يرضيه ويتنفس أمانيه التى لا سبيل إليها .. سواء بالنسبة إلى الخاص أم العام. فلم تكن همومه كلها شخصية تنحصر فى الذات، بل كان بعضها يستقطب قضايا الوطن، وما يحيط بالمواطن من متناقضات وانحرافات. فما أكثر ما يثور الشباب على اهتزازات مجتمعهم، وخاصة إذا كان بلدهم محتلاً .. تتنافر الأحزاب فيه ولا تتآلف غالباً إلا فى خدمة مصالح أصحابها متجاهلين آلام الجماهير .. وهذا الجانب يحتاج بلاشك إلى وقفة صغيرة فى عالم يوسف السباعى. وكانت ساعات الاستذكار بالذات -توكيداً لبغضه للمدرسين- هى أحلى الساعات فى الحديث عن حال البلد المائل.

ورغم أن يوسف كان أميل إلى أن يستذكر دروسه وحيداً أو مع أخيه محمود، إلا أن هذا لم يمنع أن تجمع ساعات الاستذكار أحياناً بينه وبين أصدقائه فى منزله أو فى منازلهم، مثل صالح نجاتى وأحمد إسماعيل على -هو نفسه نائب رئيس الوزراء ووزير الحربية بعد ذلك- وابن العم إسماعيل السباعى وغيرهم. وكالعادة لم تكن الجلسة كلها تستغل فى مراجعة المقررات والمواد الدراسية المختلفة، بل كان الجزء الأكبر منها يستوعب بجانب الاهتمامات الوقتية مما يحدث فى نطاق المدرسة أو البيت أو الهوايات أو الغراميات .. ما يخيم على البلاد من أحداث سياسية أو وطنية تتصل من قريب أو بعيد .. بالقوى المسيطرة على مقدرات مصر من قوات الاحتلال البريطانى وأسرة محمد

علـى والإقطـاعيين. وكـانت المناقشـات الحماسـية تـدور حـول هموم المواطن المصرى، الـذى يقاسـى أكـثر مـن ضغـط من أكـثر مـن جهـة. وكـان الـهم الأول والأكـبر الجـاثم علـى الصـدور وتختنـق بـه الأفئـدة، هـو هـذه الوجـوه الحمـر التـى تمتلـئ بـها شـوارع القـاهرة والمـدن المصريـة وثكناتـها .. والتـى تمثـل المسـتعمر الإنجليزى البغيـض الـذى يقـف بيـن المصرييـن وبيـن اسـتعادة قواهـم وحقوقـهم وأمجـادهم، ويفسـد عليـهم كـل آمالهم فى الغـد الحـر القـوى. ورغـم أن يوسـف كـان بعيـداً عـن الأحـزاب القائمـة وقتـذاك، كمـا كـان أبـوه -رغـم حكايـة الكتـاب الـذى قيـل أن الأب ألفـه عـن عبـد الخـالق ثـروت باشـا- إلا أن ابـن عمـه إسـماعيل كـان متحمسـاً للوفـد .. حـزب الأغلبيـة، يـهاجم جلالـة الملـك الـذى يبغـض الدسـتور ويرفـض أن يملـك الملـك ولا يحكـم ويغـرم بالتسـلط.

وكـان الفقـر أيضـاً مـن أشـد الأشـياء إثـارة للأسـى فـى كوامـن هـؤلاء الشـباب، وهـم يـرون كيـف يرتـع المواطنـون رغـم غنـى البـلاد فـى أحـط درجـات الفقـر -لنذكـر كيـف انعكسـت ثـورة السـباعى علـى هـذا الفقـر بعـد ذلـك فـى "يـا أمـة ضحكـت" و"أرض النفـاق" و"الشـيخ زعـرب" -وكـان يوسـف يحلـم كثيراً مـن خـلال تواجـده وسـط الأحيـاء الشـعبية الغارقـة فـى البـؤس، بإسـعاد أصحابـها المسـاكين. ولنذكـر قصتـه الواقعيـة مـع حـى زينـهم الـذى كـان يرتـاده أيـام الابتدائيـة، بحثـاً عـن الكنـوز القديمـة فـى هـذه المنطقـة الأثريـة التـى كـان يسـمع عنـها تنتشـر فـى هـذه الجهـة، ليتمكـن بجـانب الحصـول علـى المـال

الوفير الذى يتيح له أن يهجر المدرسة وينجو من استذكار الدروس .. من أن يحيل هذه الأحياء بعصا ساحر أو باكتشاف الكنز، إلى قصور وحدائق تجرى من تحتها الأنهار، بدلاً من عشش الصفيح وأكوام القاذورات.

ومع ذلك كان الشباب وحماس الفتوة يدفع بهم إلى بعيد، حيث تتغير هذه الأحوال جميعاً، فيتم طرد الإنجليز وتستقل مصر وتملك أمر نفسها تماماً وتحول فقر أبنائها إلى غنى ومرضهم إلى صحة وجهلهم إلى علم .. وبدلاً من أن تكون فى ذيل الأمم تصبح فى مقدمتهم. وكان كل واحد فى المجموعة وهو يتصور ذلك، يهيم فى أودية الخيال، باحثاً لنفسه عن مكان فى قيادة هذه الثورة التى ستجدد شباب ثورة ١٩١٩. ويكتب السباعى يوماً -"الجمهورية" ٨ نوفمبر ١٩٥٨- "كنا ونحن صبية نحلم بأشياء كثيرة لوطننا .. وعندما كنا نجتمع أسفل فانوس النور على ناصية أحد شوارع روض الفرج .. كنا نندفع فى أحلامنا .. وكان كل منا يقول ماذا سنفعل لهذا الوطن عندما يصبح زعيماً له".

لهذه الأسباب جميعاً .. تولد اعتماد الشاب الصغير الحزين -لم تكن ظهرت أيامها ابتسامته الحلوة على شفتيه- على أحلام اليقظة، فهى وحدها التى تستطيع أن تلبى رغباته جميعاً. ولم يكن بالعناء الذى يحمل مخاطر اللعبة تخفى عليه .. كان يعرف مزالق الطريق الذى يسلك .. ولكن ليس منه بد. فهذه هى الطريقة التى تعطى النفس ما حرمته، يقول يوسف السباعى فيما يشبه الاعتراف: كنت أحاول

إمتاع نفسى بما يسمونه أحلام اليقظة، ولست أشك فى أن هذه الطريقة قد أفادت فى تهيئة إرضاء مؤقت، وإن كنت لا أستطيع أن أنكر هذا التسكين أو الإرضاء الذى هيأته أحلام اليقظة قد قضى وقتها على كل مطمع لى فى أن أكون بارزاً. وزادنى استسلاماً واستكانة ورضاء بالسير فى الركب. كنت أرضى نفسى بإعطائها بالوهم ما حرمته فى الواقع .. ولقد كانت طريقة مضحكة، وإن كنت لا أشك إنه ما من إنسان إلا ويتبعها .."

وكانت هناك متع صغيرة، فى أيام العطلات الأسبوعية .. خاصة فى أيام الجمع .. فهى لم تكن تمضى خالصة للقراءة والكتابة أو لعب الكرة، بل كان فى بعض الأحيان يعطى لبدنه حقه، فيشارك إخوته فى القيام برحلات إلى وادى حوف والأهرام وسقارة وغيرها. وكان سكنهم فى روض الفرج وقربهم من النيل، يجعلهم يستفيدون من هذا الموقع أيما استفادة .. فهناك استئجار أحد القوارب والتجديف فى النهر. أو الدخول فى مساومة لشراء بطيخة أو أكثر، من الأكوام الكثيرة التى يرصها أصحاب الشوادر على الرصيف المجاور لشاطئ النيل .. ثم افتراش النجيل وأكلها! أو ينتقلون بالمركب إلى الشاطئ الآخر، حيث جزيرة الوراق ويقضون اليوم هناك يتناولون ما أعدوه من طعام، ويلعبون الكرة الشراب. أو يعدون العدة لسهرة ممتازة، فيدخرون الملاليم طوال الأسبوع، ليتناولوا عشاءهم كباباً فى أحد المطاعم المتناثرة على النيل، ثم ينتقلون إلى أحد المسارح

الصيفيــة المقامــة علــى النيــل أيضــا. وكــانت أكــثر الفــرق المســرحية تعــرض وقتــها فــى هــذا المكــان، مثــل فرقــة علــى الكســار بربــرى مصــر الوحيــد، أو فرقــة حــامد مرســى الفتــى الأول وزوجتــه عقيلــة راتــب، أو فرقــة يوســف عــز الديــن أو فــوزى منيــب. وكــانت هــذه الســهرة تتكلــف مــن كبــاب ومســرح خمسـة قـروش كاملـة للاخـوة الثلاثـة!

(٢٨)

ولكن أين يقع الحب عند هذا التلميذ الصغير الذى سيصبح بعد سنوات من أشهر الأدباء العرب الذين يكتبون فى الحب إن لم يكن أشهرهم؟

لعله منذ أن التفت إلى الحب وهو يحب .. فعل ذلك بتكوينه الرقيق واتجاهه الفنى وعشقه للجمال. وهكذا تلهفت عواطفه وهو فى طفولته، على السيدة التى كانت من جيرانهم فى جنينة ناميش. وهناك الفتيات اللاتى أعجب بهن وأحبهن فى صباه بين السيدة وشبرا. والفتاة اليونانية ابنة صاحب المخبز الافرنجى فى روض الفرج، يشير يوسف السباعى إلى نفسه فى حبه الأول، وما يجد الشاب الصغير من سخرية وافتيات على حقوقه فيكتب:

"لا أظن أن هناك امرأ إلا ويذكر نفسه فى تلك المرحلة التى أخذ يجتازها الفتى .. وأعنى بها مرحلة الحب الأول، بينما لم يزل بعد فى طور النضج. حين ينظر إليه الناس فى سخرية واستهزاء إذ لا يرون فيه غير غر حدث .. وطفل ساذج .. ويبادلهم هو نفسه النظرة .. فهو يرى فيهم حمقى لا يستطيعون أن يفهموه .. لأن مداركهم أعجز من أن

تصل إلى ذلك الشعور الذى يحس به، وأبصارهم أقصر من أن تبصر ذلك العالم المضيء الذى يحيط به. وهكذا يرى الإنسان نفسه بمعزل عن الناس، وهو لا يفهمهم وهم لا يفهمونه .. هو فى واديه يهيم وهم فى واديهم يهيمون".

وأكثر من عامل جعل شابنا لا يهنأ بحبه .. الأول، خجله .. وإذا أتيح لك أن تشارك فى مجلس يوسف السباعى -فى سنواته الأخيرة -وأن تبعد عن نفسك ما يبعث الاسم المشهور والمنصب الكبير، فإنك لتلمح فيه بقايا من خجل .. فماذا كان عليه إذن هذا الخجل فى صباه وشبابه. ونحن نعرف أن أسوأ الأوقات التى يعانى منها الخجول، هى عندما يقع أو يتعرض أو يريدان يشارك فى الحب. هنا يجد أن مزايا أو إيجابيات هذه الطبيعة -لو كانت كذلك- أقصر من أن تنيله أو تساعده فى الحصول على إعجاب حسناء. ولذلك كانت غرامياته الكثيرة التى يتعلق بها فى دور صباه من نوع واحد لا يكاد يتغير .. وهو الحب الفاشل الذى لا تفترق بدايته عن نهايته فى شىء، لأنه يتحرك بطريقة محلك سر. فهو يقتصر على صاحبه وحده دون الطرف الآخر، الذى لا يعلم بما يحس أو يكابد. ولأنه لا يخسر شيئاً من وجهة نظره، إلا تمزق نفسه، لأن العالم الخارجى لا يعرف عن هذا التمزق شيئاً .. فإنه ينتقل إلى حب آخر وآخر وآخر، بنفس الأسلوب الذى يصول فيه ويجول ويكر ويفر فى عالم أوهامه.

وأقصى معاناة فى عملية حبه، كانت فى بدايتها .. حيث

الأمل متربع على عرشه يدفعه إلى أن يستجمع قواه ويبعد عنه خجله الذى يعرقل خطاه. ويخفف من رهبته على اجتياز مفاوز المحاولة. ولكن إذا كان الحى يحمل فى داخله بذرة الموت، فكذلك كان أسلوبه المتسم بالإنطوائية والخيال لا يقربه أبداً مما يريد، وليس أطرف من أن نتابعه فى إحدى غرامياته أو محاولاته، وإن كانت بالنسبة إليه وقتها تعد من التجارب المرة! أعجب يوماً وهو على الكورنيش -وكان يزور أخاه محمود الذى عين بالثغر بعد تخرجه من كلية البوليس مباشرة- بحسناء تطل على البحر .. فاقترب منها وعمل على أن يحدثها، ولنترك له المجال ليفصل الحديث: "كان ذهنه قد أخذ يبحث بسرعة عن أنسب الكلمات التى يبدأ بها حديثه معها .. وأخذ يستعيد لنفسه جميع وسائل المغازلة و"البصبصة" .. المألوف منها وغير المألوف. ترى أيبدأ بصب كلمات الإعجاب فى أذنيها .. والغوانى -كما يقولون- يغرهن الثناء .. ولكن هذه طريقة "عتيقة" بالية. وقد يكون نصيبه من الفتاة لا يزيد عن "ياسم" أو "يادم" .. أو قد تكون الفتاة أكثر كرماً، فتحييه بصفعة ترن وسط الجماهير .. إذن فليبدأ حديثه عن الجو، ولكن الحديث سيكون بارداً وتافها .. وأخيراً بدأ يتخيل أن الفتاة قد اختل توازنها فهوت إلى الماء .. وأخيراً ألقى بنفسه خلفها فأنقذها من بين الأمواج .. وخرج من الماء يحمل جسدها الغض بين إعجاب الجماهير المحتشدة .. وتخيل الفتاة بعد أن تفيق وقد نظرت إليه نظرات ساحرة

مليئة بالحمد والشكر .. ولكنه تذكر فجأة أنه لا يجيد العوم -كان هذا بالطبع قبل دخوله الكلية الحربية! -وأنه قد يغرق مع الفتاة .. فاستبعد من ذهنه هذه الوسيلة الخطرة. ومضت فترة والفتى يحملق فى الماء دون أن يهتدى إلى الكلمات التى يستطيع أن يستدرج الفتاة بها إلى الحديث. وشعر الفتى بمدى خيبته فى ميادين الغرام .. وجبنه فى معارك الهوى، وأنه لا يملك إلا النظر من بعد، والإعجاب فيما بينه وبين نفسه .. وأنه لا يزيد عن كونه "أسد على وفى الحروب نعامة"!

وخشى الفتى أن يضيع الفرصة السانحة بذلك التردد والإحجام، وصمم على أن يقول للفتاة أى شىء، وليحدث بعد ذلك ما يحدث .. وفجأة أدار لها وجهه ثم سألها:

- كم الساعة من فضلك؟

"ونظرت إليه الفتاة برهة قبل أن تجيب، ثم قالت فى تهكم وسخرية:

- خير لك تسأل نفسك!

وأشارت بإصبعها إلى الساعة التى بدت واضحة فى معصمه. وبدا على الفتى الارتباك وأجاب متلعثماً:

- إن بها خللاً من أثر الرطوبة.

- لا أظن أن "هى" التى بها خلل، فإنى أراها الثامنة والنصف .. ونحن فعلاً فى الثامنة والنصف.

وازداد ارتباك الفتى، فضحكت الفتاة وأردفت:

- هـذه طريقـة "عتيقـة" فـى "جـر الشـكل"، وكـان مـن الواجـب عليـك مـا دمـت قـد قـررت اسـتخدامها أن تتنبـه إلـى إخفـاء السـاعة. وعلـى أيـة حـال لـم يكـن هنـاك داع لـهذا التمـهيد، فلنتحـدث كمـا تشـاء، لأنـى لا أرى ضـررا مـن الحديث، مادام لن يكون أكثر من حديث نفترق بعده إلى غير لقاء!".

إن المشاركة فى الحب كما يذهب السباعى ومنذ، صباه، من حق كل إنسان .. كبيرا أم صغيرا، وإيمان فناننا به إيمانا عظيما حتى فى ذلك الوقت المبكر، لا يجعله يتجاهل نوعية حب العمر الصغير واتسام المراهقة بالحب الطيارى .. فيكفى أن يقع بصر الصبى على فتاة ما، وتصادف بعض الميل فى نفسه، حتى يظن أنه وقع صريع هواها. فهذه المرحلة تجعل صاحبها فى معظم الأحيان، قابلا للعشق عند ايسر بادرة! يتخيل أنه ينسج من جديد وفى العصر الحديث وبشخصه الضعيف، قصص العشاق الخالدين! ويكون الانتقال من حب إلى آخر وبكثرة شديدة، حتى قبل أن ينتهى من واحد و"يشبك" فى آخر .. علامة على أن صاحبه يملك من الوقت الممل ما يبعثره بسفاهة فيما يسميه حبا، والذى يصفه السباعى بالحب التلاميذى وهو على حد تعبيره "شىء ملىء بالتفاهة والهيافة"!

ولقد مر الصغير يوسف بهذا النوع من الحب، وطبعا كان من جانب واحد. ويدافع صاحبنا عن وقوعه فيه بقوله: أمرا غريبا .. بل الغريب هو ألا يصاب به إنسان .. ولقد

قلت لك إننى رغم كونى إنساناً إنطوائياً منكمشاً إلا أن ذلك لم يمنع من أننى أحببت بضع مرات .. وفى كل مرة كان يجمد الحب فى قلبى عندما تحيط به ثلوج اليأس ويتبدد من نفسى دون أن يترك أقل أثر"!

ويغير الهوى أشياء كثيرة .. ليس فى المخبر فحسب، بل فى المظهر أيضاً. وكان أهم ما أصابه التغيير، شيئان هما علامتان أو ماركتان مسجلتان كانتا للسباعى فى ذلك الحين، الأولى حذاؤه الأجرب من كثرة اللعب فى الشوارع بالزلط والطوب، فقد عاد إلى لونه الأصلى وزاد لمعاناً. ولم يكن الورنيش وحده هو صاحب الفضل، بل لأن الحذاء قد كف تماماً عن قذف الحصى والحجارة وأحس أن صاحبه قد أضحى "بنى آدم، وليس عفريتاً من الجن أو شيطاناً من الشياطين"! والماركة المسجلة الأخرى هى طربوشه، فلم يجعله "تلاميذى" قائماً أو منزلقاً، بل مستقراً فى ميل شديد على أحد حاجبيه .. لزوم الأناقة والاتزان معاً!

كتب يوسف السباعى يوماً فى إحدى قصصه: "لم يكن أخوه -يعنى محمود السباعى- يكبره إلا "بعام واحد" ولكنه كان يكبره فى أمور الحب وشئون النساء بمائة عام، فبقدر ما كانت خيبة الفتى وتهيبه كانت جرأة أخيه ومهارته .. فكان الأول يكتفى بالنظر والإعجاب والحب من بعد، وكان الثانى لا يكتفى بأقل من خمس فتيات يصاحبهن فى وقت واحد"! ونتيجة ذلك كان الأخ الأوسط مثار سخرية الأكبر المغامر، فى مجال العشق والعشاق. وما أكثر ما حاول محمود أن

يغير من طبيعة شقيقه الإنطوائية الخجول، وأن يدفع به فى خضم الحياة ومعتركها الذى تؤخذ فيه الأشياء غلابا .. ولكنه لم ينجح. لأن تكوين يوسف كان مختلفاً تماماً عما يدعوه إليه، كما أن حواء لم تكن عنده مجرد جسد ساخن ومغامرة مثيرة أو متعة تتساوى مع غيرها من المتع .. بل كانت المرأة عنده ولا تزال هى توءم الروح .. "إن خير ما فى الحياة .. هو قلب جميل يفيض علينا رقة وحنانا فنروى منه ظمأنا عندما يشقينا ظمأ الحياة .. ويكون لنا ملاذاً عندما نحرم الملجأ والملاذ".

وهذا ما لم يكن محمود يقتنع به أو يؤمن. وليس هذا بالطبع ما يشكل الاختلاف بين تركيب الفنان وغير الفنان .. فالخجل ليس صفة جديرة بالأولى الاحتفاظ بها، وأسلوباً يسعد به صاحبه الأديب. فما أكثر ما لاقى منها، وهو يعمل على أن يتغلب عليها .. ويملك الشجاعة مثل أخيه ليغامر، مع الحفاظ على مفهومه للمرأة. ويعدل من صورته التى يعرفها جيداً "الإنسان الخجول الكتوم، القليل الخبرة بأحوال الحب"، كما يصف نفسه إذ ذاك. استطاع يوماً أن يحدث فتاة بصعوبة، وكانت هى الجانب الأجرأ .. ورغم التعارف لم يستطع أن يحصل منها على موعد. ورغم ذلك عاد سعيداً لا تسعه الدنيا، ويقص على محمود تفاصيل هذا الحادث، ويدور بين الشقيقين هذا الحوار.

- لقد أخبرتنى أنه لا لقاء بعد ذلك.

- يا للخيبة! تتحدث معها ساعة ثم تتركك إلى غير لقاء!

وماذا أفدت من حديثها؟ كأنى بك قد تحدثت إلى سيدنا الخضر أو إلى برنارد شو .. هل قبلتها؟

- أقبلها على الكورنيش؟!

- ولم لا؟ .. لعلك اكتفيت بمس يدها؟

- ولا هذا!

- خبرنى إذن! لم كل هذه النشوة والفرحة!؟ ليخيل إلى وأنا أراك تتحدث عنها أنكما سبحتما سوياً عاريين فى بحر من الخمر .. لا تكن أبله، اذهب الغد إلى مكان الليلة، فلابد أنك ستجدها تنتظر، ولا يغرنك منها صد ولا تمنع، وكن أكثر جرأة تجدها قد لانت!!

وهكذا لن ندهش مع فشل يوسف مع الفتيات فى هذه الفترة، أن "يلطش" محمود منه صاحبته قبل أن "يلطشها" غيره من يوسف! هكذا يحكى "اللواء" محمود السباعى وهو بالطبع نفس محمودنا القديم!

(٢٩)

عندما نجح يوسف السباعى فى (البكالوريا) شهادة الثانوية العامة .. تنفس الصعداء من قلب مكلوم. وأدرك أكثر من أى وقت مضى، أن هذا النجاح يشكل استجماع إرادته قبل أى شىء آخر. وأنه لا يزال فى حاجة ملحة إلى هذه الإرادة نفسها، يقف بها ضد طبيعته ونفسه ومزاجه الشخصى. فى سبيل التخفيف مع أخويه عن أمه التى تحمل عبء البيت وحدها، وليريح هذه الأم ويسعدها. فلقد تفانت فى التضحية وعليه أن يساهم هو أيضاً فى هذا المجال .. بأن يتوظف بسرعة. والأسلوب الأوحد السريع للوصول إلى هذا الهدف، هو الالتحاق بإحدى الكليات العسكرية .. التى تهيئ طلابها للوظيفة المضمونة والمرتب الجيد والمنصب الاجتماعى المرموق بعد دراسة ثلاثة أعوام. ولا تعرضه وهذا هو المهم، للانتظار وقتاً يطول أو يقصر فى البحث عن الوظيفة بشق الأنفس. فأيامها لم تكن مصر قد عرفت بعد بدعة توظيف الدولة للخريجين. وهكذا جاء اختياره للكلية الحربية، بعد أن التحق أخوه الأكبر محمود بكلية البوليس.

فعل يوسف هذا ضارباً عرض الحائط بمواهبه الأدبية، وخطواته المبشرة التى بدأ بها مسيرته الفكرية، ونشره فى الصحف ومستواه الثقافى الكبير بالنسبة إلى أقرانه .. وأكثر من هذا كله بمستقبله الفنى. ولعل هذا يعكس مدى معاناة السباعى فى تلك السنوات .. هذه المعاناة القاسية التى احتملها بصبر وأمل. ولكن يوسف لم يضع كل تفكيره فى الكلية الحربية، فهو يعرف صعوبة الوصول إليه، وندرة من يتاح لهم الالتحاق بها واستحالة الحصول على توصية أو واسطة ضخمة تنيله منها .. ولذلك فقد قدم أوراقه فى نفس الوقت إلى كلية الهندسة أو مدرسة المهندسخانة كما كان يطلق عليها وقتها، ولم يكن يخشى من عدم قبوله فيها فهو مطمئن إلى أن مجموعه يتيح له ذلك .. ولكنه كان يفزع من ألا يصله نفس المجموع بأسباب المجانية أو عدم دفع المصروفات.

ولاشك أن تفكيره فى الالتحاق بالكلية الحربية وانتظامه فيها بعد ذلك، كان يثير أصحابه الذين يعرفون موهبته الأدبية وأعماله القصصية التى نشرها فى كبريات الصحف. وكان رده الدائم على من يتساءل مفكراً ولماذا لا يلتحق بإحدى الكليات التى تعد للأدب أو الفن .. "هذه أشياء لا يحسن التخصص فيها .. فهى لا تؤكل عيشاً .. إننى لا أستطيع أن أرتزق من القصة أو الشعر أو الرسم .. ولكنى أستطيع أن أتمتع بها كهواية .. وهواية فقط"!! وكان هناك أيضاً جانب -غير ما تدفع إليه حالة الأسرة الاقتصادية-

يشجع على الالتحاق بهذه الكلية النفيسة وهو .. "على الأقل هذا التهافت العجيب عليها، وعدم قبولها غير عدد محدود، يجعل الفوز بالقبول فيها مسألة يتمناها كل إنسان".

ولكن كيف دخل الكلية الحربية .. فى ذلك الوقت الذى كان الالتحاق بها قاصراً فى أغلبه على أبناء البيوتات الغنية والأرستقراطية والعائلة المالكة والمتمصرين والعناصر التركية؟! وكانت الواسطة الكبيرة ذات المستوى الأكثر امتيازاً وحدها، هى التى تتيح للطالب - إذا لم يكن ينتمى إلى هذه الفئات الراقية هذا الفوز العظيم؟

فى تلك السنوات كانت حاجة الكلية إلى طلبة جدد جد ضئيلة .. والسبب أن المستعمر الإنجليزى الذى يحكم البلاد، لم يكن يسمح بإيجاد جيش مصرى حقيقى .. لا فى عدده ولا فى نوعيته. وإلا تعرض البلاد لخطر الاستقلال أو بمعنى أدق، تعرض المحتل البريطانى لإجلائه عن مصر ما دام أبناؤها يملكون جيشاً قوياً يدافعون به عن أنفسهم ضد مستعمريهم. ولذلك كانت الكلية الحربية التى تخرج ضباط هذا الجيش لا تقبل كل عام إلا عشرة طلاب بالعدد! .. بينما يتقدم إليها أكثر من ألف طالب من الحاصلين على شهادة التوجيهية! وكان من المعروف أن حكاية الإعلان عن فتح باب القبول والامتحانات المختلفة للمتقدمين وتصفيتهم أكثر من مرة، مجرد سد خانة وتمثيلية لخداع السذج من المواطنين .. الذين يظنون أن الإدارة المصرية ورياستها

الإنجليزيـة يحترمـان القـانون والبديـهيات والإنسـان، التـى تقـول إن المواطنيـن متسـاوون فـى الحقـوق والواجبـات. وإن هـؤلاء الطـلاب العشـرة الذيـن سـيقبلون فـى الدفعـة انتـهى مـن اختيـارهم بالاسـم ربمـا قبـل دخولـهم امتحـان الثانويـة ونجاحـهم فيـها!

وتتـاح ليوسـف السـباع واسـطة هامـة صاحبـها هـو إبراهيـم باشـا وكيـل وزارة الحربيـة إذ ذاك، ولكـن لعلـها وحدهـا لـم تكـن لتفلـح لـولا أن الكليـة الحربيـة اضطـرت فـى هـذه السـنة بـالذات إلـى قبـول المزيـد مـن الطلبـة الذيـن ارتفـع عددهـم إلـى الثلاثيـن وارتفعـت بالتـالى النسـبة المتاحـة لغيـر العشـرة إيـاهم! ويدخـل السـباعى الكليـة الحربيـة! ومـن الطريـف أنـه فـى ذات الوقـت قُبـل أيضـاً بكليـة الهندسـة وبمجانيـة كاملـة، ولكنـه تغـاضى بـالطبع عـن هـذا القبـول!

والحديـث عـن كيفيـة دخـول السـباعى الحربيـة، وواسـطته فـى بلوغـها تحتـاج إلـى مزيـد مـن التفصيـل، لا لمـا فيـها مـن عفويـة أوصلـت إلـى أحسـن النتـائج فحسـب، بـل لمـا تحمـل مـن فلسـفة آمـن بـها يوسـف السـباعى منـذ وقـت مبكـر فـى حياتـه ويظـل يؤمـن بـها إلـى آخـر أيـام حياتـه. وهـى أنـه لا يخطـط لنفسـه فـى سـبيل الوصـول إلـى آمـال حياتيـة مـن مـال أو منصب أو شـهرة. وإذا كـان السـباعى عـادة لا يشـير فـى مجلسـه إلـى ظـروف التحاقـه بالكليـة الحربيـة، وإذا فعـل فـهو لا يذكـر التفـاصيل. ففـى إحـدى رواياتـه يفعـل، ربمـا لأنـه لـم يسـأل وإنمـا جـاءت المناسـبة طبيعيـة يحتاجـه تسلسـل الأحـداث.

وإزاء إلحاحنا على السباعى فى التساؤل يحيلنا إلى رائعته المعروفة "رد قلبى". يكتب السباعى على لسان أحد شخوصه وهو فى الواقع يشير إلى حياته هو: وعجيب هذا القدر .. يجعل مصائرنا معلقة بحوادث تافهة .. تبدو فى ظاهرها لا تربطنا بها صلة .. ولا نكاد نلقى لها بالاً ولا نهتم بأن تحدث أو لا تحدث .. ومع ذلك .. فبحدوثها أو عدم حدوثها تتعلق مصائرنا. لقد ذهبت يوم الأحد الماضى إلى بيت عمى -طه السباعى- وهو موظف فى وزارة المالية، ذهبت لغير غرض معين. وكان من المحتمل جداً ألا أذهب لو كان معى نقود تمكننى من الذهاب إلى السينما، ولم أجد إسماعيل ابن عمى. وأخبرتنى أمه أنه لن يتغيب كثيراً وعرضت على انتظاره، وكان من الممكن ألا أنتظر، ولاسيما وأنى لم أكن أريده فى حاجة ملحة بل لمجرد التسلية. ومع ذلك فقد انتظرت. وقبل أن يعود طرق الباب "فراش"، وأنبأنا أن عمى موجود فى بيت مدير الميزانية .. وقد أرسله ليحضر دوسيها أخضر نسيه على المكتب. وأحضرت زوجة عمى الدوسيه المطلوب، ولكنها قبل أن تسلمه للفراش ثار فى نفسها وسواس جعلها تخشى على الدوسيه. وكان من المحتمل أن يحضر ابنها فى تلك اللحظة فتطلب منه أن يحمل إلى أبيه الدوسيه، وكان الأمر قد انتهى بالنسبة لى عند هذا الحد. ولكن الابن لم يحضر والوساوس تملأ نفس السيدة وأنا جالس أتصفح إحدى المجلات .. ولم تجد بداً من أن تسألنى أن أذهب بالدوسيه

مع الفراش لأسلمه لعمى.

"وذهبت، ووصلت إلى البيت، ولم يكن يبعد كثيراً عن بيت عمى. وكان من المحتمل ألا أعقد الأمور فأعطى الدوسيه للفراش عند الباب، لإدخاله أو حتى أسلمه للخادم الذى فتح الباب. كان يمكن أن أفعل ذلك فينتهى الأمر .. ولكن الوسواس الذى وسوس فى صدر زوجة عمى وسوس فى نفسى .. فأصررت على أن أؤدى واجبى كاملاً وطلبت أن أسلم الدوسيه لعمى.

ودخلت فوجدت عمى جالساً فى رفقة رجل ممتلئ يرتدى روباً وطاقية، وآخر وجيه المنظر يرتدى ملابسه كاملة. ودهش عمى من مرآى وسألنى عما أحضرنى فأخبرته أن زوجة عمى خشيت على الدوسيه من عبث الساعى فأرسلته معى" ..

وضحك الجميع، وأشار طه السباعى إلى حصول يوسف ابن أخيه على البكالوريا وأنه تقدم إلى المدرسة الحربية - وعقب فى شبه أسف: ولكن الحربية مستعصية جداً.

"وقال صاحب الدار فى لهجته المازحة:

- كيف تكون مستعصية .. وأمامك سكرتير مالى الحربية بجلالة قدره.

مشيراً بذلك إلى الضيف الآخر وابتسم عمى وقال راجياً:

- لو تكرم علينا سعادته بالمساعدة فستكون منة لن ننساها.

واستمر صاحب الدار فى مزاحه:

- وكيف لا يتكرم .. إنه أمر .. أنا أعرف جماعة الحربية لا يطيعون إلا الأوامر.

وضحك السكرتير المالى قائلاً:

- سمعاً وطاعة .. سأرجو له مدير المدرسة، إنه صديقى .. وله عندى طلب لن أنفذه له إلا إذا أجاب طلبى. ما اسمك؟

وسرعان ما كتب عمى اسمى على ورقة وسلمها إليه.

"وخرجت وأنا غير مصدق لما حدث .. أترى الرجل سيرجو حقاً؟! وهل إذا رجا سينفذ مدير المدرسة رجاءه؟

"وهززت كتفى فى استخفاف .. إن المسألة كلها غير ذات أصل .. كلها بنت الظروف .. وفى عدة مراحل فيها كان يمكن أن تتوقف. وكما أنها حدثت فقد كان يمكن ألا تحدث .. فليس هناك داع للتفكير فيها .. وتعليق مصيرى بها.

"وأخذت أبعدها عن تفكيرى كلما دفعنى الأمل إلى التعلق بها. والآن .. أجد المعجزة قد حدثت .. وأجد نفسى قد قبلت .. وكان من المحتمل ألا أقبل. لو كان معى نقود وذهبت إلى السينما، أو لو وجدت ابن عمى. أو لم يوسوس الوسواس فى صدر أمه .. أشياء كثيرة جداً كان يمكن ألا تحدث .. فتمنع قبولى .. ومع ذلك حدثت .. وقبلت .. أهناك أعجب من مصائرنا المعلقة بصغائر الأحداث وتوافه الأمور؟"!

(٣٠)

الحياة العسكرية سواء كانت خدمة إلزامية أم كلية حربية، عالم آخر له نبضه وتقاليده ومراسيمه التى لا تناقش من الخارج. وسواء تخرج المنتظم فى سلكها جندياً أم ضابطاً، فإن ما يلاقيه يكاد أن يكون هو هو -خاصة زمان- فى قسوته وضغوطه. وقد كتب السباعى عن هذا الجانب كثيراً فى أعماله القصصية وغيرها. ولا نظن أننا يمكن أن نقدم المزيد من حياته داخل الكلية الحربية أكثر مما فعل صاحبها .. دخل يوسف السباعى الكلية الحربية فى شهر نوفمبر ١٩٣٥، وأحاطت به منذ الدقيقة الأولى القيود العسكرية الصارمة. وبدا يعرف الشخصيات الهامة التى وضعت كل منها بصمتها على حياته داخل حدود أسوارها، ومن أولاها الأسطى خير الذى أزال "تاج الرأس" بضربة ماكينة، فأصبحت ملساء لا تفرق بين موقعها وبقية الرأس .. "كأنها الزلطة أو قرعة البوظة"! والبلوكامين حافظ الذى سلمه كيس المرتبة الملىء بالمهمات التى حملها على كتفه إلى العنبر .. وغيرهما. وانخرط فى الدوامة "صحيان قبل النوبة خوفاً من النوبة وعدو من العنبر إلى الحمام ثم من الحمام إلى العنبر، وحلاقة فى عجلة، ثم فرش

البطاطين والملايات وطيها وضبط مقاسها. ثم لف القالشين وفكه ثم لفه مرة أخرى وفكه ثانية، ولفه ثالثة حتى تضبط التوكة فى مكانها المضبوط بجانب الساق، كأن انحرافها فى مكانها سيسبب انحراف دورة الفلك. وعدو إلى الشاى وعدو من الشاى ولبس أول ولبس ثان و.. و.. كل ذلك كأن هناك إنساناً قد أمسك من يديك وظل يدور بك بلا توقف حتى يقذف بك آخر اليوم على فراشك وأنت فى شبه إغماء، ولم أقل فى شبه وقد كنا نأوى إلى الفراش فى التاسعة .. وفى التاسعة والدقيقة الواحدة نكون فى سبات عميق". ويقول السباعى أيضاً عن هذه الفترة: أخذت تمر بنا اللحظات والساعات والأيام .. ونحن من فرط تعبنا أشبه بالدائرين فى دوامة لا نكاد نحس بشىء مما حولنا، أو أشبه براكب القطار لأول مرة لا يكاد يستقر بصره على منظر حتى يكون اختفى.

ويقول فى موضع آخر "والكلية -لمن لا يعرفها- أشبه بدوامة فى أيامها الأولى .. التى يطلقون عليها .. أيام المستجدين .. والطلبة فيها أشبه بكوم من القش تدور به الدوامة .. لا يميز فيها واحد عن غيره .. ولا يعرف فيها الطالب رأسه من قدمه ولا بداية يومه من نهايته .. بل تظل الدوامة تلف وكأنها تلعب به "دوخينى يالمونة" فلا تتركه عند نوبة نوم إلا وقد أضحى جسداً هامداً لا تبعث فيه الحياة إلا نوبة صحيان".

ولم يكن النبض السريع الذى يناقض رتابة الحياة

العادية خارج الكلية، هو وحده الذى يسبب اضطراب انتظام الجزئيات فى تكوين الطالب المستجد .. بل كانت الأوامر الصارمة والروح الجافة "العدائية" من طاقم ضباط الصف والمعلمين، على وجدان هذا الشاب الخجول الهادئ .. تؤلمه أشد إيلام. ولولا أنه استعان بإرادته بجانب ازدحام يومه بالكثير من الواجبات العسكرية، التى لا تترك له فرصة للتأمل .. لاستقال من الكلية كما فعل غيره. لكنه قاوم .. ولا تعنى المقاومة أن كل شىء سار على ما يرام بالنسبة إليه، وأن صفحة الحياة خلت من المكدرات وأن صاحبنا كان سعيداً. يذكر يوسف أنه إزاء الجو الذى يخيم على الكلية، كان يخشى كل إنسان ويبذل كل جهد حتى لا يخطئ فيجازى. وهكذا التقى وجهاً لوجه "بالعمل" وجديته، وانقطعت الصلات بين الأمس اللاهى الهارب من الواجبات المدرسية، المتحرر بدرجة ما من القيود، الهائم فى سماوات الفن والخيال، المهتم بالأدب وكتابة القصص والأشعار والأزجال .. وبين اليوم يوم "المدرسة" الحربية. وكان هذا أول درس علمته إياه الحياة العسكرية، وانتفع كثيراً بهذا الدرس كما نعرف بعد ذلك. وإذا كانت مداومة ممارسته بعد خروجه من الكلية، قد أخلته من الأشواك .. إلا أنه لم يكن كذلك فى أيامه الأولى من الكلية.

وهناك أكثر من شخصية لعبت دوراً بارزاً "إرهابياً" فى حياة السباعى فى ذلك الحين، الأول .. الباشجاويش "رقيب أول" عبد العليم التعلمجى. وكان حسب وصف فناننا

"عينان تبرقان فى منتصف رأسه وصدغان عريضان، لا تفتأ ضروسه تتلاعب من ورائهما علامة الغضب"! ولم يكن هذا المعلم يتساوى مع غيره من ضباط الصف فى السوء "الإدارى" فحسب، بل كان يشكل أيضاً مصيبة يومية لا يدرى صاحبنا كيف يتخلص منها، رغم أنه غير مسئول عنها. والحكاية أن أحد زملاء الدفعة كان به بعض الشبه بيوسف واسمه قرة، ولما كان بصر التعلمجى ليس حاداً بما فيه الكفاية، فإنه لم يكن يفرق جيداً بين الطالبين. وجاء عدم التفرقة هذا فوق دماغ السباعى. كيف؟ بينما كان يتبع هو التعليمات بدقة شديدة، كان إعجاب الباشجاويش يبديه لقرة .. والعكس صحيح أيضاً. فأخطاء قرة وبالتالى انتقادات المعلم له ونهره إياه، يتحملها السباعى! ولم يحاول قرة بالطبع أن يصحح الوضع، وتغابى عما يحدث. وكان يوسف يخشى ألا تقف البلوى عند هذا الحد .. فهى يمكن أن تتصعد عن طريق صيحات عبد العليم فتصل إلى أذن الضابط -وما أدراك ما الضابط- "فتسوء سمعتى لديه سماعياً"!

ومن الطريف أن يوسف فى البداية كان بعيداً عن فهم ترصد التعلمجى له، وهو يقسو على نفسه ليبدو فى أحسن صورة .. ورغم ذلك لا يوفق فى نوال رضاء الباشجاويش! ولم يكتشف السر إلا بعد أيام طويلة، ولكن ماذا يفعل حتى يستريح من هذه المصيبة التى تحط على دماغه؟ لم يصنع شيئاً لأكثر من سبب .. إنه فى ساعة وقوع الخطأ من قرة لا

يستطيع أن يفتح فمه، فالكلام أثناء الطابور جريمة كما هو معروف. أما بعد الطابور فما أكثر الأعمال التى يندفع إليها الطلبة إثر الأوامر التى تتساقط عليهم كالمطر، فينطلقون كما يصف السباعى .. كالفئران المذعورة. ولكن لماذا لا يلفت معلمه إلى خطئه بشكل ما؟ تساؤل لا يلقيه إلا ساذج أو امرؤ لا يعرف ما هى الحياة العسكرية المصرية وخاصة فى الثلاثينيات. لقد كان أى واحد من ضباط الصف، يبدو لدى العساكر المجندين أو الطلبة فى الكلية الحربية "غولاً لا يقاس به غيلان الحواديت، التى تحترم على الأقل إلقاء التحية .. "ولولا سلامك لأكلت لحمك قبل عظامك"! ومن ناحية أخرى فقد كان مثل هذا "اللفت" مقضى عليه بالفشل، حتى لو استطاع الطالب أن يتمالك نفسه ويذهب بقدمه إلى عرين الأسد ويقف أمام الباشجاويش .. لسبب آخر هو ثقة التعلمجى بنظره ونفسه .. فكيف يمكن أن يشكك فيهما؟! ورغم هذا الاستسلام فقد آذنت التهمة بزوال من حيث لا يدرى السباعى ولا يحتسب .. فى أحد الطوابير "سرح" يوسف لدقيقة واحدة كانت كافية لتمتص انتباهه، ويختلط عليه الأمر عندما نادى عبد العليم على الطابور: لليمين در. وقام الطلبة جميعاً بالحركة إلى اليمين، بينما صاحبنا وحده هو الذى استدار إلى اليسار! وهاج الباشجاويش وماج، ولعن قرة وآل قرة! ومع الرعب الذى اجتاح يوسف، فإنه لم يلبث أن تنفس الصعداء، فقد أنقذ .. واكتشف الحل. وأحس ربما لأول مرة منذ دخوله

الكلية، أنه سعيد ويطير فرحاً. ولكنه كتم انفعالاته خوفاً من أن تشى بالحقيقة! وهكذا تبادل كل من قرة ويوسف - ومكره أخاك لا بطل- لعنات التعلمجى ومديحه .. حتى انقضت فترة تعليم المستجدين، وتخلصا بالتالى من شبح التعلمجى وعدم تمييزه!

وتأتى شخصية اليوزباشى على عامر -الفريق على عامر فى الستينيات- لتكون الشخصية الثانية التى بما تمثل، تسبب لطالب الكلية يوسف السباعى المزيد من الفزع. والسبب أن على عامر كان ضابط السباحة. وفى ذلك الحين لم تكن السباحة من هوايات يوسف السباعى كما هى اليوم .. بل كان أبعد الناس عنها وأكثرهم خشية منها. كان يخاف النزول إلى الماء، لسبب بسيط هو أنه لم يلمسه قبل اليوم إلا عن طريق الحنفيات والدش! صحيح أنه عرف "المغطس" يوماً فى حياته، ولكن ذلك كان مرة واحدة ومنذ زمن بعيد عندما كان فى السادسة من عمره وأخذه أبوه معه إلى مغطس حمام الناصرية .. ونزله، ولكن ما دخل ضابط السباحة بالطالب الذى يكره السباحة، ولا يعرف كيف يعوم؟ أوثق الصلات .. فالرياضة على اختلاف ألوانها فى الكلية الحربية، ليست هواية تتبع المزاج الشخصى الذى يرفضها أو يقبلها حسب حريته، بل هى عمل ينبغى أن يجيده الطالب مثل أى مقرر من المقررات الدراسية والعسكرية. وهكذا بدت السباحة وحوضها وضابطها، شيئاً أو أشياء تبعث على الفزع، ويعمل لها ألف حساب قبل أن تقع وأثناء وقوعها

وبعده أيضاً .. انتظاراً لعودة البلاء مرة أخرى! ولعل أسلوب التعليم نفسه هو الذى كان يبعث الرجفة فى قلوب يوسف وزملائه، أكثر من أى عامل آخر. يفسر لنا السباعى هذا الأسلوب بقوله "كانت طريقة تعليمنا السباحة هى الطريقة العملية المثلى .. ولكنها كانت أيضاً الطريقة التى تجعل حمام السباحة شبحاً ينغص علينا حياتنا. كنا نقف على حافة الحمام من الناحية العميقة .. ونحن .. الخمسة أو الستة زملاء التعاسة -الذين لا يعرفون السباحة- نؤمن بالله ونؤمن بقوله تعالى "لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة"، وكنا بلا جدال لا نجد فى الحمام إلا تهلكة كبرى .. ومع ذلك لا يكاد الشاذلى -صف الضابط المسئول- ينادى: استعد. انزل .. حتى نكون قد أطعناه وعصينا الله .. وألقينا بأيدينا إلى التهلكة إلا واحداً منا .. هو الأخ بدر الدين .. فقد كان لا يلقى بيديه بل برجليه. وكنا عندما نقفز بأنفسنا فى الماء نحاول أن نبذل جهداً مضنياً .. لا فى سبيل العوم .. بل فى سبيل البقاء على قيد الحياة أطول مدة .. حتى نصل إلى منتصف الحمام ونشرف على الغرق فيهبط بعض معلمى الحمام لإنقاذنا"!!

ولم يكن هذا الجهد الشاق بما يلازمه من فزع، الذى يقوم به الطلبة المستجدون الذين يجهلون السباحة، مناسباً من وجهة نظر صف الضابط .. للاكتفاء بهذا القدر منه. كان يريد أن يتمتع بالحد الأقصى من التسلط والتحكم على الدفعة الجديدة، ولذا كان يدعو إلى المزيد من التنكيل بهم

بحجة الارتقاء بالتمارين، إلى الدرجة التى يحاول فيها إثناء الضابط الذى يرى كفاية ما أداه الطلبة فى يومهم، محتجاً وهو يقول: انصراف إزاى يا فندى .. دول ما تعبوش .. بيستهبلوا؟! ولذا لم يكن غريباً أن يكون منتهى أمل صاحبنا فى ذلك الحين فى وجه الله -ولا يكثر على الله- شيئان أو أمنيتان .. "الأولى أن تهب عاصفة رملية مريعة لم تعهدها مصر، لكى تردم حمام السباحة! والأمنية الثانية أن يكون الشاذلى فى قاع الحمام قبل أن تردمه العاصفة"!!

وهكذا تعلم السباعى من العوم ..

وبدأت حياة مغايرة تماماً .. منذ الدقيقة الأولى فى النهار إلى آخر ثانية فى اليوم المدرسى الذى يستمر حتى الخامسة مساء، بخلاف الواجبات. يبدأ اليوم بـ"نوبة صحيان"، ولم يكن الأمر المفزع هو فى الاستيقاظ فى هذه الساعة المبكرة -الخامسة صباحاً- كل يوم، بقدر ما كان يرجع إلى ما يحيط بهذا الصحيان من يقظة بالأمر .. قبضة اليد الخشنة الجافة التى تكاد تكون عدائية! ويصفها السباعى بقوله: يقظة لا ككل اليقظات .. لا تثاؤب ولا تمطى ولا هرش رأس ولا حك جلد .. ولا فتح عين ثم غلقها ثم فتحها ثانية .. لا شىء من هذا أبداً .. بل هبة كعاصفة مفاجئة بعد طول سكون .. عقب نفخة فى البورى للنوبة المخيفة .. "نوبة" صحيان. وطرقات شديدة من أومباشى "الصف" أى حكمدار العنبر وصيحة ناهرة تشتمل على "صحى منك له!" .. وفى دقائق يكون الاصطفاف بملابس

النــوم .. البيجامـــات أو الجلاليـــب والشباشـــب والطرابيـــش .. لإعطـاء تمـام يـا أفنـدم مسـتجد" .. أى أن كـل شـىء علــى خـير ما يـرام، أو كمـا يستشـعر الطلبـة ساعتها "إننـا علـى خـير حـال مـن الصحـة والعافيـة، وإنـه مـازال بنـا رمـق يعاوننا علـى تحمـل متاعب يـوم جديـد"!

ويتلـو هـاتين الخطوتيـن .. خطـوات أخـرى قبـل أن يبـدأ اليـوم أو العمـل الدراسـى، وهـى الإسـراع بيـن الفـراش والـدولاب والحمـام والسـلاحليك وعلبـة الجـلا وحـق الورنيـش، لـترتيب السـرير والاغتسـال وتلميـع الحـذاء وارتـداء ملابـس ثـم الانتظـام فـى الطـابور والذهـاب لارتشـاف الشـاى الصبـاحى! وبعـد هـذا كلـه .. الذهـاب إلـى أرض الطـابور حيـث يبـدأ البرنـامج اليومـى!

(٣١)

ومع أن نظام الكلية الحربية كما هو معروف "داخلى" أبعد صاحبنا عن البيت تماماً .. وبذلك تخلص من عشرات الأشياء الممنوعة، التى كانت الست أم يوسف الآمرة الناهية المتخيلة الأخطار والموت تحيط بأولادها فى كل خطوة خارجه ثمنعهم عنها .. إلا أن يوسف السباعى ظل يقاسى من آثار هذه "المخاطر" طوال دراسته فى الكلية ولكن بطريقة عكسية .. بشكل آخر لم تتخيله الست عيشة، والتى لو عرفت ما يجد ابنها الحبيب من بلاء لعدم إجادته إياها، لدفعت به دفعاً إليها. بدلاً من أن تنهاه عنها. وكانت السباحة هى العالم المجهول الأول الذى اضطر كارهاً إلى ارتياده حسب تعليمات الكلية. وبعدها جاء ركوب الدراجة.

كان اكتشاف يوسف لبديهية إتقان طالب الكلية الحربية لركوب الدراجة، بمثابة المصيبة التى تنتظر كالقدر المترصد. لقد فوجئ يوماً ولم يكن قد مضى على وجوده بالكلية أيام معدودة، بمخزن الدراجات. وعلى الفور زايله اطمئنان قديم وصدره ينقبض لمرأى "العجل" فى أبعد

الأماكن التى كان يسره أن يلتقى بها فيه. وتساءل بينه وبين نفسه: لماذا؟ وما دخل البسكلتات فى دراسة عسكرية؟ وكأنه بذلك يعرض علامة استفهام أخرى وهى: وما دخلنا نحن الطلبة بهذه الدراجات؟ ولفزعه لم تصدر الأسئلة فى البداية عن لسانه، ولكن تزايد هذا الفزع دفعه إلى أن يسأل غيره، وعرف أنها تستخدم فى شىء اسمه .. طوابير الطبوغرافيا .. وأنهم سيخرجون إلى هذه الطوابير بعد أيام لن تطول. ورغم أن طالبنا الصغير لم يكن "ناقصا" فى هذا الموقع، هما جديدا .. إلا أن هذا الخبر شكل له هذا الهم الجديد. ولكنه حمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه، أن جعله يكتشف هذه الداهية مبكرا وأن يستعد لها، مهما غمره هذا الاستعداد بالقلق.

وأخذ يتعلم ركوبها .. ومجرد أن فعل سارت بذكر اسمه فى الكلية الركبان، ووجد الطلبة فى مختلف السنوات فيه شيئا نادرا .. "أذكر أنى شعرت بالكثير من الخجل وأنا أجد نفسى -دون بقية خلق الله الذين فى الكلية- الوحيد الذى لا يركب العجل. وبدأت أضيف شبحا جديدا .. وهو شبح الطبوغرافيا .. إلى الأشباح التى تخيفنى فى الكلية".

وفى هذا الجو تعلم السباعى ركوب الدراجات!

وجاءت الطبوغرافيا ..

ولكن أولا ما هو أو هى الطبوغرافيا؟ لنبحث أولا عن رجل عسكرى يقدم لنا عنها تعريفا نفهمه، وليكن يوسف

السباعى نفسه الذى يجيب: هو علم مسح الأرض أو رسم الخرائط .. والطبوغرافيا العسكرية هى كل ما يتعلق بسطح الأرض من الزاوية العسكرية .. من رسم خرائط الأماكن غير المرسومة وتكبيرها للمقاييس المختلفة وإيجاد محل الإنسان عليها والسير بالبوصلة والنجوم .. أو هو باختصار .. علم هداية العسكريين فى المعارك .. والعصا التى يتلمسون بها طريقهم فى الأراضى المجهولة. ورغم هذا التعريف الواضح السهل بالنسبة لنا ولقائله، إلا أنه لم يكن كذلك بالنسبة للأخير أيام زمان فى فترة المستجدين .. لا لأن هذا العلم تغير أو اختلف مفهومه، ولكن لأن أسلوب الدرس نفسه الجامد .. كان يعتمد فى الشرح على أمثلة سخيفة تقليدية غير مقنعة، أشبه فى نتيجتها بكتب الأزهر القديمة .. ولهذا كان المدرس فى واد والطلبة فى واد.

وإذا كان الطبوغرافيا بالذات يضيع داخل الكلية فى عدم الفهم بين رموز الدرس وشخص المدرس، فإنه فى خارج الفصل أو الكلية .. أعنى فى طابور الطبوغرافيا يسمح بأشياء يحس معها الطالب أنه عاد ثانية إلى الناس العاديين المنطلقين فى الشوارع والمتحررين من القيود العسكرية الصارمة. ورغم أن هذا الطابور فى البداية كان مصدر فزع لا يوصف لصاحبنا من ناحية عدم معرفته بركوب الدراجة، ثم بعد ذلك بعدم إجادته هذا الركوب .. وخاصة عندما كان يقودها محملاً بالبلانشيطة -لوحة ذات حامل من ثلاثة قوائم مرتفعة تستعمل فى مسح الأراضى- وشنطة الجراية

وهـذه المظلـة فـوق الطربـوش لحمايـة العيـن والقفـا .. إلا أنـه كـان يعـد هـذا الطـابور رحلـة إلـى خـارج الحـدود، ولا يـهم أن كانت الحدود هـذه المرة هـى حـدود أسـوار الكليـة الحربيـة!

وهـذه "الرحـلات: لـم تكـن تخلـو مـن الأشـياء الصغـيرة التـى تبـهج. كمـا حـدث يومـاً -وكـان هـذا فـى أول طـابور طبوغرافيـا- عندمـا وصـل الطلبـة إلـى المنطقـة المـراد رسـمها، وكـانت مجـاورة لسـراى القبـة وكلـها -زمـان- أراض زراعيـة .. وتفـرق الطلبـة، ووجـد صاحبنـا نفسـه بجـوار السـراى مـن ناحيـة وغيـط خيـار مـن ناحيـة أخـرى .. وكـان هـذا هـو نعـم المـراد مـن رب العبـاد فعـلاً، فـهو لا يحـب شـيئاً مثـل الخيـار! وكـانت فرحـة، لـم يملـك إزاءهـا إلا أن يصيـح مـن بعيـد بصاحبه حسـن فريـد الـذى كـان وحـده قريبـاً منـه.

- يـابو علـى .. مانفسـكش تـأكل خيـار؟
- أى واللـه .. يـاريت.
- آدى احنـا فيـها.
- إزاى؟
- قدامـى أهـه غيـط خيـار بحالـه ..

ولـم يكـذب صديقـه خـبراً وأسـرع إليـه قـائلاً:

- يـاللا بينـا نـنزل ع الغيـط.
- لكن ح نعمـل إيـه فـى صـاحبك موافـى (معلـم الطبوغرافيـا)
- ولا يـهمك .. مـش بـاين لـه أثـر.
- طيـب وصـاحب الغيـط؟
- يـا أخـى نديلـه قـرش!

وعلى أثر هذا الحوار السريع المتبادل، هرع حسن مع يوسف وأسرعا بالنزول إلى الحقل، والتقيا بصاحبه الذى رحب بهما.

- عايزين نأكل خيار يا حاج.

- كلو زى ما أنتو عايزين .. بس ما تاخدوش معاكم.

- (فى نفس واحد) حاضر!

ويقول السباعى: وانطلقنا فى الغيط .. وليس ألذ من الخيار فى غيطه لاسيما إذا كان مجانا! وأؤكد أننا أكلنا من الخيار ما لم يخطر على بال الرجل أن آدميين يمكن أن يأكلا مثله .. وأؤكد كذلك أنه ندم أشد الندم على تصريحه لنا!

ويبدو أن الطالبين العسكريين نسيا نفسيهما تماما، وشغلتهما الحياة الحرة المنطلقة التى تعاش خارج الكلية الحربية، ولم يذكرا أنهما جاءا هذا المكان لعمل آخر غير التهام الخيار إلى درجة "الفجعنة" .. لأنهما لم يكتفيا بذلك، فانغمسا فى شىء آخر بمجرد اكتظاظ المعدة بالخيار وهو .. صيد السمك! وإذا كان السباعى هو المشجع على إضاعة الوقت الأول، فإن زميله هو الذى فعل الثانية ببساطة .. لقد وجد فلاحا يصطاد السمك بسنارته، وبلا مناسبة صاح بصديقه بصوت عال رغم أن المسافة بينهما سنتيمترات، ويبدو أنه الإحساس بفك القيد والحرية:

- اسمع يا سباعى .. الظاهر أن الترعة دى مليانة سمك

.. ما تيجى نصطاد شوية؟

- نصطاد .. نصطاد بإيه؟

- بأيدينا .. دى الترعة مش غويطة.

- أما أنت عبيط بصحيح .. فيه حد فى الدنيا يصطاد سمك بأيديه! ياالله أحسن عمك موافى يطب علينا.

ورغم أن السباعى هو الذى تذكر حياتهما العسكرية كلها عندما أشار إلى معلم الطبوغرافيا، إلا أنه هو نفسه الذى تناسى هذا فى اللحظة التالية .. وهو يجد صديقه يقفز صارخاً متحمساً كلما شاهد فقاعة تظهر على سطح المياه .. مؤكداً أنها سمكة أو وراءها سمكة! وإزاء هذه المظاهرة الاحتفالية الصغيرة التى أقامتها الطبيعة، لم يعد فى الإمكان الوقوف عند حدود الابتهاج أو الفرجة على ما تحفل به الترعة من خيرات. بل تعداها إلى المشاركة الممتعة والزميل يمسك بشنطة الجراية الخاصة به ويفرغ ما بها، استعداداً لتحويل الكمية الهائلة من السمك فى الترعة إلى حوزته. وفقد يوسف كل مقاومة، و"استخسر" أن يضيع هذه الفرصة الثمينة التى بدت ساعتها أن الدهر قلما يجود بمثلها، فعول على الإسهام ويضع "دقائق" أو غير دقائق لا قيمة لها على أية حال فى عمر الزمن. وفى هذه اللحظة التى لمح فيها حسن فريد سمكة تسبح فى السطوح العليا من الماء، بلغ حماسه الذروة .. فأخذ يقترب ويقترب وبيده "شبكته" وازداد ميلاً و .. سقط فى الترعة! وتتابعت الأحداث بسرعة، إن السقوط المفاجئ وسط الفرحة، ألجم

صاحبها فلم ينطق! ولم ينبس يوسف بحرف هو الآخر، بل أسرع يمد يده محاولاً جذبه، ولكنه بدلاً من أن يجد حسن بجانبه وجد نفسه بجانب حسن فى الترعة .. غارقين حتى ما فوق الركبة فى الوحل والطين.

ساعتها لم يكن الغرق فى الحساب، سواء أكانت الترعة عميقة أم غير عميقة، فالمأساة ليست فى فقدان الحياة بقدر ما هى فى اجتناب العودة إلى الكلية الحربية بهذه الملابس العسكرية "المطينة" بأى شكل.

وبدت عقارب الساعة تقفز قفزات غير عادية والكآبة واليأس والألم الأخرس تفعل فعلها .. والطالبان قد انقلب مرحهما غماً. وهما يعملان أصابعهما ولو استطاعا لشاركت كل خلية فيهما، بغسل سيقانهما وجواربهما وأحذيتهما وقلشينهما وتجفيفها. و"المعجزة" هى التى سمحت للوقت بأن يستوعب هذه العملية المركبة بشكل ما، قبل أن يتجمع طابور الطبوغرافيا ثانية ويعود الطلاب إلى كليتهم.

وبينما كانت الساعات التى قضاها الطلبة منطلقين فى الحقول وفى هذا الجو البكر والتنفس النقى وأخذ إجازة مؤقتة من الصرامة العسكرية، تطبع وجوههم ومرحهم فى العودة .. كان الرجوع حزيناً بالنسبة إلى طالبينا لا بسبب ما فات بل لما هو آت. لقد خرجا فى الطابور أصلاً للقيام برسم منظور معين، ولكنهما بالطبع لم يفعلا. لقد عاد كل طالب ولوحته ملآى إلا لوحتيهما .. فكل منهما أنظف من

الصينى بعد غسيله .. بيضاء من غير سوء وعندما انهمك الطلبة فى تشطيب رسومهم وتنظيفها وكتابة بياناتها ووضع مقاييسها، غلب كلا منهما القهر حتى كاد يبكى. فماذا يمكن أن يقولا وصفحة الإجابة خالية من خط واحد، وما هى حجتهما؟ وسد اليأس بما يحمل من عذاب وألم وفضيحة وعقاب .. أبواب النجاة والوقت يمر. ولكن فجأة يبرق خاطر عجيب فى ذهن يوسف، هتف على أثره لصاحبه بصوت هامس:

- تعرف تجيب دفتر التليفون؟
- (دهشا) دفتر التليفون .. ليه؟
- بلاش تضييع وقت .. اجر هاته واسمع الكلام.

وصدع صاحبه بالأمر، وإن خيل إليه أن يوسف يهذى .. ولكن مرحبا بالهذيان مادام يحمل الإنقاذ. وهكذا تسلل حسن من الفصل وعاد بعد لحظة ومعه دفتر التليفون. ولندع الحديث للسباعى .. "وقلبت صفحاته .. وكانت توضع فى نهاية الدفتر وقتذاك خرائط لكل أحياء القاهرة .. وفى سرعة البرق نزعت الصفحة التى بها منطقة سراى القبة ولم تنته الحصة حتى كنت وصاحبى قد نقلناها على لوحاتنا بالمقياس المطلوب!" وأنقذ هو وصاحبه!

(٣٢)

نبض الحياة أو مجابهتها يعنى قليلاً أو كثيراً تجاوز النظريات إلى اتخاذ المواقف العملية، والكتب إلى الاندماج فى الصراع البشرى، والمبادئ إلى مئات التنازلات. كما تعنى هذه الحياة أيضاً، الاعتماد على النفس أولاً والخروج عن دائرة الأسرة والحب والرعاية والحنان الخالص إلى أضدادها التى يموج بها المجتمع. والمرء عادة يتصل بالحياة العملية ويعرفها بعد أن يتخرج، أما إذا التحق بدنيا العسكرية مثل الكلية الحربية .. فهو يأخذ فى عقد أواصر العلاقة بينه وبينها منذ اليوم الأول الذى دخلها فيه .. أى على العكس قبل أن يتخرج بوقت طويل. وإذا كان الفارق بين حياة التلمذة وبين الحياة العملية، هو الفارق بين الوهم والحقيقة، فقد قاسى يوسف صنوفاً من العذاب فى المدرسة الحربية لم يكن أهونها .. ركوب الخيل.

وهذه الرياضة تبدو فى أحيان كثيرة بالنسبة إلى الحياة المدنية، شيئاً رقيقاً "راقياً" يستأهل أن يحسد مزاولها .. لأناقة الملبس من ناحية، وللأجواء الأرستقراطية التى تحيط بمظاهر الفروسية عادة من ناحية أخرى! وإذا كان المظهر

يمكن أن يوحى بذلك، فإن ما تحت السطح هو أبعد الأشياء عنه. وقد عرض السباعى لقصة تعلمه ركوب الخيل فى إحدى مقالاته وهى "ماريكا" التى لم يلبث أن جعلها أحد فصول كتابه "من حياتى".

والانطباع الأول الذى يتركه ذكر ركوب الخيل سواء لدى طالب الكلية الحربية أم المرء العادى، هو الفارس الصائل الجائل المكر المفر، الذى يحصد الرءوس حصداً أو يشق عدوه بالطول قبل العرض من قمة رأسه إلى أخمص القدم .. هذا إذا لم يشق بنفس الضربة حصان عدوه أيضاً كما تصور الملاحم الشعبية .. إذا نزل هذا الانطباع درجة، فهو أحد فرسان رعاة البقر -ولنذكر أن أغلب إنتاج السينما الأمريكية فى ذلك الحين أيضاً كان لأفلام رعاة البقر- وحبله ذو الخية الذى يصطاد الأعناق "فشر" صيد السمك! .. وطاقم مسدساته الكامل الذى تأتى رصاصاتها على قبيلة بأكملها من الهنود الحمر المساكين. أما إذا هبط تصور الفروسية درجة أخرى، فهو فارس هندى أحمر تدفعه شجاعته -فى إطار صرخاته المفزعة التى "تلبش" الجانب الأمريكى فى الفيلم أم المتفرج المصرى على السواء -على عمليات انتحارية فى أغلب الأحيان. ولم يكن خيال الطالب يوسف السباعى يتصل بأية واحدة من هذه الصور، فقد كان أشد تواضعاً من أن يفعل. واكتفى بأدنى درجات السلم الذى يتخيل إزاء تكامل الفرس والفارس، وهو مغامرة يسيرة يخطف فيها فتاة الأحلام فى رحلة قصيرة إلى

حديقة النزهة أو حديقة الأسماك! وفتاة الأحلام كانت موجودة .. "قطعة فنية رائعة .. ذهبية الشعر، خوخية اللون والملمس". كما يصفها، رغم أنها فى الثالثة عشرة من عمرها! وكانت فتاة يونانية ابنة صاحب فرن أفرنجى بروض الفرج. ولم يكن صاحبنا بعيدا عن اهتمامات ماريكا بالمرة .. واستطاع أن يفعل هذا بنوع من الدهاء .. فعن طريق شراء الكثير من القراقيش والبقسماط، كسب صداقة أبيها ومعرفتها هى .. ولم يكن هذا بالنجح القليل، إذا عرفنا أن التنافس على الحسناء الصغيرة كان شديدا بين صبية روض الفرج ومدرسة شبرا الثانوية!

ولكن ثمن استكمال الأداة كان غاليا، بحيث حجب فى النهاية، هذا الهدف الحلو وبطلته ماريكا. فاعتلاء الحصان والجرى به والبقاء على ظهره فى وضع الثبات والصدر بارز والرأس مرفوع .. والتراب يتطاير مكونا مع العرق لزوجة قذرة .. هذا كله وغيره، أبعد ركوب الخيل عن موضوع الفروسية وجعله شيئا دراسيا بشعا، همومه أكثر من مباهجه. ويكفى أن يكون منتهى أمل الطلبة، أن يريحهم السقوط من فوق ظهر الحصان، من رجرجته والاستمرار فى معاناة حالة الزلزال المتحرك. وإذا لم يتحها القدر، فليصطنعها الطالب. وحتى فى هذه الحالة الأخيرة فهى تنتهى بالفشل، لا لأن الطالب لا يعرف كيف يسقط نفسه من فوق الحصان، بل لأنه لو فعل وترك صاحبه أى الحصان، فإن الحصان لا يغادره .. بل يبقى واقفا بجواره ينتظر

نهوضه مهما حاول الثانى أن يدفعه بعيداً عنه ويرتاح منه! حتى يلمح التعلمجى الطالب، فيصيح به ناهراً، ويعود الطالب ثانية إلى الركوب، وعندئذ فقط يتحرك الحصان اللعين .. قبل أن يأمره فارسه!

ومن الطرائف التى يذكرها يوسف السباعى فى هذا المجال، أن معلم الركوب وقد طلب منهم رفع الركاب -الذى يوضع فيه القدم ويساعد على الثبات والتوازن- أن جرحت ركبته العارية من جراء الاحتكاك المستمر بالحصان .. وكبر الجرح ولم يعد من المستحسن الإغضاء عنه وعن آلامه. وبدأ صاحبنا يفكر مجرد تفكير فى الحصول على "أورنيك عيادة"، يذهب به إلى المستشفى. ونقول مجرد تفكير، لا لأنه من هذا الصنف الذى يفزع من رؤية الطبيب ويخاف أو يرهب اسم المستشفى -وهى عندنا جميعاً وخاصة فى تلك السنوات- مثال للمجازر والإهمال والرشوة. بل لشىء آخر لا يعرفه إلا الذين يتعاملون مع الحياة العسكرية، وهو أن تقديم العيادة والذهاب إلى المستشفى، يعد عادة الملاذ الأول فى أسلوب التحايل .. الذى يلجأ إليه سواء من الطلبة أم من المعلمين .. الذين يتهربون بشكل مؤقت أو مستمر من هذه الحياة العسكرية. ولذلك لم يرد يوسف أن يستخدم مثل هذه الأداة سيئة السمعة! حدث هذا فى البداية، ولكنه اضطر أن يكون من هذا الاستثناء الذى يطلب أورنيك العيادة والمستشفى، وهو مريض فعلاً.

وذهب إلى المستشفى، وانتظم مع الطلبة أصحاب

الأرانيك فى طابور الكشف، وكان الطبيب قد حضر، وفوجئ السباعى بظاهرتين، الأولى أن الطبيب لا يقوم، بأى نوع من الكشف أو الفحص، بل يكتفى بحديث الطالب عن مرضه .. فيصف العلاج .. حتى من غير أن يبصره أو يرفع رأسه الغارق فى الأرانيك إليه! .. وهذه هى الظاهرة الثانية! وعندما جاء دوره، دار هذا الحوار السريع التلغرافى بين الاثنين .. الأول يقوم بإجراءات ملء الأرانيك، بينما هو يسأل:

- ها .. وأنت؟ عندك إيه؟

- ركبتى.

- مالها؟

- متعورة.

- من إيه؟

- من الركوب.

ويقول يوسف السباعى: ودون أن ينظر إلى الطبيب التفت إلى التومرجى الواقف بجواره وقال ببساطة:

- جبيرة .. اللى بعده.

ولم أترك مكانى ولم أترك "اللى بعدى" يتقدم إليه .. ورفع الطبيب بصره إلى وجهى لأول مرة متسائلاً:

- ايه .. فيه حاجة؟

وتلعثمت وقلت أحاول أشرح له المسألة .. فقد اعتبرت أن وضع الجبيرة على الجرح سيؤلمنى أشد الألم ..

والمسألة بعد كل هذا لا تحتاج إلى جبيرة .. قلت متلعثما:

- بس ركبتى ما تستحملش الجبيرة.

وقبل أن أتم حديثى، نظر الدكتور إلى التومرجى وقال بنفس البساطة.

- طيب .. حطها له فى ركبته الثانية.

وقبل أن أنبس ببنت شفة جذبنى التومرجى من أمامه مجيبا "حاضر يا فندم"، وهكذا استلقيت فى فراش المستشفى وبركبتى السليمة جبيرة! .. وركبتى المجروحة كما هى!!

على أية حال، يكفى أن نعرف أن ضغط هذه الرياضة أو قرف هذا الدرس ومتاعبه على يوسف السباعى .. أى ركوب الخيل، هو وحده الذى جعل صاحبنا فى الكلية الحربية يتخفف من إصراره الصارم على تجميد نشاطه الأدبى أيا كان نوعه، متفرغا تماما للتلمذة كما أشرنا من قبل. وهذا التخفيف لم يصل إلى أن يكون استثناء للقاعدة، لأن يوسف لم يفعله كلون من النشاط الفكرى أو الفنى اضطرمت به أعماقه، ولكنه ألفه اضطرارا .. تيسيرا على نفسه وزملاته من بشاعة حصة الركوب وقسوتها، والمضطر يركب الصعب. وتحولت القصيدة التى كتبها إلى جزء من الدرس نفسه، أو بلفظ أدق نشيدا لطابور الركوب المفزع أو "حصة العذاب" كما لا يزال السباعى يصفه.

وكان أكثر ما يسبب فزع الطلبة من هذه الحصة، هو ..

الغار ولكن ما هو الغار؟

الإجابة كما يقدمها ضابطنا السابق الذى نكتب عنه: هى انطلاق الحصان خببا، تجعل الراكب يعلو ويهبط ويهتز يمينا ويسارا على ظهر الحصان كأن واحداً يهزه بعنف من رأسه ليدقه على ظهر الحصان! وكانت هذه الخطوة محتملة عندما نضع أقدامنا فى الركاب الحديدى، فقد كنا نستطيع أن نستند عليه فيمنحنا بعض الأمان ويجعلنا نرتكز عليه بحيث نتجنب الضربات السريعة المتلاحقة على ظهر الحصان. ويمكننا أن نحول الغار الثابت إلى غار متحرك وهو أخف كثيرا. وكان شر نداء يمكن أن تسمعه آذاننا هو نداء التعليمجى علينا ونحن نمتطى الخيل ونسير متلاصقين، فى الخانة التى نجرى فيها التمرين هو "صفا، وشيل الركاب". و"صفا" هذه معناها أنك تستطيع أن تحرك يديك لكى تفعل ما تشاء .. وما تشاء هذه يحددها التعليمجى لك بأن تشيل الركاب وتظل معلقا على ظهر الحصان، وعندما يتأكد من أنك نفذت نداءه يصيح شامتا "الغار" ولا ينتظر الحصان منك أية إشارة أو مساعدة بل ينطلق بك ليرجك بعنف وقسوة، كأنك زجاجة الدواء التى لا تستعمل إلا بعد الرج!

وفى البداية كان الطلبة يحاولون إنقاذ أنفسهم من عملية الزلزال بالإمساك بالقربوص، فيجيئهم صوت التعليمجى صارخا كأنه الموت "سيب يا أفندى القربوص منك له". فترتد الأيدى متصلبة والنفوس واجفة زيادة إلى فزعها،

هذا كله جعل السباعى الذى ورث عن أبيه حفظ الكثير من دواوين الشعر العربى، يردد بلا شعور قول الشاعر القديم:

أنل قدمى ظهر الأرض إنى
رأيت الأرض أثبت منك ظهرا!

ولكن الاستشهاد بهذا البيت الواحد، لا يكفى بعد قليل إزاء ضخامة المعاناة، لكى يكون المتنفس والمرهم عند يوسف، وإذا به يجد نفسه يعود مرة أخرى إلى قول الشعر! وفى ذلك الحين -عام ١٩٣٦- كانت هناك أغنية عاطفية رقيقة بدأت فى الانتشار، وهى التى كتبها حسين شوقى ابن أمير الشعراء أحمد شوقى ولحنها وغناها محمد عبد الوهاب، والتى يقول مطلعها:

سهرت منه الليالى ما للغرام ومالى

وذاعت الأغنية ورددها يوسف ضمن من أحبها، وهكذا وجد لسانه يعارضها .. واصفا فى كلماتها همه وهم أصحابه الطلبة .. يرددونها فى طريقهم إلى طابور الركوب، فى محاولة للتعزية عن آلامهم. ولقد بلغ من مخاطبة القصيدة لواقع حال طلبة الكلية، أن أصبحت لحنا صباحيا ونشيدا غير رسمى، يتغنون به وهم فى طريقهم إلى خانات السوارى، لا فى دفعة يوسف السباعى وحدها بل فيما يتلوها من دفعات. تقول القصيدة:

كفرت منه السوارى ما للحصان ومالى
إن سار بى حصانى أطارنى كالشوال

تطوف بالسرج كفى مقريصا لا أبالى

قل للمعلم رفقا بطلبة .. وجمال

يبدون ذعرا إذا ما حط الحصان وشال

ما أقصر العمر حتى نضيعه فى النضال

والاسمان المشار إليهما هما زميلا الدفعة، عبد الرءوف طلبة وجمال صبرى.

ولم تكن هذه القصيدة هى وحدها التى كتبها يوسف وقتذاك فى مجال عالم ركوب الخيل، فقد عارض أيضا أغنية أخرى معروفة كتبها أحمد شوقى فى هذه المرة ولحنها وغناها أيضا محمد عبد الوهاب .. وهى "النيل نجاشى حليوه أسمر"، عن زميله عبد الحميد لطفى الذى كان يمتطى عادة حصانا ينطبق عليه تعريف الطلبة للخيل ذات "الغار الطرى" أى ناعمة السير هادئة الرجرجة خفيفة النط، وليست "غار ناشف" .. مما كان يعطى لهذا الزميل ميزة الثبات والاستقرار على ظهر الحصان، وبالتالى ميزة الفارس بحق وحقيق. ولكن حدث فجأة أن تغيرت الأحصنة، ولم يتمكن من ركوب حصانه "نمرة ٥٠" وامتطى جوادا آخر من صنف "غار ناشف"، فأدبه حق التأديب وأسكت ادعاءه .. فيكتب يوسف:

خمسين مجاشى حليوه اسمر

أنط فوقه وأقعد مسمر

قربوصه فى إيدى ما يوقعش سيده

شايلين ركابنا يارب جيبه

وهكذا حاول السباعى أن يخفف من بلاء الدراسة وقسوتها عن طريق الفن!

ولكن هذه المعاناة مع ركوب الخيل، لا تمنعه أبدا من أن يحب ويعجب بهذا الحيوان الأصيل الوديع .. ويشير إلى هذا الحب كثيرا فى كتاباته بعد ذلك. بل ويجعله أحد أبطاله فى قصصه وأفلامه السينمائية أيضا. وسيبقى حب السباعى للخيول فى دمه دائما ولسنوات طويلة مستقرا. يقول لأحد تلاميذه فى الكلية الحربية الذى سيصبح هو الآخر صحفيا وأديبا وهو عبد الوهاب داود فى حديث صحفى (مع وزير الثقافة يوسف السباعى):

"إننى أشعر كثيرا بهذا الحنين .. فى زيارتى الأخيرة إلى الكويت .. دعانى صديقى السيد عبد العزيز حسين وزير الدولة الكويتى، إلى مشاهدة مباراة فى سباق الخيل، ثم صحبنى لزيارة إحدى الإصطبلات. لا تتصور مدى حنينى .. وانتعاشى وأنا أسمع من بعيد صهيل الخيول .. أحسست بشعور المحب الذى يزور حديقة ليقف أمام شجرة معينة، ليتأمل فى نشوة اسمه واسم من كان يحب محفورا على جذع الشجرة .. أنا أشعر بانتعاش ذلك المحب بالنسبة إلى الخيل .. فهى أغلى ذكريات عمرى .. فقد أمضيت نصف حياتى مع الخيول أقوم بترويضها، وأشرف على رعايتها ونظافتها من .. تماو وسقى وعليقة". (مجلة الإذاعة والتليفزيون ١٨/٦/١٩٧٤).

(٣٣)

ولكن هل خلت الحياة داخل الكلية الحربية من المباهج؟ بالطبع لا .. فهناك النوم الذى أصبح متعة المتع، أو كما يقول يوسف السباعى: أحب الأشياء إلى نفوسنا وفترة السعادة الوحيدة التى تمر بنا .. أعنى السعادة السلبية .. التى يبطل خلالها إحساسنا بالحياة وبكل ما يملؤها من متاعب ومنغصات حرة صافية لا تشوبها شائبة متعة أو انشراح!؟

ولم يكن نوم الليل وحده هو الذى يداعب جفون طلبة الكلية الحربية هربا من الشقاء، رغم أن هؤلاء الطلبة لم يكونوا فى نفس الوقت من هواة نوم بعد الظهر أو بعد الغداء .. فأكثرهم كان قبل دخوله الكلية .. "جن مصور" لا تسمح له "عفرتته" أو طاقة صباه أن يهدأ قليلا وينام فى القيلولة. ومع ذلك تلهفوا على النوم فى أى وقت وفى كل وقت، وعرفوا لونا منه لم يحسبوا لوجوده حسابا من قبل، وهو نوم الضحى. ونسارع فنقول حتى لا نتهم بالتناقض، وقد أشرنا من قبل إلى زحمة اليوم الدراسى .. إن هذا لا يعنى أصلا وجود فسحة من الوقت خارج الدرس يتمتع بها

الطلبة فى النوم أو خلافة .. ولكن كيف؟

كان يقع فى فترة الضحى أغلب الدروس التى تقام فى الفصول، وكان دخول الفصول يعنى فى حسبان الطلبة المساكين شيئا من اثنين: الوقوع بين براثن النوم، أو مقاومة النوم. ولا يمكن بالطبع أن نتصور مجرد تصور، والبركة فى صرامة القوانين العسكرية أو قسوتها بلا ضرورة -أن هذه الفصول نسخة طبق الأصل من بعض المدارس حين يترك الفصل "هائصا" بلا مدرس، أو لا يجد المدرس أن هناك ما يقدمه .. فيترك تلاميذه على هواهم. ليس من الممكن أن نتخيل هذا أو ذاك .. ومع ذلك فقد كان النوم يحل ويثقل الجفون مع وجود المدرس ودرسه الذى يلقيه .. والسبب أن الأجساد دائمة الحركة فى الطوابير، لا تكاد تستريح لحظة من القفز والجرى والانفعال المصاحب لما يصدر إليها من أوامر وما يقام من "داخلية" -محاضرات تتصل بالضبط والربط"، وتسمح للمعلمين وصف الضباط بالتفريج عن عقدهم وهم يتناولون الطلبة بالسخرية والسب والشتم واللعن- وتتوقف مستندة على أي شىء، حتى تستكين إليه وترتاح وتنغلق عيون أصحابها! يقول السباعى: كان يكفى جدا أن نستقر بأجسادنا على مقعد خشبى! ونتكئ على جدار حجرى، ثم نسبل أعيننا أو حتى نتركها مفتوحة لكى تسقط من تلقاء نفسها .. وفى لمح البصر نكون قد رحنا فى سبات عميق!

وهناك عامل آخر هام، كان يشارك فى الوصول بالطلبة

إلى هذه النتيجة وهو طعام الإفطار! فقد كان يتكون فى معظم الأحيان من صنف وهو الفول المدمس، أو العدس .. وهما اللونان الأساسيان -بجانبهما الحلاوة الطحينية أحيانا- اللذان يتبادلان طوال العام مائدة الإفطار. وكان الإفطار يقدم بعد طابور الصباح وقبل الدخول إلى الفصول، فكان هذا "الأسمنت المسلح" يفعل فعله هو أيضا فى إثقال المعدة به، وبالتالى ابتعاث الكرى فى الجسد الذى يكاد يكون هامدا! وقد عرض يوسف السباعى فى إحدى مقالاته وهى "الفول والسوس" لمعارك النوم هذه بتفصيل .. نستعير بعض سطورها.

"وكان تأثير العدس والحلاوة .. تأثير مخدر لا يقل عن أقوى حقن البنج، وبعد هذا .. بعد اليقظة المبكرة .. والجهد الشاق فى الطابور وقبل الطابور، وبعد أكلة البنج إياه .. ندخل الفصول لنستقر بأجسادنا المرهقة ومعداتنا المليئة على مقاعد التخت .. وننصت إلى ماذا؟ .. إلى مبادئ الحرب .. أو معركة واترلو؟ .. ولا نكاد نستقر على مقاعدنا .. ولا يكاد المدرس يفتح فاه .. حتى تبدأ المعركة .. معركة واترلو من فم المدرس .. ومعركة النوم فى أعيننا.

"وأجلس على المقعد رافعا رأسى مبرزا صدرى .. وبى ما يسمونه "حلاوة الروح"الباقية من أثر الطابور .. ثم أحس نعمة الاستقرار وراحة الجسد المنهك يهدأ أخيرا فوق المقعد. وأترك عضلاتى المشدودة تسترخى رويدا رويدا .. ثم أرقب المدرس -من ناحية الشكل طبعا- لأنى أعتقد أن

مراقبته من ناحية الموضوع أمر لا يستدعى استعجالا .. ويزداد فى إحساس الراحة وأزداد استرخاء .. والمدرس منطلق فى الحديث .. ثم أحس بتثاقل جفنى .. ولا أكاد أترك نفسى تستسلم لموجة الراحة التى غمرتها حتى أنتبه إلى مدى خطورة ما أوشك أن أقع فيه .. وأدرك أنى على وشك أن أرتكب جريمة النوم فى الحصة .. وهى لاشك جريمة كبرى من رجل عسكرى .. يجب أن يظل طوال الحصة مصلوب الجسد بارز الصدر مرفوع الرأس.

"وأنفض النوم من عينى وأهز رأسى وأحاول أن أركز نظرى فى شفتى المدرس وذهنى فى الكلمات المتطايرة من شفتيه .. وأصيب منها رشاشا عن دوق ولنجتون وكاتربرا وأشياء من هذا القبيل لا أجد لها معنى ولا أفهم بينها ارتباطا، ثم أحس نوبة الراحة تعاودنى وبالمدرس يطيل .. وبشفتيه تنفرجان ثم إذا بى أجده قد أضحى شبيها بخادم كان لدينا يسمى أحمد المهدى، وأتوهمه يقبل على فى بشاشة وترحاب .. ثم فجأة أحس بكوع فى جانبى، فأرفع رأسى المنثنى فوق صدرى وأحملق بعينى بشدة حتى أرى كل من حولى أنى فى أشد حالات اليقظة، وأسمع جارى يهمس بى "الراجل بيبص لك".

"ومرة أخرى تبدأ المعركة .. وأضع نفسى من باب الاحتراس خلف ساتر من ظهر أحد الجالسين أمامى وأظل أتحرك يمنة ويسرة أضعه فى الخط الموصل بينى وبين المدرس .. ويهجم النوم .. ويتحرك الساتر .. فإذا بى

صريع النوم .. وفى العراء .. بلا ساتر .. وإذا بالطابور الزيادة .. العقاب - يرف على رأسى من فم المدرس .. كما يقول أبناء البلد "زى الحلاوة".

"وهكذا كنا نقضى نصف الحصة بين صرعى واترلو .. والنصف الآخر .. بين صرعى العدس والحلاوة الطحينية .. كانت المعركة عامة بيننا وبين النوم .. وكان النوم يخرج منها فى كل حصة منتصرا .. تاركا خلفه ما لا يقل عن عشر ضحايا .. من ضحايا الطابور الزيادة .. الذى أوقعه بهم المدرس لنومهم فى الدرس".

ويذكر السباعى أن دفعته جميعا وقعت أسرى نوم الضحى، إلا طالبين لم يبذلا مقاومة تذكر فى درئه عنهما، الأول كان دائم الصحيان بلا إرادته، لأنه كان صبا عاشقا .. برح به الهوى فلم يستطع النوم أن يتسلل إليه. أما الثانى، فعلى العكس كان أول من يغمض عينيه فى الفصل، ولكنه كان ينجو دائما بحيلة ماكرة يلجأ إليها، إذ "يترسم" على وضع معين .. يتكئ بمرفقه على الدرج، ويسند جبينه على كفه اليسرى مفتوحة ومائلة على وجهه وحاجبه وعينيه أمامه على التختة أوراق معدة للكتابة، وبين أصابع يده اليمنى قلم يلامس سنه الورق .. وضع يوحى بأن صاحبه منهمك فى الكتابة. وهكذا أمكن له أن يظل طوال الوقت وبالتدريب بالطبع، أن يعلم أذنه على كلمة "ثابت" الأولى .. التى يقولها حكمدار الفرقة عند دخول المدرس و"ثابت" الثانية التى يقولها عند خروجه.

ولاشك أن براعة أحمد فؤاد -اسم هذا الطالب- هذه الفائقة، كانت مثار إعجاب زملائه، وقد حالوا تقليده وفشلوا جميعا .. كما فشل أيضا يوسف السباعى. ويقول صاحبنا إنه فعل تماما كل ما يصنعه فؤاد واستغرق مثله فى النوم بعد "ثابت" الأولى، ولكنه لم يصل إلى الثانية أبدا .. لا لأن أذنه لم تدرب بعد جيدا، ولكن لأن "ثابت" الثانية جاءت وهو يقظ تماما .. إذ لم يكد يطويه الكرى وهو فى وضع الكتابة، حتى خفت قبضته وقل تشبث أصابعه بما يمسك، فوقع القلم وأحدث ضجة خفيفة، كان يمكن أن تضيع رغم سكون الفصل، لولا أن تبعها سقوط رأسه من كفه على الدرج "خلت اللى ما يشترى يتفرج"، وكانت فضيحة سار بذكرها فى الكلية الركبان والفرسان .. أدرك بعدها السباعى جيدا كما يقول: إن ولا كل من ركب الحصان خيال!

ومن الطريف أن الكلية شجعت من حيث لا تدرى نوم الضحى بالنسبة لطلبتها، عندما استعانت بوسائل إيضاح حديثة فى التعليم مثل الفانوس السحرى والفيلم السينمائى التى تعرض للمعارك والحروب العالمية فى حصص التاريخ، والذى كان يعنى عند الطلبة شيئا واحدا .. هو استغلال حالة الإظلام التام لزوم العرض فى الاستغراق السريع فى النوم، لا جزعا ولا فزعا ولا متوترا .. بل هادئا ناعم البال. حتى تنتهى الحصة بالهناء والشفاء. وكانت فى الحقيقة فرصة العمر اغتنمها الجميع بلا استثناء، واستسلم لها حتى

العاشق وأحمد فؤاد.

وتتابعت الأفلام والصور مدة طويلة، لم يعبأ الطلبة خلالها حتى بالوقوف عند أسمائها أو المواقع الحربية التى تعالجها .. أو حتى النحنحة بين الحين والحين مسايرة لصوت المدرس، الذى يقوم بالتعليق على الأحداث التى تترى على الشاشة. إلى أن كان يوم .. انقطع شريط الفيلم ومن ثم توقف العرض وأضيئت الأنوار ليكتشف المعلم "الواقعة"، وأنه يدرس لفصل من النيام لم يشذ منهم أحد .. وهاله الأمر، لا بالنسبة إلى لا مبالاة طلبته فحسب بل بالنسبة إليه شخصيا. أحس أنه كان ضحية خدعة لئيمة استهدفته طوال أسابيع، كان يبذل فيها الجهد والعرق مقدما ذوب نفسه بلا طائل. ورأى أن المأساة أكبر من أن يتحملها وحده، فليشاركه فيها كبير المعلمين.

أما الطلبة .. فلعل انقطاع سيمفونية ضجة الفيلم، جعلهم يتململون فى نومهم، وأشعرهم أن هناك شيئا قد حدث .. وعندما فتحوا عيونهم ووجدوا الضوء يملأ المكان وشاهدوا المدرس المضروب .. ثم وهو يغادر الفصل ليأتى بكبير المعلمين .. تجمدوا فى أماكنهم من الذعر .. لقد تلاشى فزعهم من المدرس، إزاء فزعهم الأعظم من كبير المعلمين .. هذا الإله المروع الذى لا يذكر اسمه إلا محاطا بهالة من الرعب. وكان الرجل إنجليزيا -الأمير الاى ثوربورن- وكان يشكل بالنسبة للطلبة المزيد من كراهية الإنجليز، عندما يدرس لهم مادة التاريخ العسكرى العام ..

التى لم تكن تزيد فى موادها عن المعارك العسكرية التى انتصر فيها الإنجليز وأهمها معركة واترلو. وكان يندد دائماً بالعرب، وإذا جاء ذكرهم كما وقع وهو يذكر حملة فلسطين بين الإنجليز والأتراك فى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ .. كانت الفرصة ليشبع فيها غله ضد العنصر العربى كله. هذا هو كبير المعلمين الذى جاء .. ولم يفعل أكثر من أنه هز رأسه بضع مرات وهو يحدق فى الطلبة بنظرات يتطاير منها الشرر، وهو يأخذ مجلسه، مصدراً أمره باستمرار عرض الفيلم، ليكتشف بنفسه حقيقة الأمر .. وأطفئت الأنوار. وعاد الإظلام، ولكنه لم يكن حبيباً هذه المرة كالعادة، فقد طار النوم تماماً من الأدمغة، وركب أصحابها الفزع .. وأمسك كل منهم أنفاسه، ولأول مرة يرفعون أبصارهم إلى الشاشة ويشاهدون الفيلم ويتابعون أحداثه .. ولعل كل طالب كان يهز نفسه أو يقرص جلده أو يزيد من اتساع عينه، ليتأكد من أنه فى تمام يقظته، وأن النوم لم يسلبه وعيه ويخدعه حتى فى حضرة كبير المعلمين. ولم يكن كل منهم يخاف على نفسه فحسب، بل على زملائه أيضاً .. فجريمة واحد منهم يمكن -ونحن فى عسكرية- أن يسأل ويعاقب عليها الجميع. وكان أغلب الطلبة يخشى على أحمد فؤاد أن ينساق فى أسر الكرى كعادته، فى وقت لا ينفع فيه احتيال أو مكر. ومع اقتراب الفيلم من خاتمته، تسارعت دقات القلوب .. فمصيرهم معلق بكلمة ستخرج من فم كبير المعلمين، الذى كان شعاع

بصره يخترق جلودهم ويكويها بأشعة من نار. وتراقصت كلمة النهاية وأضيئت الأنوار .. وللمرة الأولى يصاحبها يقظة شاملة .. إلا واحداً لم يستطع رغم الحادث أن يغالب سحر نوم الضحى .. وكان كبير المعلمين نفسه!!

ومن الطريف أن النوم الذى كان يهاجم يوسف السباعى وهو طالب فى الكلية الحربية، لا يزال يقوم بدوره حتى بعد أن ترك صاحبنا الحياة العسكرية نفسها منذ أكثر من عشرين عاماً! والسبب فى رأينا يرجع إلى الجهد الضخم الذى يأخذ السباعى نفسه به، فتساوى مع الجهد الذى كان يتعرض له وهو طالب صغير. والنتيجة أنه لا يستوعب لجسده الساعات الضرورية للراحة والنوم .. ومن هنا يتعرض لهجوم الأخير الذى لا يهمه من هو صاحبه فى الحياة العامة. ومن الطريف أن يوسف السباعى ناقش هذا الجانب فى حديث صحفى إذ يقول: أحب أيضاً مشاهدة مسرحية كوميدى يقدمها التليفزيون بعد عناء يوم طويل شاق، فأستلقى على الكنبة إياها -بتاعة الظهر- ثم أغطى رأسى بغرض الاسترخاء .. والحاجة واللهفة معا أن أعيش وقتاً منفرداً مع نفسى، أغمض عينى دقائق ثم أفتحها متابعاً ما يقدمه التليفزيون من برامج .. وأشعر بسعادة غامرة عندما تأخذنى سنة من النوم، كوسيلة لتحقيق رغبة مكبوتة تنتابنى كثيراً، عندما يحتدم النقاش والكلام فى مؤتمر أو لقاء وما أكثرهما، وتدهمنى رغبة عارمة فى النوم أخشى ألا أستطيع مقاومتها، فأشعر بالقلق الشديد أن يحدث هذا أمام

الناس .. فأنزعج .. وأتوتر .. لأننى أحس بأننى وسط مذبحة كلامية لا أتحمل مواجهتها، كما لا أستطيع الهروب منها .. لذلك فإنه من أمتع الأشياء عندى، وأنا أشاهد التليفزيون فى البيت، أن أنام وأصحو .. وأنام .. وأن أترك نفسى وما تريد وأن أستمتع بحرية ممارسة عملية النوم واليقظة كما يحلو لى .. ولكن الغريب حقاً ألا يهاجمنى النوم وأنا فى البيت، بهذه الصورة المزعجة والمستبدة وأنام أمام الناس محاضراً فى مؤتمر مثلاً .. أو محاضرة."!

(٣٤)

والحياة داخل الكلية الحربية لا تقتصر على الدرس، بل تمتد لتشمل جوانب أخرى .. ولاشك أن الطعام فيها من هذه الجوانب، الذى يستأهل وقفة. والحديث عن الطعام الحربى دائما ذو شجون، ولم يكن الأمر ليختلف كثيرا عند السباعى بين أيام التلمذة فى الكلية الحربية وبعد التخرج .. فلم يكن المفهوم فى الجيش قد تغير لينعم الطلبة الذين أصبحوا ضباطا بخدمة طعامية أو مطبخية أحسن .. وكان هذا الطعام العسكرى يتميز بأن أصنافه جد محدودة من ناحية، وأنه من ناحية أخرى يتحول فى النهاية إلى نوعين لا ثالث لهما من الأصباغ اللونية .. الأخضر والأحمر!

أما بالنسبة إلى الأخضر والأحمر، فكان الفضل فى ذلك يرجع كما يقول يوسف السباعى إلى "كيمياء مطبخ الكلية" .. الذى يملك القدرة على تحويل كل أنواع الخضراوات التى تنبتها بلادنا إلى هذين اللونين المجردين. وهكذا عرف المطبخ العسكرى المصرى التجريد قبل أن يعترف العالم به مذهبا فنيا! وكان فائدة اللونين لدى الطلبة، أنها تسهل عليهم انتماء ما يتناولون من طعام إلى إحدى هاتين

العائلتين .. اللتين لا صلة لهما على الإطلاق بتصنيفهما من الناحية العلمية. كانت فائدة الصبغة أنها تحدد المعرفة بدلاً من أن تطلقها على كلياتها. فاللون الخضر يعنى أولاً أن أنواعه ذات أوراق خضراء، أو أنها مطبوخة بالتقلية الخضراء المصنوعة من السلق. وأنها يمكن أن تكون سبانخ أو خبيزة أو رجلة أو ملوخية أو قلقاس! بينما يعنى اللون الأحمر أن خضرواته التى طبخت بالطماطم، هى البطاطس أو الكوسة أو المسقعة. وكان الطلبة يستطيعون المراهنة على أن الطعام، واحد من هذه الأسماء جميعاً، ويكسبون الرهان .. لأنه كان من المستحيل التوصل إلى حقيقة الخضار أو تحديده، فكان كل طالب يقبل على الطعام وهو يتوهم فيه لوناً يحبه .. أما ما هو .. أو ما هى صلته الفعلية أو عدم صلته بهذا اللون، فأمر لم يكن يناقش، لأنه فوق المناقشة!

وإذا كان هذان اللونان هما القاعدة، فإن الاستثناء كان فى صنفين آخرين .. ورغم أنه كان من اليسير جداً تحديدهما بالكفتة والكرنب المحشى، بالمعرفة الأكيدة لموادهما .. إلا أنهما كانا يفقدان من سماتهما ما يحولهما إلى نوعين آخرين .. "والاسم لطوبة والفعل لأمشير". ويكفى أن حجم كل منهما كان فى قبضة اليد، أو أقرب إلى شىء يعرفه الطلبة جيداً وهو .. القنبلة اليدوية! وضيق ذات الاختيار، كان يمتد من الخضراوات إلى الحلو ولا نقول الفاكهة .. لأنها كانت فى ذلك الحين من الأشياء الممنوعة - لم يدر الطلبة حتى بعد تخرجهم لم؟ -التى ترفض الكلية

التعامل معها. ولما كان القائمون بأمر الطعام بالكلية من هواة الثنائيات- ظل هذا المزاج أيضاً خافياً على الطلبة حتى بعد أن تخرجوا وأحيلوا إلى المعاش! - فلم يكن غريباً أن يكون الحلو هو الآخر ثنائياً .. لا يخرج عن شيئين اثنين .. القراسيا والمشمش "الجاف" -كانا زمان يباعان فى الشوارع على عربات اليد مثل البطاطا - مطبوخاً فى شكل "خشاف" مائع! ولا يقدمان معاً بالطبع، بل يتبادلان الأيام ..

وهذه الأصناف التى ذكرنا، كانت تقدم على مائدة الغداء أو العشاء، أما الإفطار .. فله لونه الثنائى هو الآخر أيضاً! .. فول مدمس وعدس بالتبادل. ورغم أن المدمس أحد الأطعمة الشعبية المحبوبة التى يقبل عليها الناس جميعاً، إلا أنه لم يكن كذلك عندما دخل الكلية الحربية. ولم يكن السبب بالطبع أن الطلبة غيروا رأيهم أو مفهومهم فى الأغذية الجماهيرية .. بل لأن الكلية نفسها أرادت أن تفعله، وهى تجبر الطلبة على تناول الفول فى نفس الوقت، بأن تحوله من البسيط إلى المركب .. من فول "صافى" أو "حاف" إلى فول بالسوس .. الذى كان يبلغ من ضراوته، أن يكون طبقة سميكة تسبح كائناته فوق سطح الطبق، غير المندس فى الحبات وما بينها. ومن الطريف أن هذا كان يحدث والمسئولون والطلبة معاً يعلنون رضاءهم فى الحوار اليومى الرسمى الذى يتكرر مع كل وجبة يقدم فيها الفول -وغير الفول- يومياً:

- تمام؟

- تمام يا فندم!

ولكن فى إحدى المرات وكفة السوس ترجح كفة الفول .. ربما، بدا الأمر غير محتمل، مما حدا بأحد الطلبة وكان هو يوسف السباعى إلى أن يشكو برقة إلى حكمدار المائدة. ويقول السباعى: "وبدا لى أن أبدى رأيى فى مسألة خلط الفول بالسوس، فهمست راجيا:

- عايزين الفول لوحده والسوس لوحده.

ونظر إلى الأومباشى نظرة صارمة، أدركت منها مدى الخطيئة التى تورطت فيها .. وتأكدت أن الصحبة بين الفول والسوس فى أطباق الكلية لا يمكن فصم عراها .. وخشيت أن يكون للسوس معزة عند الكلية وأن تؤخذ ملاحظتى تلك على أنها إهانة للسوس وبالتالى لإدارة الكلية .. وأن تكون لإدارة الكلية حكمة فى تطعيم الفول بالسوس وأن يكون به نوع من الفيتامينات العسكرية الضرورية لنا. ولم يكن هناك بد بعد ذلك من إصلاح خطئى، ولا سيما أن الأومباشى كان لم يزل مسلطا على نظرته القارصة. وأسرعت أقول متمتما فى اعتذار:

- أصل فيه ناس ما يحبوش الفول ويحبوا يأكلوا السوس لوحده."!

ومع هذا كله، فقد كان الطلبة فى النهاية يقبلون على هذه الأطعمة جميعا إقبالا، ليس بدافع "فتح النفس" أو الشهية أو الإعجاب، بل لأنه لا يوجد بدائل لها على الإطلاق. كما أن المعدة التى تهضم الزلط فى أيام الصبا

والشباب، لا يمكن أن تضرب عن الطعام .. بجانب الجهد اليومى الشاق الذى يجعل من الفم مجرد آلة صماء لا تعرف للتذوق أو الاحتجاج معنى، وتقبل على كل ما يرد إليها من غير أن تقول كلمة لا!

(٣٥)

وفى الكلية الحربية، ظل يوسف السباعى مقتنعاً بأنه لا ميزة له على الإطلاق لا ظاهرة ولا خافية، نفس الإحساس الذى أحاط به قبل ذلك فى مرحلتى الدراسة الابتدائية والثانوية .. ولم يكن يتطرق تفكيره إلى هذا الجانب مدفوعاً بأحلام الشباب ووردية الغد المشرق، بل مدفوعاً بقسوة الواقع ومعاناة أمه التى تستخلص من المعاش الهزيل، القرش فوق القرش لتجمعها أقساطاً لمصروفات الأبناء فى معاهدهم العليا. ولذلك كان هم يوسف الأول أن يتفوق ليحصل على مجانية توفر شيئاً من متاعب والدته. وكانت الدراسة والاستذكار واستيعاب المواد، التى تحتاج كعادة المناهج الدراسية المصرية فى كل مراحلها، إلى الحفظ والصم لا الفهم والاستيعاب .. هى مشكلته فى الكلية الحربية أيضاً. ولذلك كان يحتاج إلى مزيد من الجهد يبذله، ما دام الله لم يعطه ميزة كغيره من الطلبة .. هكذا كان تفكيره. ولكن يوسف لم يعرف أن وجهة نظره هذه، لا تتفق مع وجهات نظر الآخرين سواء فى الثانوية مثلاً أم الكلية الحربية، الذين كانوا يرون فى السباعى أنه من خير الطلبة إن لم يكن خيرهم جميعاً!

وفى العام الأول فى الكلية الحربية وفى الشهور الأولى منه تقريباً، وقع حدث غريب فى نظام الكلية وكبير المعلمين الإنجليزى يعلن .. أن الكلية ستخرج دفعة جديدة فوراً بامتحان يعقد بعد يومين. وأن هذا بالتالى ينسحب على السنتين الأولى والثانية أى القسمين الإعدادى والمتوسط ليحل كل منهما مكان التالى له. لأن العشرة الأوائل فقط من الطلاب الناجحين فى الامتحان الذى سيعقد .. هم الذين سينقلون إلى السنة التالية. ولكن ما الذى جرى حتى يقع هذا الحادث الشاذ فى تاريخ المدرسة الحربية؟ إنها الحالة الدولية! فقد تكاثفت السحب فى سماء أوربا، وكشرت النازية عن أنيابها وأخذ هتلر يعلن أن ألمانيا فوق الجميع .. جميع الدول والشعوب. وظهرت الفاشستية فى إيطاليا، ولم يسارع موسولينى إلى إعلان نواياه العدوانية فحسب، بل بدا يشارك فى التهام البلاد الضعيفة واستولى على الحبشة، ليبدأ بإعادة الإمبراطورية الرومانية القديمة. وأخذت نذر الحرب العالمية الثانية تتوالى، وبدأت إنجلترا المحتلة لمصر منذ عام ١٨٨٢، تطامن قليلا من عنطزيتها وتحاول أن تستميل مصر وتصل معها إلى اتفاق يقرب المسافة بينهما، لتطمئن إذا ما وقعت الحرب .. أن القاهرة لن تسبب لها القلاقل وتتاح الفرصة لثورة الجماهير على محتليها .. ولم يفهم الطلبة البعيدين عن السياسة، أن هناك معاهدة توشك أن تبرم بين مصر وبريطانيا العظمى وأن أغلب الأحزاب المصرية ستشارك من خلال زعمائها فى

توقيعها قريباً وهى التى ستعرف بمعاهدة ١٩٣٦. وأن الإسراع بتخريج دفعة جديدة من الضباط من الكلية الحربية يتفق مع هذه الرؤية الجديدة التى تعالج بها إنجلترا الأمور فى مصر .. لأنها تريد أن تستعين بهؤلاء الضباط أنفسهم فى المتغيرات الحربية القادمة.

على أية حال كانت فرصة نادرة للجميع أن يختصروا من سنوات الدراسة سنة، فتصبح سنتين! ورحب يوسف بها مع ضيق الوقت الشديد، فهو يعرف أن هذا الضيق فى صفه هو قبل غيره .. إن "الامتحان بهذه الطريقة العاجلة هو أفضل طرق الامتحان بالنسبة له، فهو دائم الفوز فى الامتحانات المفاجئة الخاطفة التى لا يطول التحضير لها. وكلما طالت مدة الاستذكار كلما قلت فرصته، فهو شرود الذهن يضيق بكثرة الاستذكار ويمل طول الانكباب على الكتب، فإذا تساوى الجميع فى قلة الاستذكار والتحضير، أصبح الذكاء وصفاء الذهن هما العاملان الحاسمان فى نتيجة الامتحان، وهما سلاحان يعتبرهما من أمضى أسلحته".

وبدأت فترة الامتحانات، وعمل يوسف المستحيل كى يبعد عن ذهنه كما يقول، كل عوامل الشرود ومسببات الترفيه، وجرده من أوهامه الجميلة وأحلامه المعسولة .. مستغرقاً فى الطوابير والمحاضرات وامتحانات التكتيك والطبوغرافيا وهندسة الميدان والتاريخ العسكرى. وكان الامتحان أيضاً يستوعب الذهاب إلى منقباد لعمل مناورة ..

وهناك عرف طالبنا العسكرى أن الحياة فى المدرسة الحربية "القاسية"، لا يمكن أن تقارن ببشاعة أيام المناورة! وتنتهى المناورة ويعودون.

وتعلن نتيجة الامتحان .. ولا ينجح فحسب فهذا ليس كافيا، بل يتفوق ويجىء ترتيبه الثالث .. ويتحقق أمله فى أن يستحق المعافاة من دفع بقية المصروفات! وهكذا انتقل إلى السنة الثانية أو القسم المتوسط فى نفس عامه الدراسى. وكان على الطلبة أن يستوعبوا المقررات فى بقية هذا العام الدراسى ذاته، وذلك كانت السرعة هى السوط الجديد الذى أخذ يشارك فى إلهاب ظهرهم مع متاعبهم اليومية التقليدية .. وزادت الخطورة أن مجرد النجاح ليس هو وحده المطلوب، فقد كان يتوقف على ترتيب الطالب مستقبله فى العام القادم كله .. "إذ كانت رتب ضباط الصف الذين يديرون المدرسة، وهو منهم -تعطى حسب الأقدمية. وكان يتوقف عليه أيضا إلى حد كبير ترتيبه عند التخرج وأقدميته فى الجيش التى ستظل ملازمه له مدى حياته". وكان التوفيق الممتاز الذى صادفه يوسف السباعى فى الامتحان، دافعا له على بذل المزيد من الجهد، وأحس فى نفسه -كما يقول- ثقة كبيرة ولم يعد يشعر بإحساس النكرة المجهول الذى كان يلاحقه من قبل .. ونظر إليه الطلبة والمدرسون على أنه أحد الأوائل المنتظر أن تكون فى يدهم إدارة المدرسة فى العام القادم.

وبعد أسابيع قصيرة يموت جلالة الملك فؤاد الأول ملك

مصر، ويكون يوسف السباعى ضمن طلبة المدرسة أو الكلية الحربية الذين شكلوا الطابور الذى يتقدم الجنازة الطويلة المهيبة التى اخترقت القاهرة.

ويستمر صراعه فى الكلية ويقترب العام الدراسى من نهايته وتبدأ الامتحانات، وكانت الألعاب الرياضية ضمن هذه الامتحانات .. يحسب لها درجات تضاف إلى المجموع الأساسى فى الامتحان النهائى وتحتسب للطالب فى الترتيب .. مما جعل الرياضة بهذا الشكل مهوى الأفئدة. وهذا ما أرادته الحربية، خاصة أن الطالب المتفوق فى الرياضة يستطيع أن يحصل منها لا على عشرات الدرجات فحسب بل على مئاتها، وبذلك يتخطى بترتيبه العشرات الذى يجعله فى مرتبة الأول. ويبذل يوسف كل جهده فى هذا الجانب الهام أيضاً، واستطاع أن يكون فى هذه المسابقات ضمن العشرة الأوائل، ويحصل على درجات كبيرة فى كرة القدم واختراق الضاحية والشيش، وغيرها .. وبقيت الملاكمة. ومع أن السباعى يكره العنف طوال حياته وينفر من هذه الرياضة الدموية بطبيعته المسالمة وخلقه الهادئ، فهو مضطر إلى مزاولتها لأنها رياضة إجبارية. وتمكن يوسف من الفوز على خصومه حتى وصل إلى الدور النهائى، الذى لا يمضى عادياً بل تقام لعبته فى حفلة كبيرة يحضرها كبار رجال الجيش والعسكريين من شتى الأسلحة.

وأخذ السباعى ينتابه الضيق، لا لأن خصمه طالب ضخم طويل بارع فى الملاكمة فحسب، مما يجعل إخفاقه هو

مؤكدا .. فمثل هذه النتيجة لا تحزن وهو الذى يؤمن بقضاء الله. ولكن الذى يفزعه فى هذه المباراة حقيقة، أنها تتم أمام الجموع الغفيرة الغريبة والعيون المحاصرة .. مما يجعله يفقد القدرة على خطواته ويصيبه بالارتباك. وكانت مباريات الملاكمة فى المدرسة الحربية، كما يقول السباعى، لا تمت بكبير صلة أو شبه إلى مباريات الملاكمة العادية، بل كانت أقرب شبها وأشد صلة بالمعارك الدموية والمذابح .. وكان نجاح المباراة يقاس بكمية الدماء المراقة من وجوه المتلاكمين وبمقدار الكدمات فى عيونهم وأنوفهم!!

وتبدأ المباراة وهو يحس "بمغص فى جوفه كأن يدا تعتصر أمعاءه" ولكنه ما يكاد يتخذ موقعه داخل الحلقة، حتى ينسى كل من حوله .. وتزال الرهبة من الخصم ومن الجمهور، ويلاكم بقوة. وانتهى الشوط الأول على خير. وفى الشوط الثانى بدأ يوسف يحس بالتعب، ولكنه استمر فى ضرباته بنفس القوة، وفى الشوط الثالث أدركه الإجهاد أكثر وشعر بضيق أنفاسه، ولكنه استمر فى اللعب بكفاءة أقل وتعب شديد .. وعندما انتهت المباراة فاز الخصم وإن أعلن الحكم أن يوسف لعب مباراة ممتازة. وما يكاد يترك الحلبة سريعا وقبل أن يصل إلى حجرته، أحس بألمه يتزايد وضيق فى صدره ووخز فى جانبه الأيسر، ووضع المنشفة فى صدره خشية أن يصرخ ولم يستطع النطق. وجاء الطبيب سريعا ليكشف أنه مصاب بكسر فى الضلوع!

وحمل إلى المستشفى وهو فى شبه غيبوبة. ولحسن الحظ "لم يكن الكسر شديداً ولم يحتج الأمر إلا للف صدره وشده بالمشمع، وتركه حتى يلتئم من تلقاء نفسه فى وضعه الطبيعى". ومع ذلك كان ألمه كبيراً لا من كسره، بل مما تسوق إليه رقدته من حرمانه من الامتحانات التى كانت قد بدأت، وبالتالى يضطر إلى إعادة السنة .. كما اضطر بعض الطلبة إلى أن يفعلوا بسبب مرضهم. وأخذ يلعن نفسه لأنه تمسك بكبريائه، لأنه لو لم يفعل لكان يستطيع منذ الشوط الثانى أن يخرج من الحلبة ولما تعرض لهذه الكارثة.

وتوافد زواره من زملائه وكذلك خصمه يعودونه، ولكنه فوجئ بزيارة لم تكن متوقعة أبداً .. كبير المعلمين الإنجليزى نفسه وهو الحاكم بأمره فى الكلية الحربية يحضر يعوده .. ويشد على يده مصافحاً، ولم يكتف بهدية جاء بها .. بل أخذ يبدى إعجابه .. لقد قدمت لأهنئك .. إنك قد هزمت فى المباراة، ولكن هزيمتك كانت أشرف ما رأيت من الهزائم. ولقد كنت خيراً من الفائز. لقد ضربت مثلاً عالياً فى قوة الجلد والمقاومة وعلو الروح". ولم يكن هذا التقدير من رجل عرف بدقته الشديدة هو الشيء الوحيد الذى حصل عليه السباعى .. بل الأهم هو أنه عده فائزاً أيضاً فى المباراة .. ولذلك يستحق أن يمنح الخمسين درجة التى تعطى للفائز الأول! وزيادة على ذلك منحه فرصة الامتحان العملى وهو فى فراشه، وهو أمر لم يحدث من

قبل. وختم زيارته بقوله: سأدبر كل شىء لصالحك فلا تضق بشىء ولا تقلق على شىء .. إنى أحب الرجال وأنت رجل ..

وأصبح يوسف السباعى من أبرز طلبة المدرسة وأطيبهم سيرة وأحسنهم ذكراً .. ونجح فى الامتحان وانتقل إلى السنة الثالثة محافظاً أيضاً على ترتيبه الثالث. واستحق أن يرقى إلى رتبة الجاويش وظل محبوباً .. كيف وقد أصبح من أصحاب السلطة على الطلبة. لندع السباعى نفسه يعود بنا إلى تلك الأيام، وأهمية هذه العودة أنها توقفنا على المنهج الذى اختطه السباعى لنفسه .. والنابع من تكوينه الشخصى منذ شبابه، فى معاملة الناس ولم يطرأ عليه تغيير أبداً حتى وهو رجل دولة ..

"بدأ يمارس فى عامه الجديد فى المدرسة سلطة ضباط الصف العظام، ومنحته رتبته المهابة والسلطان بين الفيران المذعورة من المستجدين .. وأخذت سترته بأشرطتها الثلاثة الحمراء فوق الذراعين تثير الذعر أينما حلت ..

"كان جاويشاً محبوباً .. رغم أنه من ألزم صفات الجاويش فى المدرسة أن يكون مكروهاً .. ككل صاحب سلطان، وحاكم أفراد، ومنفذ قوانين، ومحافظ على نظم، وموقع عقوبات. وقد استمد المحبة من تجنبه الخطأ الشائع الذى يقع فيه كل صف ضابط .. وكل حاكم، وهو سرعة نسيان متاعب وآلام الفرد .. بمجرد أن ينتقل من وضعه

كفرد .. إلى وضعه كضابط صف أو كحاكم. وسرعة تلونه وتشكله بقالبه الجديد .. وانطباعه بصفاته وأعماله، واقتناعه بأنه هكذا يجب أن يكون الحاكم .. وبأنه يتحتم عليه أن يتغير هو ليلائم القالب الجديد .. ويقينه أن الفرد يجب أن يبقى كما هو ليمارس فيه الحاكم سلطانه، وأن عليه أن يتألم كما تألم هو ويقاسى كما قاسى هو.

"ذلك هو الخطأ الشائع الذى استطاع تجنبه، فكان يمارس سلطته كجاويش وملء نفسه شعور الفرد .. كان إذا ما تصرف مع فرد .. تذكر نفسه فى موضعه .. كان يذكر حيرته كفأر مذعور .. عندما يقف أمام الفيران المذعورة .. كان يذكر إحساسه بالظلم عندما يوشك أن يرتكب ظلما .. كان يذكر نفسه نكرة منسيا يحاول أن يبذل طاقته لكى يصبح شيئا .. فلا يفوز فى النهاية بغير العقاب. كان يذكر ذلك فيمنح بدل الجزاءات .. كلمات تشجيع .. للمنسيين المكافحين الذين لا يعرفهم أحد ولا يشجعهم أحد.

"كان محبوبا لأنه كان قبل أن يصدر الحكم على الخاطئ، يضع نفسه فى موضعه ويصدر الحكم على نفسه قبل أن يصدره عليه .. فإن قبلت نفسه الحكم وقعه عليه، وإن لم تقبله .. عفا عنه واستبدل بالجزاء نصحا وإرشادا.

كان محبوبا .. لأنه لا يرد بغضا ببغض ولا إساءة بإساءة.

كان محبوبا .. لأنه ذكى، والذكى يعرف كيف يكسب

الحب، ويعرف كيف يحرز الانتصار خاليا -قدر ما استطاع وما استطاعت نفوس الناس- من شوائب الكره والبغضاء والتحاسد".

ويقع حادث دراسى هام آخر، هو قرار الكلية الحربية فى الشهور الأخيرة من العام الدراسى .. ضم طلبة القسم المتوسط بدون امتحان إلى طلبة القسم النهائى، وأنهم جميعا سيعطون برنامجا مركزا وسيؤدون فيه امتحانا واحدا يتوقف على نتيجته تخرجهم كدفعة واحدة بدلا من دفعتين. وكان هذا يعنى خسارة فادحة إلى القسم النهائى لأنه يلغى كل نتائج امتحانات طلبته السابقة فى الإعدادى والمتوسط والتى كانت تضمن لهم أقدمياتهم كما جرت العادة دائما. ولازمه سوء الحظ فأخفق فى الحفاظ على ترتيبه المتقدم فى أدق مراحل حياته العسكرية، ولكن إدارة الكلية أو المدرسة الحربية التى كانت تعجب به، أتاحت له مع ذلك أن يحصل على المركز الذى لا يفوز به إلا أول الدفعة، وهو التعيين فى سلاح السوارى الذى كان يتمتع يوسف فيه أيضا بسمعة طيبة. وكانت هذه أول مرة تشذ فيها الكلية الحربية عن القاعدة الموضوعة، وتتيح لخريجها الذى لم يحصل على أعلى الدرجات .. أن يجىء تعيينه فى أحسن أسلحة الجيش.

وتنتهى أيام التلمذة ويتخرج ضابطا ..

(٣٦)

التحق يوسف السباعى بسلاح السوارى، وأخذ فرقة "ركبدارية" التى تعده ليكون معلم ركوب .. وهذا يعنى أن يمتطى ظهر الحصان أربع ساعات متوالية على الأقل كل يوم. وبعد انتهائه من هذه الفرقة، أصبح ضابطا "قديما" مسئولا، وتسلم "بلوك" وأضحى قائدا لأربعين جنديا وأربعين حصانا، تقع عليه مسئوليتهم جميعا. وكان نهاره يبدأ فى السادسة صباحا ويكون فى الإصطبل فى السادسة والنصف، فيتمم على الجنود والخيل، ويتأكد أن واحدا منها لم يضع! نعم فأكثر ما كان يخشاه الملازم ثان يوسف السباعى فى ذلك الوقت أن يسرق منه حصان -ويزيد ساخرا: أو عسكريا! -والسبب أن جنود الطوبجية- يتبعون سلاح المدفعية -الذين يجاورون السوارى سرقوا يوما بغلا منهم، فخاف صاحبنا أن يتكرر الحادث بشكل أو بآخر، ويكون هو ضحيته! وبعد عملية التتميم على نظافة الخيل والسروج والجنود تصطف الجماعة للطابور .. " وفى الساعة السابعة نتحرك إلى الخانات وهى أرض مفروشة بالقش نتخذها ميدانا للتدريب، فإذا ما انتهى الطابور عدنا إلى الثكنات لسقى الخيل وإطعامها، ثم تناول طعام الإفطار.

وتبدأ بعد ذلك عملية "الطومار" أى تنظيف الخيل. ويتنهد السباعى متحدثا إلى: أنت تسأل دائما عن بواعث سرحانى. هاك واحدا منها إذا أردت .. لقد كانت عملية الطومار هذه هى أثقل ما يصادفنى فى يومى فى تلك الأيام وأشدها مللا، فإنى أذرع فيها الإصطبل ما يقرب من مائة مرة، وأسرح فى كل شىء .. وأقرض الشعر، وأؤلف القصص .. ويبدو لى أن دهرا قد فات، ثم أنظر إلى الساعة فإذا بها لم تتجاوز نصف الساعة"!

وهذا يذكر .. هل كان عالم الضباط شيئا ملغيا على الإطلاق فى حياة صاحبنا، قبل أن يلتحق بالكلية العسكرية، فيخلو منه ماضيه؟ يفرض هذا التساؤل نفسه والقارئ يحس أن الالتحاق بالكلية العسكرية والعمل له، يكاد يكون منبت الصلة تماما بما سبقه، وأن صفحتها فى حياته شىء جديد ألبته. لم يمهد لها فى أعماق صاحبه أو مزاجه. ولكن هذا لا يعنى أن "ولا كلمة" فى هذا الماضى يتصل بالضباط ودنيا الضباط، وإن كنا نسارع فى نفس الوقت فنقول .. إنه أيضا ليس الموضع الذى يجعله بذرة تنبت وتورق، لأنه كان على هامش اهتمامات الصغير. لا يتجاوز وقوع حادثة فى قليل أو كثير. كالانفعالات بمشاهدة أحد المواكب الرسمية .. الاحتفال بافتتاح البرلمان مثلا.

وهو يذكر هذا اليوم، وقد سجله فى إحدى قصصه وهى "بصقة على دنياكم" -نشرها بعد ذلك فى مجموعته المشهورة "يا أمة ضحكت"- عندما اتفق مع بعض أصحابه

الصغار فى جنينة ناميش على الذهاب لمشاهدة الموكب. ومشوا إلى ميدان الإسماعيلية "التحرير"، واتخذوا موقعهم منذ وقت مبكر. وكأن بعض رجال البوليس قد أخلوا الطرق يمنعون تسلل المارة من رصيف لآخر .. أما جنود الجيش فاصطفوا على طول الطريق بملابسهم الكاكية ووجوههم السمراء وطرابيشهم الحمراء .. يلفته فيهم "تعالى أصوات ضباطهم بالنداءات العسكرية التى ترتفع معها الأسلحة إلى أكتاف الجند، ثم تهبط إلى الأرض مرة أخرى كأنهم يشتغلون "بزنبلك"!". ويبدأ الموكب بصفافيره وموتوسيكلاته وعرباته التى تحمل كبار ضباط البوليس بملابسهم السوداء وفرسان البوليس ثم فرسان الحرس. وعند هؤلاء الأخيرين .. يتوقف الصبى والمشهد يغمره. الفارس مستقيم الجسد صلب العود بارز الصدر ممشوق القوام، يرتدى حلة زرقاء ذات صدر أحمر محلى بكردون مجدول من القصب الذهبى البراق، وامتدت ساقه بجسد الحصان بحذاء طويل أسود لامع .. ويبدأ هو وجواده قطعة واحدة .. كفارس الأحلام الذى لا يستجيب لتنهدات العذارى المعجبات! أما الجواد فلم يكن هو الآخر بأقل إثارة للانتباه .. أشهب مرفوع الرأس متين البنيان ملفوف الجسد بارز عضلات الصدر والساقين .. أرهف أذنه وتفتحت خياشيمه .. يتوثب فى ثقة واعتداد".

ولكن هذا الانطباع الوقتى الذى وقع تحت تأثيره أثناء الاحتفال، غاب سريعا فى مجاهل النفس. ولا أظن أن لعبة

الكرة أو حياة البيت الأدبية التى كان يتنفسها رائد من رواد الأدب العربى الحديث وهو محمد السباعى، ومشاركة ابنه الأوسط يوسف فى بعض تفاصيلها ومنها كراهية الأب لصنف الضباط لأنهم "غير مثقفين"! .. سمحت له بالمزيد من تملى صورة فارس الحرس! ولعل هذه الملامح القديمة لم تطف على السطح مرة أخرى، إلا بعد وقت طويل .. عندما تخرج صاحبها من الكلية الحربية وشارك فى أحد هذه المواكب، ولاقى المر .. فتذكر انطباعات بعيدة ساورته يوما. وما أعظم الفارق بين الأمس واليوم .. أو الخيال والتطبيق. لنستمع إلى صاحبنا نفسه، وهو يكتب عن الواقع القاسى.

"الساعة الخامسة صباحا وقد وقفت فى الإصطبل مشمرا عن ساعدى، أنتقل هنا وهناك، ضاربا الأرض بقطعة الحديد المثبتة فى كعبى الحذاء الطويل مضيفا بذلك ضوضاء أخرى إلى الضوضاء التى تحدثها أحذية الجنود المنهمكين فى تنظيف الخيل، الخيل البيضاء الناصعة البياض. الخيل البيضاء؟ يا لسخرية المنظر الخلاب، لقد كان فتنة العين فأصبح قذاها. كان بهجة النفس فأضحى مصابها وبلواها. أجل! إن الخيل البيضاء الزرقاء، قد أضحت مصابى فى الحياة، لقد تحقق الحلم، تحقق بالضبط، وأصبحت قائدا لسرية الخيل البيضاء التى تتقدم الموكب، ليتنى تمنيت أهون الشرين. إن الخيل البيضاء، قد أقسمت ألا تكون بيضاء. لقد قضينا الأمس طوله، ولا عمل

لنا سوى تشطيف الخيل .. والجنود يجدون فى عملهم بالفرشاة والمياه والصابون، ثم بتنا ليلتنا، وصحونا فى الفجر، فإذا بجهودنا قد ضاعت أدراج الريح. كان الوقت ربيعا، والربيع يصيب كل الناس بغبطة وسرور، إلا نحن .. فالربيع بالنسبة للناس يعنى الزهور أما بالنسبة لنا فإنه يعنى البرسيم. كان مصاب البرسيم فى الأوقات العادية، ينحصر فى وزنه وفى الساعات الطوال التى نقضيها أمام الميزان عندما يحضره المتعهد، أما فى أوقات طوابير التشريفة فكان المصاب أثقل وقعا .. إذ كان ينصب بالذات على الخيول الزرقاء -أو على الأصح- قائد الخيول الزرقاء. كان البرسيم يصيب الخيل بإسهال فيجعل روثها سائلا أخضر يلوث أجسادها إذا ما رقدت عليه، فيمسى الليل وهى بيضاء من غير سوء، ولا يكاد يصبح الصباح حتى يضحى بياضها اخضرارا.

"وتبدأ عملية التشطيف مرة أخرى، وظلمة الليل لم تنقشع بعد، وعبيد الله الذين لم يصابوا بقيادة الخيول البيضاء، مازالوا يغطون فى نومهم، منعمين بدفء الفراش وراحة الرقاد. وأنا أغدو وأروح على أسفلت الإصطبل بين "بوكسات" الخيول، مستحثا الجنود، وبى قلق شديد، خشية أن يستبين بياض النهار .. قبل أن يستبين بياض الخيل. وأشرقت الشمس، وبدأنا نخرج الخيل من الإصطبلات إلى الفناء للتفتيش عليها، ووقفت بجوار "القومندان" وهو يفحصها واحدا واحدا. وأحسرتاه، إن

الخيل لم تبيض بعد! لقد استطعنا بعد طول الجهد أن نزيل الاخضرار، ولكن تركت فى مكانه آثار اصفرار مازالت واضحة فى أجساد الخيل. وثار القومندان .. فهو يريد الخيل بيضاء ناصعة ولا يقبل أن يكون بها ذلك الاصفرار أبدا. ما شاء الله! .. ما حيلتى فى هذا الأمر؟ وأنى لى أن آتى بذلك البياض؟ .. وعادت الخيول إلى الإصطبل، وعاد الجنود إلى عملية التشطيف، يحاولون عبثا إزالة تلك الصفرة اللاصقة بأجساد الخيل.

"وأخيرا من الله علينا بالفرج، ووهبنا من لدنه رحمة، واستطعنا بطريقة ما أن نجعل الخيول بيضاء بيضاء كأنصع ما يكون البياض، كيف؟ .. لقد وجدنا أن من العبث أن نحاول إزالة الصفرة فوضعنا فوقها بياضا. أجل .. لقد أحضر كل جندى الحجر الأبيض الذى يمسح به حذاءه وحزامه، فمسح به حصانه .. وبعد لحظات كانت الخيل بيضاء من غير سوء! وانتهينا من التفتيش على الخيل. وكنت أحس بإنهاك شديد، فلقد مضى بنا أسبوع ونحن لا نهدأ لحظة واحدة .. وكان أكثر ما يشغل تفكيرنا خلاله، هو توضيب قوالب الأحذية، ووضع كل قالب فى حذائه. ولم تكن المهمة قط بالسهلة الهينة .. فقد كان لكل حذاء من أحذية الجنود الطويلة قالب خشبى ليحفظ تماسكه. وكان القالب مكونا من خمس قطع، فيكون لكل حذاء عشر قطع فى أربعين جنديا بأربعمائة قطعة. وكان لكل حذاء قالبه الخاص به، ولكن القوالب اختلطت ببعضها، وكان

المطلوب "توليفها" ووضع كل قالب فى الحذاء المناسب له .. لقد كانت مسألة عسيرة، شاقة فى مجرد وصفها فما بالكم فى تنفيذها فعلا. أنا نفسى لم أنجح بعد طول الجهد فى توليفها، وأغلب الظن أنهم مازالوا منهمكين فى العملية حتى يومنا هذا، فهى مسألة من المسائل التى لن تحل أبدا، أو هى عمل من لا عمل له.

"وكان يشغلنا غير مسألة الأحذية، مسألة التفتيش على ملابس العساكر، وكان القومندان -مساه الله بالخير- لا يحلو له التفتيش إلا فيما بين السادسة والتاسعة مساء أى فى الوقت الذى يروح فيه خلق الله عن نفوسهم، فيخرجون للنزهة أو يذهبون إلى دور السينما. ولست أشك أن الرجل كان معذورا، فقد كان متزوجا قديم العهد بالزواج، وأغلب ظنى أنه كان يتخذ من التفتيش حجة يتذرع بها للهرب من الدار .. ولكن ما ذنبى أنا، وقد كنت وقتذاك خاطبا وعاشقا، وفى أشد الحاجة لهنيهات الفراغ؟! ما ذنبى أنا أضيع كل يومى وليلى بين إصطبلات الخيل وعنابر الجنود، أستمع لقوارص الكلام لأن هذا الجواد مازال به أثر اصفرار .. وذلك الجندى قذر الحذاء غير لامع الأزرار. ما ذنبى وقد كنت أحس وقتذاك أن العمر يذهب سدى .. وأنى لا أكاد أسترق لحظات اللقاء، حتى أكون مكدودا منهك القوى؟!

"وكان هناك إلى جانب أجساد الخيل، وملابس العساكر، نظافة السروج .. وما كنت أظن أن الوقت يتسع بعد هذا

لشىء أبدا. ولقد كان يعزينى بعد هذا الجهد الذى بذلته والوقت الذى ضيعته .. أنى حققت أملا .. بعد بضع ساعات سأتقدم الموكب على ظهر جوادى الأشهب بملابسى المزركشة، وسترمقنى الأنظار بالإعجاب، كما سبق أن رمقت الفارس الذى تمنيت أن أكونه ..

"كان اليوم يوم الاحتفال بالمولد النبوى، وكان علينا أن نتحرك من ثكناتنا بعابدين حتى نصل إلى القبة، ثم نسير بالموكب بعد ذاك إلى أرض الاحتفال بالغفير وننتظر حتى نهاية الاحتفال، ثم نعود بالموكب بعد ذلك إلى العتبة، ونعود فى النهاية إلى عابدين. ولقد استغرقت المسألة منا تسع ساعات متواصلة.

"وخرجنا من الثكنات فى الساعة الثانية عشرة ظهرا، وبدأنا السير وأنا أحس ببعض الرهبة والخشية .. وزاد من خشيتى اكتشافى بعد برهة أن الجواد الذى امتطيته، لا يفزعه شىء كرؤية الملايات اللف السوداء .. وكنت قد تعودت أن أمتطى جوادا أشد ثباتا وأكثر تعودا على المسير فى الطرقات، ولكنى بدلته بهذا الجواد لجمال منظره. وصادفتنا الملاءة الأولى فى أول شارع عبد العزيز .. فوجدت الجواد ينظر إليها بحذر وتوقف. فربت على عنقه وحاولت تهدئته .. وقلت فى نفسى: ماذا يخشى الغبى من صاحبات الملاءات اللف وهن الخير والبركة؟ وأخيرا تقدم الجواد، وكأنه يجاوز شرا خطيرا ويعبر لغما أو كمينا .. وبدأت أدعو الله أن يخفف عنا شر الملاءات اللف ويبعدهن

عن طريقى. ولكن الله لم يستجب للدعاء، بل شاء أن يحشد كل ما فى البلد من الملاءات اللف حينذاك فى شارع عبد العزيز .. فما كنت أسير خطوة، إلا ويقع بصرى على امرأة فى ملاءة .. حتى لقد ساءلت نفسى: أين الرجال وكان الحصان السخيف يأبى إلا أن يخيف نفسهِ فى كل مرة .. فما حاول أن يعود نفسه على منظرهن قط، بل كان يجفل أمام كل امرأة .. وأنا أقوده مرة باللين ومرة بالشدة .. تارة بالتربيت على عنقه وتارة بنخسه بالمهماز. وهكذا استمر الحال بين ثلاثتنا: أنا، والجواد، وصاحبات الملاءات .. طيلة شارع عبد العزيز، وشارع فاروق والعباسية .. فما انقطع مرورهن فى الطريق لحظة واحدة .. ولا هو انقطع عن خوفه منهن وذعره .. وأنا بينهن وبينه وبين القومندان الذى ينظر إلى فى سخط وتبرم، حائر مرتبك وجل.

وأخيرا وصلنا إلى شارع الخليفة المأمون، ولقد كان الطريق مأمونا بالفعل .. فقد انقطع مرور الملاءات اللف .. وبدأت أتنفس الصعداء. ووصلنا إلى العتبة .. وبعد لحظات بدأ الموكب فى التحرك، وأنا أتقدمه سائرا بكوكبتى بسير "الغار" وأحسست فى تلك اللحظة أنى قد وجدت فعلا فى المنظر الخلاب. ولكن ماذا كان إحساسى؟ كان أول ما أحسست به، هو وخز فى فخذى، كأن هناك سكينا يمزقه .. ولقد كان هناك فعلا ما يشبه السكين، فلقد برز وفتذاك فى فخذ السرج شىء صلب .. لست أدرى من أين برز .. ولا كيف .. ولكن الذى أدريه هو أنه كان يخز فى فخذى

كأنه منشار أو سكين.

"ولم أستطع النظر أو التفكير فيما حولى، فقد كنت شارد الذهن .. وكان تفكيرى موزعا .. بين ذلك الشىء الذى يخز فى فخذى .. وبين خشيتى من أن تبرز من بين صفوف الجماهير المحتشدة على جوانب الطريق، امرأة من ذوات الملاءة اللف .. فتكون الكارثة الكبرى بالنسبة للجواد المأمون. وأحسست بالعرق يتصبب من جسدى، فقد كنت فى حالة من الضيق والألم يصعب وصفها. ولم يكن هناك بد من التجلد، ومن أن أسير بارز الصدر شامخ الأنف. ولمحت بين صفوف الجماهير فجأة، وجه طفل صغير وقد تعلق بصره بى، وبدت عليه أبلغ آيات الإعجاب .. فتذكرت نفسى منذ عشرات السنين .. وعرفت كيف أبدو أمام الطفل .. وقد أحاطتنى هالة من آماله المضيئة .. ومر بذهنى كيف أبدو أمام نفسى".

ويعين فى سلاح الفرسان ..

ويعد سلاح الفرسان هو حياة السباعى العسكرية فى الواقع .. فقد مكث فيه حوالى عشرين عاما، إذ دخله سنة ١٩٣٧ ملازم ثان وتركه مستقيلا من القوات المسلحة كلها عام ١٩٥٦ أميرالاى نائبا للمدير، ليلتحق بالحياة المدنية .. سكرتيرا عاما للمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .. وهو صاحب فكرته. ولا يزال يذكر كيف جاء إليه "بعزاله" لأول مرة ووراءه العربة البروسيانى

يجرها بغل قبرصى، تحمل السرير والدولاب الذى أحضره من بيتهم فى روض الفرج، ليضعهما فى حجرته بالميس.

وفى سلاح الفرسان وفى فرقة الركبدارية .. كان يوسف السباعى معلم ركوب. ومن المعروف أن السباعى كان أستاذا فى هذا المجال لعدد كبير من أبطال الفروسية فى مصر، منهم أحمد مظهر وعمر منصور وجمال حارس وغيرهم -وأنا لم أصبح شيئا .. يقولها السباعى هنا متعقبا متحسرا!!- وكان لضابطنا السابق فى ذلك الحين -السباعى- هواية تناسب عمله، أو لنقل إن عمله هو الذى فرض هذه الهواية .. التى لم تكن غير ممارسة صنع السدود. يقول صاحبنا: أنا شديد التركيز فى كل ما أفعل .. وكنت لا أنظر إلى أى شىء فى العالم حينذاك .. إلا من زاوية صلاحيته لأن يكون سدا لقفز الخيل!" وهناك حادث طريف يبين إلى أى مدى شغلته هذه الهواية الوظيفية، لقد كان من واجباته أن ينظم حلقات لقفز السدود، شبيهة بهذه التى تقيمها نوادى الفروسية رغم الفارق الكبير فى ناحية الميزانية أو الإنفاق .. بين فقر "الوحدة" إلى درجة الصفر فى هذا الأمر وبين غنى النادى .. وكان هذا شغله الشاغل، لا يكاد يفارقه أبدا. فى ذلك الحين كانت عربة الجيش "البيك آب التى تذهب به من بيته إلى الثكنة، وتمر فى طريقها بعوامة أحمد مظهر مساعد أركان حرب سلاح الفرسان، لتأخذ صاحبها أيضا. ويلتفت السباعى فجأة وهو ينتظر صديقه إلى سور العوامة الخشبى، ويعجب لنفسه كيف غاب عن ذهنه صلاحية هذا

السور ليكون "سدا"!! ولم يطق صبرا .. فبينما كان أحمد يدخل العربة، كان السباعى من الناحية الأخرى، قد رفع الدرابزين ووضعه فى صندوق السيارة، "ولا من شاف ولا من درى"! وانطلقت العربة. وأقيمت السدود وأعجب مظهر ضمنا بالسد الجديد الذى أقامه يوسف، من غير أن يكبد السلاح مليما واحدا كالعادة.

وفى عودتهما بعد الظهر، ما كادت السيارة تقترب من العوامة .. ويستعد مظهر للهبوط حتى صاحت به السيدة والدته، أن يبلغ على الفور قسم البوليس: أن سور العوامة قد سرق! واستقر مظهر فى مقعده غاضبا ثائرا وهو يضرب كفا بكف قائلا للسباعى:

- تصور الجرأة .. يسرقوا سور العوامة.

ويجيب صاحبه فى الحال ضاحكا:

- والأجرأ من كده .. يعملوه سد!

وتنطلق العربة بالسباعى وصاحبه واقفا فاغرا فاه .. وهو يتذكر السد الوجيه الذى كان يقفز عليه طوال اليوم!

(٣٧)

"وحفزنا الشباب وجنونه على أن نغمض عين السخط التى تبدى مساوئ الحياة .. فلم نعد ننظر إليها إلا بعين الرضا الكليلة عن كل عيب .. التى لا تبصر من الحياة إلا الناحية البراقة المضيئة. كنا نكسو نفوسنا حللا قشيبة من الأوهام البهيجة الفرحة .. وكنا نعرف كيف نعطيها ما تشتهى، حتى ولو لم تهيئ لنا الأقدار ما تشتهى".

يوسف السباعى ..

ويستقبل يوسف السباعى صفحة جديدة من حياته .. ليست منبتة الصلة بما سبق أن قطع من خطوات. وكان أهم اختلافاتها عن سابقتها أيام الصبا والتلمذة فى الكلية العسكرية إنها تخففت من هموم صاحبها الخاصة .. لا تزال هناك بالطبع ذكرى متجددة فى أعماقه لفقد أبيه، ولأنه سيفعل ذلك أيضا طوال حياته. ولكن نوعيتها تغيرت عن الحزن المباشر المقيم، لتنهل من تراث وأدب محمد السباعى. ولذلك كان أول كتاب يصدره يوسف فى عام

١٩٤٧ وهو مجموعته القصصية "أطياف" تحمل هذه الكلمات: إلى أبى العزيز المرحوم محمد السباعى، إليك يا أبت بعض ما علمتنيه فى أيام خلت .. وأثر لما غرست فى نفسى فى زمن ولى .. فإن وجدتنى أكتب، فبمداد من قلمك .. وإن رأيتنى أقص وأروى، فنبع من ذهنك وتفكيرك. إنى لأذكرك وقد جلست بيننا تقرأ لنا قصة "الفيلسوف" وتسألنا رأينا فيها قبل أن تنشرها فى "البلاغ الأسبوعى" .. ونحن مازلنا صبية صغارا .. فأتمنى لو استطعت أنا الآخر أن أقرأ لك كتابى قبل نشره .. ويطوف ذهنى باحثا عنك .. وعن وجهك المرح الضاحك .. ويعيينى البحث فألجأ إلى كتابك "الصور" لأبصرك من خلاله .. وأحس بك بعين صفحاته، حتى ينتهى بى المطاف إلى خاتمة الكتاب .. فأتريث عندها لحظات .. ولا أجد ما أخاطبك به خيرا من ذلك القول الذى علمته الريح لتقوله للغائب الميئوس من لقائه: أيها الغائب .. إن البين مهما حال بيننا ليترك نفسك فى نفسى، ونفسى فى نفسك كالمرآتين المتقابلتين تحتوى كلتاهما الأخرى، وإن كان الأولى فى الأرض والثانية فى السماء. أيها الغائب .. إن شمائلك ومعانيك ملموحة فى كل ما أفعل، وإنى أنم عليك كما تنم الريح على خميلة الورد، والنبيذ على عنبه .. تلك رسالتى مع الريح، لو أدت الريح الرسالة" .. أترانى بقائل لك خيرا مما قلت؟!

والعامل الثانى الذى يشكل اختلاف حاضر شبابه عن أمس صباه، هو انحيازه أكثر إلى التفاؤل وتفجيره لعنصر

مرحه. ونظن أن الفضل فى ذلك يرجع إلى أكثر من باعث، الاطمئنان إلى لقمة عيشه وقد تخرج ضابطا بالقوات المسلحة المصرية، والتخفيف بالتالى من الضغوط الاقتصادية التى كانت تحتاج معها ربة البيت "الست أم يوسف" إلى المزيد من التدبير أو التقتير. وهناك كذلك قدرة الشباب التى تبدو "هرقلية" على تحطيم القيود والعقبات وصاحبها يستقبل الحياة. ما يدخل فى تركيب شخصية السباعى من مرح ابن البلد، الذى كان يتعرض قبلا لضغوط الطفولة والصبا وأحداثهما. يذكر يوسف السباعى: "كنا نأكل ونضحك .. وننام ونضحك .. ونستحم ونضحك، ونغازل ونضحك، ونحب ونضحك، ونضحك ونضحك حتى نحس أن عضلات وجوهنا قد أنهكها الضحك فنضحك على أنفسنا .. كنا لا نفعل شيئا إلا بالضحك .. حتى ليخيل إلى أن الأقدار لو أصابتنا وقتذاك بما يبكينا، لبكينا وضحكنا".

كان يأخذ الأمور ببساطة ولا يعقدها، بل يحاول إذا كانت مركبة أن يحولها إلى خلية ذات نواة واحدة. كان يعمد إلى القبة فيجعلها حبة، على عكس ما يقول المثل الشعبى المشهور. لنقدم هذه اللقطة فى جانب من حياته اليومية فى الجيش .. "كنا نسمى الطعمية كباب، والفول حمام، ثم يسأل بعضنا بعضا:

- ماذا نتغدى اليوم .. كباب، وإلا حمام؟

فيجيب أحدنا:

- كباب .. وحمام .. حد واخد منها حاجة!

وإذا انتهينا من الغداء صحنا طالبين الحلو قائلين للخادم:

- هات الخوخ.

فيهز أحدنا رأسه ويقول:

- أنا حاحلى بتفاح.

وبعد برهة يحضر الخادم .. الخوخ والتفاح فعلا .. ولكنهما داخل "برطمانى مربى" .. يتناول كل منا منهما ملعقة .. "على الماشى" وهكذا كنا .. وهكذا كانت الدنيا معنا .. نضحك عليها فتضحك لنا .. لا هم ولا غم، ولا حزن ولا أسى .." ..

والشيء الثالث المغاير لسمات هذه الصفحة الجديدة التى يبدأ بها شابنا حياته العملية، إقباله على الكتابة بعد أن هجرها متعمدا أثناء فترة دراسته الحربية! لقد أراد كما أشرنا من قبل، أن يتفرغ للكلية تماما، ولقد فعل. ولعل حكاية القصتين اللتين كان يكتبهما كل أسبوع فى هذه الفترة وينشرهما فى مجلة "مسامرات الجيب" وجريدة "الكتلة" ∴ لون من التعويض لهجره الصارم السابق!

والسمة الرابعة هى اكتشافه لنفسه وقدرته، ومن الطريف أنه وجده فى أبعد الأشياء التى كان يظنه ملاقيها فيه .. وهو الحب! فهذا الشاب الخجول الانطوائى الحيى الذى لم يكن يجسر كثيرا على الحديث إلى فتاة، والذى كانت معظم

غرامياته في نطاق الحب من طرف واحد .. طرفه هو بالطبع. وجد أن أحسن ما يمكن أن يقدمه قلمه هو الحديث عن الحب!. ولله في خلقه شئون! وأكثر من سبب شارك في هذا الاختيار، رهافة حس وعاطفة بالفة .. وليس مثل الهوى استيعابا لهما. حالة العشق التي كانت تسيطر على حركته، فقد كان في ذلك الوقت محبا-محبوبا .. خاطبا لابنة عمه التي سيتزوجها. بلورة الحب للحديث المفضل الشهي عند القارئ وما يضفيه على كاتبه من ألوان الاهتمام أو الشهرة.

والملمح الخامس الذي يميز هذا الطور من حياة وفكر يوسف السباعي، هو تناوله الحاد ونقده وانتقاداته للمجتمع، والقضايا السياسية والحياة المصرية بشكل عام .. بأسلوب عنيف شجاع لم تألفه الكتابات القصصية بهذه الصراحة .. لا نجدها في قصاص جيله وزملائه، حتى نجيب محفوظ الذي كان يهرب إلى تاريخياته.

أحب يوسف السباعي الحياة العسكرية وكتب عنها كثيرا في أثنائها أو بعد أن تركها على السواء. وقد استفاد من هذه الحياة تجارب عديدة أشار إلى بعضها، فمضايقاتها ليست إلا نوعا "من رياضة النفس على فعل مالا تحب، وقبول مالا ترضى .. والتسليم به بلا جدل ولا مناقشة .. وهي رياضة واجبة على كل نفس في حياتنا هذه. لأن الحياة كثيرا ما تجبرنا على ما نكره وتفرض علينا مالا نشتهي .. وأعتقد أن النفس العسكرية خاصة أحق بهذه

الرياضة التى تؤهلها لقبول الأوامر العسكرية فى السلم والحرب. وتنفيذها بلا جدل ولا مناقشة حتى ولو كانت غير معقولة ولا مقبولة".

وكان يدور مثل هذا الحوار بينه وبين صاحبته، أو بين أبطاله الضباط وبطلاته:

تقول له:

- لقد وجدت فلسفة للعسكرية تسوغ بها سخافاتها .. وأظن من بين تلك السخافات حلاقة الرأس.

- قد تبدو فى مظهرها سخافة، وإن كانت تخفى فى باطنها أبلغ الحكم.

- كيف؟

- أولها ترويض النفس على قبول مالا تشتهى مهما بدا عدم فائدته وسخافته.

- وثانيها؟

- تعويد المرء على ألا يضع اعتداده وثقته بنفسه فى مظهر تافه كأنما هو شمشون إن زال شعره زالت قوته. إن نفسه هى نفسه .. بشعر أو بغير شعر.

- وثالثهما؟

- النظافة وعدم تضييع الوقت فى التمشيط والتزين و .. وقاطعته ضاحكة:

- كفى .. كفى .. حتى لا تجعلنى أعدو لقص شعرى وتحقيق كل هذه المزايا التى تذكرها.

وشاركها ضحكها وهو يقول:

- إنى أقصد بقولى .. الشعر .. لا خيوط الذهب.

هكذا كان حب يوسف السباعى للقوات المسلحة المصرية، ولهذا كان كثيرا ما يقضى لياليه فى الثكنات مع زملائه وجنوده .. بدلا من أن يقضيها فى بيته خاصة فى السنوات الأولى بعد التخرج.

فلنقض معه إحدى الأمسيات فى المعسكر. سنجده فى صالون الميس -و"الميس" هو سكن الضباط الذين يعيشون فى الثكنات. بعد طابور "المساء والهتاف"، وهو لا يزال مرتديا الحذاء الطويل وبنطلون الركوب والقميص ومعفرا ومنهكا .. بعد السير واللف فى المعسكر. وفى هذه اللحظة تكون أمنيته الوحيدة، هى نزع الحذاء وإراحة قدمه.

ونعيش لقطة ثانية تعكس إحدى جوانب قضية هامة كانت مثار شكوى الجميع فى القوات المسلحة جنودا وضباطا، وهى سوء الطعام المقدم. سواء فى كميته الضئيلة أم أنواعه الضئيلة أيضا المحددة وقذارته وسوئه. وذلك من خلال مناقشة ضابط الميس لحكمدار الميس .. والثانى هو أحد الجنود الذى يعد المسئول عن الطباخين والسفرجية و"المراسلات"، والذى يقوم بعملية شراء لزوم المطبخ من السوق. وهو فى النهاية المسئول أمام ضابط الميس عن تقديم حساب الميس. ونستمع مع السباعى إلى الحوار بين الرجلين حول هذا الحساب، والحكمدار يعمد

إلى المغالطة شأن كل طباخ وهو هادئ الأعصاب .. بينما الضابط الذى يناقشه الحساب على العكس، ثائر. والنقاش هذه المرة يدور حول رفض الضابط أن تكون الحاجة إلى صنع ستة أطباق من رز بلبن، هى ستة أرطال لبن وأقتين سكر! وتكون النتيجة أن تبلغ تكلفة الطبق -أيام زمان منذ أكثر من نصف قرن!- خمسة قروش، بينما هى فى أحسن محال السوق، ربع هذا السعر تقريبا!

وإذا كانت هذه هى مشكلة الحلو، فإن للخضار واللحم جانبا آخر، هو فساده البالغ. ويقدم أحد الضباط تفسيرا لذلك، وهو أن الطباخ يذهب إلى الخضرى يسأل: "عندك كوسة شايخة؟ يقوم يقول لك لا .. تقول له: ولا بطاطس معفنة؟ يقول لك برضه لا. تقول له: طيب عندك قوطة حمضانة؟ يقول لك: عندى شوية. تقول له: طيب لمهم لى. وبعدين تروح عند الجزار تسأله عن لحمة بايتة ولا منتنة .. .. وتفضل تلم الزبالة اللى فى السوق وتيجى تطبخها لنا"!

ولقطة ثالثة .. الحوار هذه المرة بين الضباط الزملاء ..

- وله يا شديد!
- عايز إيه يا علام؟
- تشاركنى فى أقة عنب؟
- عنب إيه يا عم.
- طيب تشاركنى فى بطيخة؟

- لا يا عم. أنا ما أحبش البطيخ .. أنا حا اتعشى عسل وطحينة.

- إيه؟! وبعدين لما أجيب البطيخة، تبقى تقولى أدينى شقة؟

- يأخى بلاش دوشة .. أبعد عنى .. بطيخ إيه .. ولب إيه؟ ويشترى علام البطيخة .. ولا يكاد يشقها، حتى يهجم عليه شديد خاطفا قلبها .. فيمسك علام البطيخة ويلبسها رأس شديد!!" ..

ولكن ماذا كانت عليه أمانيه فى ذلك الوقت؟ وما هى الرؤى الدفينة التى كانت تخايل ضابطنا الفنان المتخرج حديثا فى ذلك الحين، وهو ينساق مع نداء قلبه .. تحاول أن تستشرف من خلال عالمه الشارد غده المرجو وأحلامه العذاب؟ كانت أمانيه فى ذلك -كما كتب يوما- نوعان .. "نوع قريب، ونوع بعيد .. نوع مستطاع، ونوع فوق الطاقة، نوع فى اليد ونوع على الشجرة، أو على مدى الجوزاء. هل تعرف قول الشاعر:

منى إن تكن حقا تكن أحسن المنى

وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا

إن أمنياتى تجمع النوعين، نوع أتمناه وآمل أن يتحقق ونوع أتمناه لأعيش به زمنا رغدا".

أما اللون الأول منها، فيستوعبه هذا الحوار الذى دار بينه وبين نفسه، ودار بينه وبين ابنة عمه التى سيحبها

ويتزوجها ويتحقق له فيها نفس الأمنية:

- إنى طالب من الله -على حد قول شحات شهير- ولا يكثر على الله .. فتاة حلوة.

- لا .. بسيطة .. خليها على الله .. ماذا تريد منها؟

- أحبها ..

- أيضا بسيطة.

- وتحبنى.

- ويحب ناقتها بعيرك؟

- لا .. لا .. لا ناقة لى فيها ولا جمل .. ألم أقل لك إن شيطان الشعر قد أغواك؟

- أهذه كل أمانيك؟

- لا .. ليست كلها .. أريد الفتاة أن تشاركنى حياتى .. وتكون مثلا للزوجة .. تتوافق ميولنا .. وتتحد مشاربنا، وأن تنجب لى ابنا وابنة .. وتكون لهما خير أم وأن يرزقنى الله عربية صغيرة حمولتها نحن الأربعة، وفيلا بحديقة غناء يلعب فيها الأطفال.

- لا. لا .. أنت طماع .. يكفيك شقة، وليلعب الأطفال فى المدرسة .. أو فى المنتزهات العامة.

- حسنا .. قبلت .. موافق يارب .. تكفينى شقة وعربية نصف عمر!

كانت هذه هى أمنية الضابط الشاب لحياته الخاصة المتواضعة، أما حياته العامة فيستوعبها أمل آخر ليس عاديا بل يتفق مع طموح التصدى لرسالة إنسانية سواء بالنسبة

إلـى عـالم الفكـر أم عـالم الحـرب .. لذلـك فأمنيتـه الثانيـة لـم تكـن مـن الصنـف التقليـدى الـذى كـان يسـاور كـل رجـل عسـكرى يحـب الأدب، أن يكـون هـو حـامل السـيف والقلـم .. والـذى تمثـل فـى العصـر الحديـث تمـام التمثيـل فـى شـخصية محمـود سـامى البـارودى .. الشـاعر المقـاتل وأحـد زعمـاء الثـورة العرابيـة، نفس الحلـم الـذى سـاور شـاعر النيـل حـافظ إبراهيـم وهـو ضـابط فـى شـبابه .. بـل كـان السـباعى يريـد أن يسـتجمع مواهبـه كلـها فـى تكويـن واحـد يبلـور اتجاهـا محـددا .. إمـا عسـكريا أو أدبيـا. وكـان النمـوذج الأمثـل عنـد المـلازم يوسـف السـباعى الـذى يمـلأ عليـه خيالـه، هـو نـابليون بونـابرت! كـان كثـير الإعجـاب بشـخصية هـذا البطـل العـالمى وشـجاعته وبراعتـه فـى التخطيـط لمعاركـه الحربيـة، التـى غـيرت خريطـة العـالم وأثـرت فـى الكثـير مـن دولـه. أمـا الشـخصية الأدبيـة التـى جذبـت إليـها أحـلام فناننـا الشـاب، فوضـع فيـها منتـهى أمانيـه، فكـانت هـى الأخـرى لا تقـل عظمـة وشـهرة عـن مثيلتـها العسـكرية .. ويعـد صاحبـها أكـبر اسـم أدبـى علـى مـر العصـور، وهـو وليـم شكسـبير! لقـد كـان القـاص الشـاعر الرسـام يجـد فـى هـذه الموهبـة الفـذة النـادرة، التـى عاشـت فـى ذاكـرة القـرون والأجيـال والأجنـاس، لأنـها اسـتطاعت أن تتغلغـل إلـى الأعمـاق البشـرية وتفـهم الإنسـان وتقـف معـه ضـد قـوى الشـر .. حلـم حياتـه الفنيـة.

وللرابطـة التـى تصـل بيـن الأمنيـات والشـرود، نعـرج هنـا إلـى تسـاؤل يـهتم بـالبحث عـن نوعيـة أسـلوب سـرحان السـباعى،

بالرغم من أنه يبدو علامة استفهام ساذجة .. فما وجه الاختلاف الذى يمكن أن يكون بين شرود وشرود، إلا أن نفس التساؤل يبقى له أهميته إذا أدركنا ما بين الإنسان والآخر من فروق مهما ضؤلت .. وما يعكس التكوين الخاص على مسار صاحبه من ظلال وألوان تختلف درجاتها وعناصرها. ولكن من الضرورى أن نعرف أولا اتجاه طبيعة السباعى فى هذا المجال، لنفاجأ بأنه لم يكن يوما من هواة التطلعات من أى لون .. فلم تسير خطواته أو تجذبه إلى مركزها. ولعل السبب أن مطالبه الحقيقية اليومية الفعلية يسيرة وبسيطة، فالحد الأدنى من الأشياء الضرورية وليست الكمالية .. ترضيه وتكفيه. ومن هنا لم يجد نفسه -كما أخبر فى لقاء خاص معى- مدفوعا دفعا مباشرا إلى أن يخطط "للوصول". فهو من ناحية لم يكن مقتنعا بحكاية "الوصول" بكل أبعادها، احتقارا لمطالب الدنيا واستخفافا بالقيم الخادعة التى تستوعبها الشهرة أو الوجاهة أو المنصب أو المال. ومن ناحية أخرى إيمانا بأن الله وحده هو الذى يعطى. ولهذا فالتخطيط للمصلحة الشخصية لم يكن من أدواته، لأنه على حد قوله لى "لا فائدة منه .. حتى فى الأدب لم أكن فنانا بالتخطيط". ولا يعنى هذا أن السباعى يترك نفسه ريشة فى مهب الريح عرضة للنسمة أو العاصفة، حسب الأحوال .. تذهب به وتجىء. فإن هذه السلبية المستسلمة ضد طبيعة يوسف محمد عبد الوهاب السباعى -اسم يوسف الكامل فى شهادة الميلاد، إذا كنا قد

نسينا- التى تجعله يتخذ الموقف الإيجابى النابع من إيمانه بالقناعة .. هذه الصبغة الإسلامية التى تفرض على صاحبها، أن يتفرغ لعمله وأن يعطيه حقه من العناية بلا قلق على غد أو خشية على مستقبل أو انتظار لمطمع. ولهذا لا ندهش إذا عرفنا أن المبدأ الأول القديم الجديد ليوسف السباعى هو القول الشريف .: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه".

ولهذا كان أسلوب سرحانه أقرب إلى الواقع منه إلى الخيال .. "كنت أتخذ طريقا ليس به قفزة غير معقولة بل أجعل كل وثباته معقولة، وأخلق لها فى شرودى الظروف والمناسبات. وأظل أرتفع بنفسى شيئا فشيئا حتى أجدنى فى النهاية قد صرت بمنتهى البساطة أحد الرجلين الخالدين .. تلك هى المنى التى لن تتحقق، والتى عشنا، وسنعيش بها زمنا رغدا"!!

(٣٨)

أقدم صورة يحفظها يوسف السباعى للكاتب المعروف عباس حافظ، ترجع إلى سنة ١٩٢٥، حينما كان يوسف فى الثامنة من عمره، وسمع بهذا الاسم من والده قبل أن يرى صاحبه، كان الأب محمد السباعى وعباس حافظ صديقين ويعملان فى صحيفة "البلاغ"، قبل أن يصبحا جارين فى السكن فى جنينة ناميش فى السيدة زينب. وننتظر أن يكون السباعى الكبير دائم الانتقال من شقة إلى شقة، هو الذى وقع فى اختياره على هذا السكن الذى يجاور البيت الذى يقطن فيه عباس حافظ. كان الأب يقهقه مع أولاده وهو يذكر لهم نوادر صديقه الأديب وفكاهاته. وإذا كان الابن يوسف ما كاد يتعلم القراءة، حتى طالع كتابات أبيه الرائد الكبير فى الصحف التى يكتب فيها، فقد كانت الكتابات الثانية التى يقرؤها بجانب قصة الأسبوع لمحمد السباعى فى "البلاغ الأسبوعى"، هى "صور فكهة" التى يقدمها عباس حافظ .. وكانت رقتها وما يشيع فيها من الدعابة وخفة الدم زيادة إلى إحاطتها بثقافة متنوعة غير هزيلة لا تقتصر على العربية، ولغة غير جامدة تنكر المحسنات وتتمشى مع الحاجة إلى أدب جديد، يستوعب

اهتمامات الناس الجديدة -ولنذكر أننا فى العقد الثانى من القرن العشرين- أشياء تجذب القارئ. ويقول سباعينا: "ولا أظن شيئاً حبب إلى قراءة الأدب مع قصص أبى مثل مقاله هذا الذى كان يفيض لطفاً وعذوبة وفكاهة".

ولعل الذى حبب أبناء السباعى فى عباس حافظ، أنه صنو أبيهم فى الكثير من سماته. فهو مرح "بحبوح"، صديق أطفاله، أب من نوع جديد فى تلك لأيام ذات التربية الصارمة الجافة. رقيق فى تعامله، لا يعترف للمال بقيمة أو أهمية. وكان عباس حافظ بالذات يسرف فى إنفاقه على أسرته وبناته .. "لم يكن يمنحهم من فائض لديه، ولا من أموال اكتنزها، إنما كان يمنحهم من عرق جبينه، وكان يعمل الساعات الطوال وهو أحوج إلى الراحة وفى غير حاجة -هو نفسه- إلى جهده المضنى .. وكنا نلومه على إسرافه، وكنا نقول لو أنه اقتصد .. لبنى لهم البيوت واقتنى الأطيان" .. كما يقول يوسف السباعى.

ولم تكن صداقة محمد السباعى القوية بعباس حافظ تقتصر على صاحبيهما، بل شملت الأسرتين جميعاً بحيث كان البيتان متداخِلين، فلا يعرف الغريب أهل هذه الدار أو أشياءها من تلك. فالزيارات أو الانتقالات بين البيتين دائمة ومستمرة .. سواء بين الزوجين أو الزوجتين أو الأولاد والبنات. ولعل متانة هذه الصداقة، هى التى سمحت للألسنة أن تردد أن محمد السباعى لم يؤلف "كتابه" عن رئيس الوزراء المصرى إذ ذاك عبد الخالق ثروت باشا،

وإنما أعار اسمه لعباس حافظ ليضعه على الكتاب! على أية حال، لم يختلف الأمر بعد وفاة محمد السباعى .. إذ استمرت العلاقة الوثيقة تربط بين العائلتين بأواصر الود الصادق. وكانت واحدة من عناصر ثلاثة تتنفسها الأسرة، الأول يمثله عم الأولاد طه السباعى، والثانى يمثله خالهم. والثالث يمثله عباس حافظ صديق الأسرة الصدوق. ولم يكن تقدم الزمن وكبر الصغار، بمضعف من هذه الرابطة .. بل لعل دخول الأطفال فى دور الشباب أكدها وزادها قوة، وأضفى عليها عنصرا جديدا وهو الهوى. تحول ود وألفة الطفولة من بعض الأطراف إذن إلى عشق. وقد مهد لهذا التحول ولاريب، تناول هذا الموضوع قبل أن يولد!

ونتخيل أن الوالدتين على عادة الأمهات المصريات زمان وإلى اليوم، أشارتا أو أعلنتا بشكل صريح، فى نطاق الأسرتين منذ وقت مبكر عن الأولاد للبنات والبنات للأولاد. بل وحدت أكثر من ذلك، فتجاوز التعميم إلى التخصيص، فمحمود السباعى لفريدة، ويوسف السباعى لنبيلة، وأحمد السباعى لمنيرة. ولعل أفراد العائلتين أو واحدا منهم على الأقل، كان أسرع فى البداية من غيره فى اكتشاف دلالة هذه المصادفة التى جعلت لمحمد السباعى ثلاثة أولاد ولعباس حافظ ثلاث بنات، -قبل أن يرزق الثانى بالبنت الرابعة سناء- "فزيتنا فى دقيقنا". ولابد أنه قيل حينئذ أيضا أن هذا هو "قدر" الصبيان والبنات ولا مفر! ولا نظن أن هذا الاتفاق غير المكتوب، كان خافيا على الأولاد والبنات، سواء

فى دور التلميح أو التصريح. ولاشك أن إيحاءه قد أضفى فى فترة المراهقة ظلالاً سحرية على الصبيان والفتيات معاً .. يجعلهم جميعاً يدركون على الأقل أنهم وأنهن معشوقون ومعشوقات!

وفى البدايةِ والحديث فى هذه القضية مجرد كلام فى كلام .. والعمر فى مرحلة الصبا، لم يكن اتخاذ الموقف أو الوصول إليه .. بله الفهم، شيئاً ممكناً. ولم تدع فترة الدراسة مجالاً ليوسف، ليجعل التفكير فيما يسمع عن ارتباطهم ببنات عباس حافظ .. ما يشغل البال. وظنه أنه لا يعدو أن يكون انعكاساً يعبر عن توكيد الصداقة، رغم أنه اكتشف أن علاقته بنبيلة حافظ لم تزد عن صلة الأخوة. نعم إنه يعجب بها ويكن لها إعزازاً كبيراً، ولكن فى نطاق المحارم. ولكن عندما اقترب تخرج محمود من كلية البوليس وتخرجه هو من الكلية الحربية، دخل الحديث فى طور جديد .. أكثر متابعة وحرارة وإصراراً و .. معقولية! ولذا لم يكن من الممكن إغفاله أو تجاهله، وهو يستجيب إلى الواقع ويفرض نفسه. هنا اتخاذ القرار ولابد، يدفع إليه من ناحية أخرى شىء جديد يطرأ على مسرح الأحداث، وهو أن يوسف وقع فى حب كبير حقيقى، أعنى ليس من جانب واحد هو جانبه كالعادة .. فيه من الخيال أكثر من الواقع .. بل الحب الذى يستوعب تماماً وصاحبته التى يجد فيها الفتاة التى تشكل نموذج الزوجة التى يريد .. ومن الطريف أنها لم تكن بعيدة عنه طوال حياته .. فقد

كانت. ابنة عمه طه السباعى!

وأعلن يوسف رأيه، وقامت قيامة أسرته ..

كيف يحدث هذا؟ والقرار صدر منذ الطفولة؟! كيف يمكن أن تواجه "الست أم يوسف" أختها وحبيبتها وصديقتها. وقد عمل ابنها عملته؟! والابنة التى تحبه وقصرت حياتها على غدها معه .. ماذا يمكن أن يقال لها؟ صحيح أن من حقه أن يختار من يريدها، ولكن أين يذهب الاتفاق؟ حتى إذا لم يكن يحبها -وهم يشكون فى ذلك!- فلماذا لا يحاول ان يفعل؟ وإذا فشل ، فهل من الضرورى أن يكون الحب قبل الزواج .. لماذا لا يكون بعده؟ .. كما يجد أغلب الرجال المصريين الذين يتزوجون؟

وقابل يوسف الثورة بهدوء .. كان يعرف أين يقف كل جانب، مقدرا تماما الإخلاص الذى تصدر عنه هذه الثورة وحساسية الموضوع، وإعزازه الفائق لبيت عباس حافظ وبناته. ولكن الزواج شىء خارج عن هذا كله ولا دخل له به. ومن ناحية أخرى أعطى اختيار ابنة العم فى هذه الظروف أشواكا كان يحسب لها حسابا، خاصة أن بيت طه السباعى كان بيتيم أيضا، ووحيدته كانت وحيدة "الست أم يوسف" كذلك. ولعل غضب الوالدة كان نابعا أيضا عن رفضها أن تصور الأمور انحيازا بين الأسرتين اللتين يربطهما الدم، على حساب العائلة الصديقة. ومن هذه الأشواك أيضا أن علاقة الخال -الشخصية الثانية فى البيت

بعد الأم ورحيل الأب- لبيت العم كان يشوبها بعض الخلاف.

وينبغى الإشارة هنا إلى أن هذه الثورة المنزلية التى جابهها يوسف، لم يتعرض لها الأخ الأكبر محمود وهو يصر أيضاً فى البداية على الحفاظ على أن تكون علاقته أخوية فحسب بفريدة .. وليست شيئاً آخر غير حقيقى. ورغم أنه قوبل بامتعاض وغضب وخصام .. إلا أنها لم تصل إلى أن تكون ثورة كالتى شنت على أخيه الأوسط. والسبب أنهم جميعاً بينهم وبين أنفسهم وبينهم وبين بعضهم بعضاً، وجدوا موقفه مقنعاً! فماذا تريد -من وجهة نظرهم- من واحد "دائر على حل شعره"، مغامر ينتقل من أنثى إلى أخرى كأن بنات حواء حبات "سبحة" بين أصابعه يتسلى بها! ولعلهم -سراً- حمدوا الله الذى لا يحمد على مكروه سواه، على نجاة الفتاة المسكينة من "زوج" "فلاتى" لا يعرف المسئولية ولن يكون رب أسرة جاداً ملتزماً ببيته. - ومع ذلك وجد نفسه مقتنعاً فى النهاية بالزواج من ابنة عباس حافظ الكبرى .. واقترن بها. ولكن إن "يفعلها" الشاب الطيب المتزن الهادئ المطيع يوسف .. فشىء لا يمكن أن يتصوره عقل أو يستسيغه منطق! (رغم هذا كله، أصر القدر من ناحيته على أن يربط أكثر بين أسرتى محمد السباعى وعباس حافظ برابطة النسب. وهكذا بعد سنوات أحب "آخر العنقود" فى العائلتين .. أحمد وسناء، كل منهما الآخر، وانتهت قصتهما نهاية سعيدة وانجبا الصبيان والبنات، كما صنع محمود السباعى وفريدة حافظ).

ومرت الأيام ..

وترفض نبيلة حافظ الخطاب الذين يتوافدون .. فقد أصبحت تنكر فكرة الزواج. وكانت أسرتها وأسرة السباعى أيضاً تأمل أن يخفف الزمن من قسوة الصدمة على الفتاة الرقيقة وتنسى. وتمضى الشهور ونبيلة لا تستطيع النسيان، ومرضت .. ولم يستمر مرضها طويلاً، وماتت.

وصدم الجميع .. فقد كانت الفتاة عزيزة على الجميع، وكان أكثرهم ألماً .. يوسف السباعى. لقد كان حزنه حزنين .. فقده لمن كان يعدها أختاً، وإحساسه أنه "تسبب" فى وفاتها. صحيح أن العطف وحده لا يجب أن يكون هو الدافع إلى الزواج، وقد فعل. ولكن ألم يكن هناك وسيلة أخرى .. كيف؟ لا جواب. ورغم ذلك ظل التساؤل قائماً. وقد أثر هذا الحادث على يوسف وقتاً غير قصير، سبب إزعاجاً شديداً لمن حوله .. وهو لا يفتأ يناقش مسئوليته فى ذلك. ويتهم نفسه أنه وراء .. "الجريمة"؟ واستولى عليه مد هذا التفكير، وهو يشعر بما يشبه الحب "الدفين" لهذه الفتاة العزيزة التى ماتت. ويتساءل بينه وبين نفسه، هل كان يعشقها وهولا يدرى؟ نعم لماذا لا يكون هذا صحيحاً .. وتدرك أسرته وعباس حافظ أيضاً، أن عزيزهم يوسف يمر بمحنة حقيقية، وأنه يفسد حياته بهذا الشكل، وهو ينساق مع التفكير الخاطئ. وأنه يعذب نفسه بلا مبرر، كما أنه كذلك يؤلم ابنة العم التى اختارها زوجاَ. ويتكتلون جميعاً لتخفيف الصدمة عليه وإقناعه.

ورويـداً رويـداً تنجـاب حـدة الأحـزان، ولكـن يبقـى الألـم فـى النفس يذكـر الفتـاة ..

ويومـاً يمسـك يوسـف السـباعى قلمـه ويكتـب قصتـه "حلـم ليلـة" -نشـرها بعـد ذلـك فـى أولـى مجموعاتـه القصصيـة وهـى "أطيـاف" عـام ١٩٤٧- تسـتوعب بشـكل مـا ومـا يقتضيـه العمـل الأدبـى، هـذه المأسـاة. فبطلـها شـاب يعـرف فيـه خفـة الـروح والمـرح الدائـم والاسـتهتار بالحيـاة، أمـا هـى فابنـة عمـه "نشـأت معـه فـى داره، وكـانت تتمتـع بكـل مـا يحبـب فيـها صاحبنـا مـن قلـب جميـل ووجـه أجمـل. ولـم يكـن هنـاك مـن يشـك فـى أن الفتـى والفتـاة سـتربطهما الأيـام بربـاط الـزواج. وكـانت الفتـاة من جانبها قـد شـغفت بـه حبـاً .. وجعلـت منـه أملـها فـى الحيـاة. ولـم تكـن تـهتم كثـيراً أن يعلـم النـاس عنـها أنـها تحبـه. ومـادامت سـتتزوجه فعـلاً، فـأى ضـير عليـها مـن هـذا الحـب! ولكن صاحبنـا كـان مركـز الخطـأ، ومحـور الشـذوذ، فقـد كـان بعيـداً كـل البعـد عـن التفكـير فـى الـزواج. وفـوق ذلـك فـإن شـعوره نحـو الفتـاة لـم يكـن ليتعـدى ذلـك الشـعور الـذى يشـعر بـه نحـو أختيـه وأمـه. ولـم يكـن يتصـور قـط أنـها قـادرة علـى أن تمـلأ ذلـك الفـراغ من نفسـه الـذى تملـؤه صاحباتـه العابثـات اللاهيـات، ولا بمسـتطيعة أن تبعـث فـى رأسـه تلـك النشـوة التـى يبعثنـها فـى رأسـه والحـرارة التـى يمـلأن بـها جسـده. وكـان مـن مبدأ الأمر يـأخذ أحـاديث مـن بـالدار عـن زواجـه بـها، علـى أنـها أحـاديث لا تعـدو الـهزل والتفكـه. ولكنـه عندمـا وجـد الأمـر قـد بـدأ يتخـذ صبغتـه الجديـة، لـم يجـد بـدا مـن أن يوقـف

الأمر عند حده .. "ولا داعى لأن تتعلق الفتاة بوهم من الأوهام".

ويصور القاص صدمة الفتاة عندما علمت بحديث الفتى وتحطيم أمانيها. وكيف حاولت أمه أن تخفف من لوعتها "فكانت تكثر من السب فيه أمامها، وتكثر من ذكر عيوبه ونقائصه كى يتحول عنه قلبها، ويذهب حبها له".

وتصاب الفتاة بوعكة خفيفة، تزداد ثقلاً مع الأيام حتى تصبح داء عضالاً .. "وهزل القدر .. فيما هزل .. فخطف الفتاة. وترك النفوس بعدها مشدوهة حيرى. وكانت صدمة لصاحبنا .. ولكن خفف من هول الصدمة، تأكده فيما بينه وبين نفسه، أنه لم يغرر بالفتاة قط أو يخدعها، وأنه لم يذكر لها مرة كلمة غرام، أو لفظة حب، وأن ضحكه معها ومرحه لم يزد على ذلك الذى كان يفعله مع أختيه .. وأنه على النقيض قد صارحها بالحق، فى الوقت الذى عز فيه الحق، وسادت الخدع الأباطيل". وفى إحدى الليالى يحلم الفتى حلماً غريباً، كان وسط أسرته فى حجرة الصالون التى بها صورة زيتية كبيرة لابنة العم المتوفاة. وإذا بالجميع يشيرون إلى أن الصورة تتحرك، فيغضب الفتى ويظنهم يسخرون منه .. ولكنه يفاجأ بعد قليل أن صاحبتها تتحرك فعلاً، بل وتخرج من الإطار موجهة الحديث إليه:

- فيم جلوسك هنا، لقد برئت من حبك، ولم أعد بعد فى حاجة إليك، أو قد ظننت أن الله لم يخلق فى العالم غيرك؟

لقد كنت بلهاء حين تعلقت بك كل هذا التعلق.

وأحزن الفتى أن تكون الفتاة لازالت غاضبة عليه كل هذا الغضب، فأطرق فى أسى وحزن. وأخذ أفراد الأسرة يتسللون من الحجرة، وعندما حدث ذلك .. انسلت الفتاة من "البرواز" وأخذت تقترب منه .. ويقدم قاصنا هذه اللقطة ذات الدلالة. ورقت نبرات صوتها فامتلأت بالحنان والعطف، ثم قالت بصوت هامس وهى تربت بيدها على كتفى:

- هل أغضبك كلامى؟ إنى لم أصدق فى حرف منه، ولكن كان لابد لى من قوله .. على الأقل لكى احتفظ بكرامتى أمامهم، وعلم الله أنى كاذبة فى كل كلمة قلتها لك.

"وتقدمت منى حتى التصقت بى .. ثم جلست على ركبتى، وأتمت حديثها:

- نعم .. علم الله أنى لن أبرأ من حبك، وأنى دائماً فى حاجة إليك، وأن الله لم يخلق لى فى هذا العالم غيرك.

"وشعرت بحب جارف نحوها، ولم أستطع أن أقاوم ذلك الدافع الخفى الذى يدفعنى إلى احتضانها وتقبيلها. وعجبت فى نفسى، لم ضيعت هذه الأيام الماضية دون أن أمتع نفسى بحبها، وكيف أضعت ذاهب العمر هباء؟ دون أن أرشف قطرة واحدة من كأسها الحلوة. وكانت مناجاة عذبة لم أذق مثلها قط فى حياتى.".

ثم تودعه باسمة سعيدة، وقبل أن تعود إلى إطارها

تواعده على اللقاء. وعندما يستيقظ يعدو سريعاً إلى الصورة وهو شبه مجنون .. "وبى من الشوق واللهفة إلى فتاتى ما لم أشعر به نحوها فى إبان حياتها" .. ولكنه يجد الصورة ثابتة جامدة، لا روح فيها ولا حياة.

وتنتهى القصة "الموضوعة" باضطراب عقل الفتى، الذى يتجسد فى جلوسه الدائم أمام الصورة، انتظاراً لموافاة صاحبته بموعدها ..

(٣٩)

والـهوى ليـس كبـير الحجـم فـى كتابـات يوسـف السـباعى فحسـب، بـل هـو قديـم الأثـر فـى حيـاة صاحبـها كذلـك. فقـد عـرف هــذا الفنــان العــاطفى الــذى سـطر كثـيراً فــى العشــق والعشـاق، الحـب منـذ وقـت مبكـر فـى حياتـه .. وهـو لـم يغـادر بعـد سـن الطفولـة، عندمـا كـان فـى السـابعة مـن عمـره .. أحـب أول فتـاة فـى حياتـه، أحبـها مـن بعيـد كعادتـه. فلـم يكـن فـى يومـها يملـك الجـرأة ليقـترب منـها ويحادثـها .. مجـرد اقـتراب ومجـرد حديـث، وليـس بـالطبع غـزلا ومكاشـفة بغـرام .. فـدون ذلـك المـوت الأحمـر والبـلاء الأكـبر. وشـىء آخـر يكشـف عنـه هـذا الغـرام القديـم أيضـا وهـو أن يوسـف لا يملـك الإلحـاح المسـتمر إلـى درجـة الوقاحـة أو التـهجم الـذى يتطلبـه غـزو القلـوب. فـى حديـث خـاص مـع يوسـف السـباعى، يقـول: "عمـرى مـا بصبصـت ولا عاكسـت، لمـا يغلـب علـى مـن حيـاء وقلـق. وربمـا أفعـل ذلـك لأجنـب نفسـى شـر الخـذلان، إن قصـة حبـى لا تسـتكمل إذا لـم يكـن الطـرف الثـانى يتمتـع بإيجابيـة فيتحـرك". ويذكـر أنـه "اسـتلطف" صبيـة يونانيـة فـى روض الفـرج أيـام مدرسـة شـبرا الثانويـة .. وهـو ذاهـب وآيـب إلـى المدرسـة ومنـها. ولـم تكـن حـواء الصغيرة فـى حاجـة علـى مـن

يدلها على إعجاب التلميذ الصغير الخجول، واستقبلت خجله كنوع من التمهيد الحيى الذى لا يلبث أن يزول عندما يندفع فى حبه. ولكن مرور الأيام ومواظبته على اتخاذ الطريق فى ذهابه وإيابه، لم يحول إعجابه الصامت إلى إعجاب ناطق. ولم تملك الصبية الحسناء إلا أن تخطو هى إليه، وفعلت. كانت قد عرفت مسكنه -وهما أبناء حى واحد- فبدأت هى تمر عليه بين الحين والحين .. لكن صاحبنا لا حياة لمن تنادى! فرح بتكرار رؤيته لها، ولكنه لم يستطع أن يبعد أكثر من ذلك، مع أن الشوق كان يسيطر عليه. وقبل أن تسأم الفتاة اللعبة غير المجدية أو هذا الغرام "اللى مش جايب تمنه" .. وقع حادث غير المسار ووضع للقصة خاتمتها. فقد كان هناك مخلوق ثالث، وضعته الأقدار فى موضع لا يمكن إلا أن يتابع فيه هو أيضا ما يدور على المسرح، ولم يتمالك أن تستمر "خيبة يوسف وإعطاء الحلق للى بلا ودان" أكثر مما أخذت. ولأنه من ناحيته كان عملياً جريئاً مغامراً لا يؤمن بهذا الأسلوب الفاشل على الإطلاق، ولا يطيق أن يكون الغرام بهذا الشكل الحالم الرقيق .. فقرر أن يتدخل لصالحه. وكان هذا المخلوق هو محمود السباعى شقيق يوسف الأكبر نفسه! انتظر "الجريجية" الحسناء فى موعد ظهورها، وأخذ يغازلها على الفور. ولم يطل تردد الفتاة .. بادلته النظر والابتسام، ثم تحديد اللقاء .. وخرجت من حياة يوسف! ويعقب السباعى على هذه الحادثة القديمة بقوله ".. انتهت "علاقتى"

بالفتاة بلا كلمة .. لم تشكل هى أو غيرها إلا ما يترك الشبح أو الخيال أو الطيف. أما فى كيانى الداخلى .. فهن يشكلن شيئا كبيرا".

ثم جاء الحب الحقيقى الذى يصف السباعى صاحبته بأنها "أحب من وفى وأوفى من أحب .. الحبيبة الأولى .. أم بيسا وإسماعيل". وإذا كان الحب ليس شيئا مجردا يعيش بمعزل عن الحياة، لأنه علاقات إنسانية تمتد إلى أكثر من شخصى الحبيبين، فمن الضرورى قبل أن نبدأ فى التعرف على هذا الهوى المتمكن المستمر، أن نلتقط ما يحيطه من أشياء ليس من السهل إغفالها لأنها تسقط من القصة الغرامية الكثير من النبض الذى تنفسته.

تزوج الأخ الأصغر طه السباعى مبكرا قبل أخيه الأكبر محمد السباعى، وعندما أصبح أبا مرة ومرتين ترك بيت الأسرة الذى كان يلم شمل الجميع كعادة مجتمع الجيل الماضى، الذى كان "بيت العيلة" بمثابة الأصل والعماد الذى يضم الأجداد والآباء والأحفاد وأحفاد الآباء. وكان طه أول الفروع التى خرجت من البيت فى سنة ١٩١٦، ترك السيدة زينب إلى روض الفرج. وعندما توفى أخوه عام ١٩٣٠، انتقلت أسرة محمد السباعى إلى روض الفرج ليكون الأولاد قريبين من عمهم. وسكنت الأرملة وأولادها فى بيت خاص بنته بعد أن باعت أرضها فى القرية. وفى سنة ١٩٣٠ اشترى طه السباعى أرضا فى مصر الجديدة، وبنى عليها فيلا صغيرة هى التى عاش فيها إلى آخر يوم فى حياته.

ومن المنتظر أن يكون طه السباعى قد أخذ عن أخيه الكثير .. وخاصة أن الرجل كان دائما يعتد بأسلوبه الأدبى، فيقول لى. إن اشتغاله بالأدب مع أنه لم يحترفه هو الذى نفعه فى الحياة الوظيفية (ولنذكر إعجاب إسماعيل صدقى ومكرم عبيد به)، بجانب استقلاله فى الرأى وعدم احترام الرؤساء كشقيقه .. "الفكرة اللى كانت سايرة عنى، أنى عنيد زى أخويا محمد السباعى" ولذلك كان العم أقرب إلى أبناء أخيه، من الخال .. الذى كان يشارك فى الإشراف هو الآخر على أبناء محمد السباعى .. أولاد أخته. وليس من أصعب تخيل الاختلاف فى وجهات النظر بين أقارب الزوج والزوجة، فهو إحدى القضايا التقليدية فى الأسرة المصرية. وقد انعكس هذا الأثر أيضا بشكله المكتوم والمعلن على العلاقات بين عائلة محمد السباعى وكل من الجانبين، العم والخال. وأظن أن انتقال طه السباعى من روض الفرج إلى مصر الجديدة، كان أحد بواعثه أن يخرج نفسه من هذه الأزمة، ولا يتيح لها تصعيدا بلا موجب.

والإشارة إلى هذه القضية، أو ما يشبه الصراع الحقيقى أو المصطنع بين الخال والعم .. مع ما هو معروف أن أيا منهما -وكلاهما حريص على ماله- لم يشارك فى "الإنفاق" يوما على أسرة محمد السباعى، وأن الست أم يوسف هى صاحبة الفضل الأول والأخير فى تسيير دفة المركب وسط العواصف والأنواء .. مثل هذه الإشارة لا يزال يضيق لها صدر أبناء محمد السباعى، بالرغم من مرور ثلاثة أرباع

القرن عليها، فلا يحب أحد منهم أن يذكرها أو أن يشير إلى تفاصليها. ولكن قارئ يوسف السباعى يستطيع مع ذلك كله، أن يعرف اتجاه بوصلة عواطف كاتبه على الأقل بين أفراد أسرته. والثانى ما عرف عن قاصنا من موضوعية وصراحة حتى وهو يتناول طرفى النزاع فى غير النزاع، فى أعماله القصصية. ويكفى أن نشير اللحظة إلى تصويره فى طفولته على الأقل، للكراهية المتبادلة بينه وبين جدته لأمه، ونقيضه على طول الخط من الحب الكبير المتبادل بينه وبين جدته لأبيه .. لنجد أن المؤثر كان يتجه بإعزازه ناحية أقارب الأب لا الأم!

على أية حال، فقد منع هذا الجو المضطرم من اضطراد العلاقات فى خط مستقيم، فأخذت تضطرب بين مد وجزر. ومن الطبيعى أن يكون الطفل أو الصبى الصغير خارج دائرة هذا الصراع أو يكاد، فهو يعيش حياته بعيداً عن عالم الكبار وعواطفهم الساخنة أو الباردة، لا يصيب أعماقه إلا رذاذها. ولذلك استمرت صلة الصغار ببعضهم البعض قوية، لا تنفعل كثيراً بما يصيب رءوس الآباء والأمهات من غليان. وهكذا لم يشب صلة أبناء محمد السباعى بابن وابنة طه السباعى شائبة، وإذا قصرنا الحديث على صبينا وجدناه يستمر فى صحبته لابن عمه إسماعيل ويزوره بين الفينة والفينة فى حدائق القبة وشارع ولى العهد. يقضى اليوم كله معه -وكان هذا يحدث أما فى أيام الجمع أو العطلات- كأنه يزوره فى بلدة أخرى .. هكذا كانت تبدو مصر الجديدة زمان بعيدة عن روض الفرج .. يمرحان فى

الحقول ويصيدان السمك ويلعبان الكرة. وعندما التحق الأول بالكلية الحربية وتخرج منها وتحقق للثانى أمله فى الالتحاق بكلية الطب، لم تنقطع الصلة أيضا. ولكن ماذا بشأن دولت أخت إسماعيل طه السباعى فى هذه الأثناء؟

كانت فى علاقتها مع ابن عمها تقيم ما يشبه السد، فهى من ناحيتها كانت تحب أن تبدو متكبرة جافة منقطعة بعواطفها واهتماماتها عن الآخرين .. الغرباء أو الأقرباء على السواء .. انطوائية لا يجذبها إيناس المجتمع والصحبة. ولما كانت الأقطاب المتشابهة تتنافر والأقطاب المتناقضة تتجاذب، فقد اصطدمت الفتاة بيوسف الخجول صاحب الكبرياء .. خاصة وأنه من ناحيته لم يكن يبدى استعدادا لتغيير وجهة نظر الغير عنه، كما أنه فى زيارته لبيت عمه كان ينطلق توا إلى حجرة إسماعيل. ولعل عاملا آخر كان يباعد بين الصبى والصبية ويلقى بظله الثقيل الكثيف بينه وبينها، وهو إحساسه العميق بما يشكل ثراء بيتها وفقر بيته -كان فى الواقع "مستورا" وليس فقيرا- بالنسبة إليها. وإذا كان الصغار عادة لا يلتفتون بوعى إلى مثل هذا الاختلاف المادى بين مستويات بعضهم البعض المعيشية، فلا تفرق بين صداقاتهم ولا تلقى فى الغالب ظلا يبذر بذور الشقاق أو الحقد بين علاقاتهم، إلا أن يوسف وجد نفسه يفكر فى هذا الأمر. بل ويعزو إليه الموقف الأقرب إلى التجاهل الذى تتخذه الصبية. مما كان يدفعه إلى المزيد من شموخ الأنف ومقابلة تجاهلها بتجاهل أشد، حتى باتا

وكأنهما غريمان لا أولاد أعمام .. هما فى الواقع أقرب إلى بعضهما البعض من الغير من الأقارب. وبالطبع لم تكن دولت تفكر بهذا الشكل، إلا أن ظواهر الأشياء كانت تؤكد نقيضه. وهكذا مرت سنوات الصبا حائل يقف بينهما يمنع لقاءهما. ثم تهاوى هذا كله مرة واحدة.

كان ذلك فى يوم لا ينساه كل من الطرفين. حتى أن يوسف السباعى يذكره كما يذكر الأحداث الجسام فى حياته التى تؤرخ بها الأشياء، ويحدده فى إحدى رواياته تحديدا بالساعة واليوم وهو "قبيل الغروب" .. يوم صيف من أيام يوليه الثلاثاء الخامس من الشهر عام ١٩٣٧! كانت الفتاة تجلس فى إحدى شرفات الدور الأول من الفيلا تحلم -وهذا ملمح آخر مشترك بين الفتى والفتاة- فكل منهما يهيم بالشرود ويغرق فى السرحان والمكان المختار الذى يزاول فيه هوايته هو الشرفة .. الفارق الذى كان بين شرفتى ابن العم وابنة العم هو أن الأولى عارية إلا من أصيص زرع عادى هنا أو هناك، بينما الثانية كاسية تزدان بالكثير من أصص النبات المنتقاة الفاخرة .. بجانب أن الفيلا محاطة بحديقة صغيرة تصعد منها المتسلقات المزهرة. ومع أن الفتاة لم تكن غارقة فى تهاويمها إلى الدرجة التى تلغى الحياة حولها، إلا أنها لم تستطع أن تحدد بالضبط صاحب القدم الذى سمعته يقترب من جلستها، فظنت أنه أحد العاملين بالدار. ولذلك كانت مفاجأتها شديدة عندما سمعت صوتا بدا غريبا يحدثها، وعندما رفعت رأسها

بسرعة، كانت مفاجأة أخرى تنتظرها وهو يقف منتصبا فى بذلته العسكرية "المكسمة" تماما على جسده، فى اعتدال قامة ورشاقة قد .. وضيق واتساع صدر والوجه الأبيض الذى أكسبته الشمس لونا برونزيا ونجمة ملازم ثان على كتفه، وكان هو ابن العم الأوسط يوسف، وفى غمرة انفعالها الشديد الذى لا تدرى مأتاه، لم تستطع أبدا أن تتذكر أو تستوعب ضيقها القديم منه واتهامها له "بالنفخة الكداية" والجفاء القائم بينهما. وفى غمرة هذا الانفعال كذلك، تمكنت من أن تلتقط بحساسية الأنثى الصغيرة، طيب وقع مرآها أيضا عليه بعد غيبته غير القصيرة. وهكذا وجدت نفسها بعفوية شديدة تستقبله بأسلوب آخر تماما، لم تفكر فيه أو تعده قبلا .. لأن يوسف كان آخر إنسان يمكن أن تتصور وجوده بجانبها بهذا الشكل.

وكانت البداية التى لم يخل اللقاء الأول فيها من الرواسب القديمة عندها، التى طفت بلا وعى كأنها تذكر بأيام قديمة .. فغادرها رغم ارتياحه للقاء بشكل عام .. غاضبا. والسبب أنها قالت له إنه يبدو ببدلته وأناقته المفرطة كأنه ليس ضابطا بحق وحقيق، بل .. ممثلا! وساءه وهو الضابط الجاد الذى "يكع الدم" طوال النهار مع جنوده، زيادة إلى آخر فرقة يأخذها وهى "الركبدارية" .. أن تقول عنه هذا! ولعل هذا السبب هو الذى جعله لا يغفر لها عدم دقة الكلمة .. مع ما يعرف كأديب من أن دقة اختيار اللفظ، يعوز الكثيرين منا خاصة إذا كانوا بعيدين عن هواية ثقافية أو أدبية.

ولكن الإعجاب الذى يطرأ والحب الوليد الذى يتكون فى غفلة من العيون، يدفع الفتاة التى لم تكن تقصد إغضابه إلى الاعتذار، كما يجعله يغفر لها قبل أن تفعل!

وتزوجا .. وهذه النهاية السعيدة لقصة الحب بينه وبين ابنة العم، كان مشجعا ليكون يوسف السباعى هو الأديب المصرى الأول الذى يدافع عن الزواج ويدفع إليه ويحببه إلى الناس والشباب .. ولكن هذا لم يحدث، وكان العكس هو الصحيح .. إذ أخذ يهاجم الزواج والمتزوجين هجوما قاسيا! فهل ظن أن سعادته فى بيته مسألة فردية وحدث نادر لا يتكرر خارجه -لا يزال يذكر عن السنوات الأولى للزواج أنها كانت "أنضر أيام عمره"- أم هو مجاراة التيار السائد الذى يقوده الرجال والأدباء والكتاب أولهم عادة ضد المرأة والزواج وتحبيب حياة العزوبية؟ أم هو التفرقة بين رهافة الحب وصرامة الزواج؟ على أية حال، لقد بدا هذا الموقف لدى الكثيرين مناقضا لكتاباته العاطفية وتصويره المتعاطف لعالم المرأة الوجدانى. ولكن قبل أن نتابع هذا الجانب، لنقف على رأى يوسف السباعى نفسه الذى كونه عن موضوع الزواج:

"المشكلة الرئيسية فى بيوتنا هى مشكلة القيود التى يرسف الزوج فى أغلالها من ناحية، ومشكلة الشكوك التى تنخر صدر الزوجة من ناحية أخرى. والرجل بصفة عامة .. لو حاولت المرأة أن تدرسه .. فستجده يمر فى حياته بثلاث مراحل: المرحلة التى يتلهف فيها على امرأة تشاركه

حياته والتى يتوق فيها إلى بيت يضمه وشريكة حياته ومن حولهما الأطفال يملئون البيت تغريدا. ويظل هذا الحلم يداعب خياله حتى يبدأ فى تحقيقه، ويحصل فعلا على شريكة الحياة، وعلى البلابل التى تملأ عش الزوجية تغريدا. وهنا ينقلب الحلم حقيقة ويواجه الزوج بما فى الحقائق من مرارة، وينقل الحلم حقيقة ويواجه الزوج بما فى الحقائق من مرارة، ويثقل العش بكل ما فيه على أكتافه، ويكتم أنفاسه. ويبدأ مرحلة حمل الأثقال، ويحس بنفسه كأنه شيال فى محطة سكة حديد، يحمل على كتفيه زوجته وأولاده. ويكد طوال يومه لكى يعود فى آخره .. ليلقى بنفسه وراء قضبان سجن الزوجية. ويفتح عينيه فى اليوم التالى على مزيد من الأشغال الشاقة .. وهكذا لا يعود الرجل من أمنية فى المرحلة الثانية قدر أن يلقى من فوق كتفيه بالحمل الذى ينقض ظهره، ويريح نفسه، ولو برهة، من حمل الزوجة والأولاد.

"ومن أجل هذا يحاول أن يجد لنفسه -استراحة- فى خارج البيت، ويختلف نوع الاستراحة ومداها .. بالنسبة لاختلاف طبائع الأزواج. وهنا تتخذ شريكة الحياة .. دور البوليس ووكيل النيابة والمحقق والقاضى والخصم والمطارد، ومنفذ الحكم. وتصبح بطبيعة عملها الجديد الخصم التقليدى للزوج، وتصبح أولى واجباته هى الهروب بقدر ما يستطيع من الزوجة .. وتضليلها فى مطاردته والكذب عليها عند استجوابه. وتصبح أمتع أوقاته هى

الإجازة الصيفية .. ليس لأنه يهرب من حر القاهرة .. ليستريح فى المصيف .. بل لأنه يقذف بالزوجة إلى المصيف ليسترخى وحده فى حر القاهرة. وأصبح الاسم الشائع للأزواج فى الصيف هو الأزواج الأحرار.

"تلك هى المرحلة الثانية التى يمر بها الرجل، والتى يتوقف على الزوجة وحدها مصيره خلالها، والتى تستطيع إذا ما أمعنت فى المطاردة والتحقيق أن تجعله يفر منها نهائيا والتى تستطيع أيضا ببعض الصبر والصهينة أن تنتقل إلى المرحلة الثالثة. وهذه المرحلة الثالثة هى مرحلة الخشوع .. التى "ينهد" فيها الزوج و"يتلم" فى بيته. ويمل فرط النط، والزوغان، و"فروغية العين" ويتعب من فرط التنقل بين الاستراحات، ويتهلف على العودة إلى الاستراحة الحقيقية فى بيته مع زوجته وبين أولاده .. الاستراحة التى لا تحتاج منه إلى أى جهد لإرضاء أصحابها .. سوى مجرد الهدوء بينهم".

وبهذا يحاول السباعى أن يلغى التناقض الظاهر بين دعوته إلى الحب، واتهامه للزواج أنه قيد. ويفرق بين الأول والثانى، محللا المراحل التى يمر بها الأخير .. مطالبا أن يكون الزواج شركة حقيقية لا تلغى الاختلاف "المشروع" بين الرجل والمرأة ومن الضرورى أن نلتفت إلى أن السباعى إذا تكلم كرجل، فمن خلال شخصية الفنان الذى تتاح له حدود أوسع فى حريته من الرجل العادى .. وهو الاختلاف الذى يجعل "بحبحته" فى محلها وليس افتراء على حق المرأة والزوجة!

هل نحن فى حاجة إلى أن نذكر لك صفة "السرحان والشرود" التى تدخل فى تركيب الكثير من شخصيات يوسف السباعى، لأنها أصلا تدخل فى تكوين صاحبها نفسه. ونتمثل ببعض مجموعاته مثل "اثنا عشر رجلا - ليالى ودموع - هذه الحياة - أغنيات - هذه النفوس - همسة عابرة" وغيرها، أم ندع هذا الأمر لك مادمت تتابعه وربما تكون أنت أدرى به منا؟ فتتذكر على الفور اعترافه المعروف الذى يتكرر عن "عادتى القديمة فى السرحان والشرود"! السرحان إذن شريك قديم صاحب طفولته وصباه واستمر ينساب فى بقية مراحل حياته، ثم عبر عن أدبه. يقول الراوى فى إحدى قصصه: لا أذكر أنى قد استطعت من قبل أن أرغم نفسى على الإنصات إلى أى متحدث، مهما بلغت خطورته، دون أن يشرد ذهنى فى منتصف الحديث!

ونتيجة ذلك كما حدث فى قصة أخرى أن ينسى البطل نفسه، وهو هنا كريستوف كولومبس الشاب مكتشف أمريكا بعد ذلك -وهو يعمل فى حانة أبيه .. خدمة الزبائن وتنظيف الموائد وتفريغ الدنان وملء الكئوس، ليشرد هائما فى قصص المغامرات، فينال من عقاب أبيه ما يكفيه!

وتفسر قصة أخرى هى "حياة مقلوبة" بعض العوالم الداخلية للسرحان، يدور هذا الحورا بين بطليها:

- ذهنى .. منذ متى استطعت التحكم فيه، والسيطرة عليه ..؟ إنه ذهن تائه شارد جواب رحال ..؟!

- أتعنى أنك لا تستطيع أن توجهه إلى حيث تشاء؟

- بتاتا .. إنه حر طليق .. وإنى منه على صهوة جامح ثائر يندفع إلى حيث يهوى. ما استطعت قط أن أخضعه لسلطانى.

- أمركما عجيب!

- وأى عجب! إن بينى وبينه تنافرا شديدا .. فهو يأبى أن يكون حيث أكون، أخلو به للصلاة والركوع والسجود، فإذا به قد انطلق فى منتصف الصلاة يعيث فسادا وتركنى أتمتم بذكر الله بلا وعى .. وهو شارد فيما لا علاقة له بالصلاة أو بذكر الله.

- هذه سفالة.

- ليست دائما .. فقد يحدث العكس .. إذ ربما جلست جلسة حمراء بين الحسان وبين الكأس والوتر، فإذا به - بلا أدنى مناسبة- قد شرد فى ذكر الله والإيمان، فأفسد على ليلتى .. وجعلنى كالصنم بين الحاضرين.

- مسكين .. كان الله فى عونك!

حتى صرامة الكلية الحربية أو كلية أركان حرب ودراساتها، لم تستطع أبدا أن تخلصه من سرحانه .. بل لعلها كانت فى بعض الأحيان الدافع إلى المزيد من هذا الشرود .. خاصة وأن معظم موادها كانت تقف على النقيض الحقيقى من مزاجه الفنى .. الذى أنكره أثناءها وباعد بينه وبين أى اتصال لصوره. يوم أصر على دخول المدرسة العسكرية .. نعم، وأصر على أن يتنكر لماضيه الأدبى إذا بدأه فى القصة، ويجاهره بالعداء فلا يمسك القلم .. نعم. ولكن أعماقه ولا وعيه التى لا يملك إزاءها شيئا، كانت تنتفض بالحياة بين حين وحين وتتنفس .. سرحانا.

وهكذا ثأرت لنفسها من صاحبها ..

ولم يكن هذا الشرود خافيا على الآخرين، أى بينه وبين نفسه فحسب لا يطلع عليه زملاؤه .. أبدا بل كان هؤلاء الزملاء يعرفون. ومن الطريف أن حكاية بناء العمارة الجديدة التى تابعها صاحبنا فى مدرسة شبرا الثانوية طابقا طابقا، حتى انتهت .. تكررت فى كوبرى القبة وهو مدرس فى كلية أركان حرب .. كان يعرف جيدا خطوات البناء خطوة خطوة .. كيف يوضع الأساس .. وتقام الأعمدة .. وترتفع السقالات .. وتهز المونة .. ويحملها الفعلة .. وتلتصق الطوبة بالطوبة ويوضع الصف منها فوق الصف .. ويصب السقف .. ويتم تجهيز العمارة وتبيضها! لقد أصبح خبيرا! ولا يشك أنه كلما كان حجم العمارة أكبر، كان ذلك أدعى لراحته إذ يجد موضوعا متصل الحلقات يمتص سرحانه. ولذلك عندما أوشك البيت على التشطيب، أحس بالأسى .. وكان ذلك واضحا إلى الدرجة التى جعلت جاره الذى يدرس معه -اليوزباشى المهندس حمدى المغربى- يضرب كفا بكف ويقول له فى أسف حقيقى:

- يا خسارة .. العمارة خلصت .. حتسرح فى إيه بقية السنة؟!

(٤٠)

وكان حصول يوسف السباعى على شهادة الأركان حرب فى عام ١٩٤٤، نهاية المطاف لدراسته العسكرية بالنسبة إليه. إنها الشهادة الرسمية الكبيرة فى ذلك الوقت على أنه رجل عسكرى قح، وهو كان ينتظر هذا الحكم، فى مجابهته الدائمة للصراع الدائر فى أعماقه بين تكوينه الفنى وحق نفسه -الجادة- عليه. وبذلك يكون قد قطع على ذاته خط الرجعة فى أن يتعرض لما قاساه أبوه الفنان المتحرر من التقاليد. لقد نجح إذن نجاحا فائقا فى أن يحاصر مزاجه ومواهبه الأدبية التى أكدت وجودها، قبل أن يقطع صلته بممارستها ويدخل الكلية الحربية .. فى القصص التى نشرها فى مجلات الإمام (د. أحمد زكى أبو شادى) والمجلة الجديدة (سلامة موسى) والجامعة (محمود كامل المحامى) ومجلتى (أحمد الصاوى محمد) أو غيرها. وساعده فى قسوته على نفسه، أن الكلية الحربية لم تكن تعترف بشىء اسمه النشاط الثقافى تشجع طلبتها عليه. بجانب أن المد الفكرى أو الأدبى لم يستطع أن يقترب من هذه الطبقة الأرستقراطية المتعالية المغلقة، التى كانت تتكون منها طبقة الضباط فى ذلك الحين. وانعكس ذلك على أجناس هيئات

التدريس فى الكلية الحربية المختلطة .. التى تجمع بين الإنجليز وبقايا العنصر التركى والمتمصرين والقلة من أبناء البلاد، التى لم يكن أكثرها إلا نماذج شائهة لا تعرف من الحياة أو الإنسان أو العسكرية نفسها .. إلا كلمتين مجردتين هما الضبط والربط. ولهذا السبب كان الفن أو الأدب شيئا يستأهل السخرية .. ومن هنا جاء خجل يوسف السباعى من أن يعلن أنه صاحب قلم. ويكبر حجم هذا الخجل إلى درجة استشعار الفضيحة أو الإنكار، إذا اتصلت الكتابة بالقصة بالذات، التى كان ينظر إليها بمزيد من السخرية .. فهى حواديت لا تفترق عن "لعب العيال"!

وكان الاتصال الأول للسباعى بالصحافة بعد أن أصبح ضابطا وحاصلا على شهادة الأركان حرب .. اتصاله بالشيخ العسكرى، صاحب ورئيس تحرير "آخر خبر". وكان العسكرى الذى يعمل أصلا موظفا بالسكة الحديد ومحررا بجريدة الأهرام، قد أصدر مجلته هذه لتكون سلاحا يشهره فى وجه شاكر باشا مدير عام السكك الحديدية المصرية، الذى طرده من وظيفته الحكومية! ولما كانت فلسفة "إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه"، هى المثل الأعلى عند أغلبية الشعب، فقد أحس الموظف الحكومى المرفوت بمدى الطعنة النجلاء التى أصابته فى الصميم، فأخرج صحيفته وعول على الثأر من عدوه اللدود! ومن الطريف أيضا أن تعارف السباعى بالعسكرى، حدث أيضا على أرضية لا صلة لها بالأدب أو الصحافة، بل بالفلاحة!كان يوسف فى هذه الأثناء

فـى بدايـة اهتماماتـه الفعليـة بالنبـات والأشـجار والزهـور، ورأى أن معلوماتـه الكثـيرة فـى الزراعـة تسـمح لـه بـأن يـزرع الأرض ويشـرف عليـها! وهكـذا اسـتأجر قطعـة أرض فـى شـارع الملـك فـى حدائـق القبـة .. وإذا كـانت هـذه الأرض "محدوفـة" ولا تصـل إليـها الميـاه إلا بصعوبـة، فقـد فكـر فـى أن "يكسـر" الشـارع ليوصـل إليـها الميـاه مـن الترعـة علـى الجـانب الآخـر. وظـن أن مـن حقـه أن يفعـل، ويسـقى الأرض. وفوجـئ بـأن البلديـة حـررت لـه محضـر مخالفـة! فـهداه تفكـيره مـرة أخـرى إلى أن يصنـع مـا تمـرس عليـه أجـداده مـن قدمـاء المصرييـن فـى هـذا الظـرف، وهـو اسـتخدام الشـادوف، وقـد كـان! زرع بنجـر، وجـاء المحصـول معقـولا، وسـوقه بربـح لا بـأس بـه! ولمـا كـانت الزهـور أكـثر ربحـا مـن الخضـراوات بطبيعـة الحـال، فقـد فكـر فـى أن يـزرع وردا بلديـا، وفعـل. ولكـن الـورد ذوى وخسـر! وفـى العـام الثـانى زرع البرسـيم، وبعـده القصـب الـذى تحـول بقـدرة قـادر وبراعـة يوسـف السـباعى فـى الفلاحـة إلـى .. خشـب! وخسـر مـرة أخـرى! ولـم يسـتطع أن يحصـل مـن الأرض علـى التكـاليف والإيجـار .. ولمـا كـانت هـذه الأرض ملكـا للأوقـاف ومسـتأجرها هـو الشـيخ العسـكرى واسـتأجرها فناننـا "المزارع" مـن البـاطن .. فقـد كـانت الكتابـة فـى "آخـر خـبر" نوعـا مـن المقايضـة بيـن الاثنيـن، يحصـل صـاحب الصحيفـة فيـه علـى حقـه، ويسـدد الأديـب مـا تراكـم عليـه مـن مسـتحقات. ووجـد رئيـس التحريـر أن مجلتـه ينقصـها المعـارك الحربيـة علـى أشـدها فـى ذلـك الوقـت الـذى كـانت

الحرب العالمية الثانية في نهايتها، الجانب العسكري .. مع أنه يستطيع الاستفادة من مواهب هذه الشاب الأديب هاوي الزراعة الذي يشتغل أصلا ضابطا بالقوات المسلحة. وهكذا كلف يوسف السباعي بأن يكتب له تعليقا عسكريا كل أسبوع.

ولما كانت القصة القصيرة قد بدأت في ذلك الحين تنتشر كثيرا وتأخذ حظها، وتشكل بابا ثابتا في معظم الصحف وخاصة الأسبوعية منها، فقد كلف صاحب المجلة الشيخ العسكري الأديب الشاب بأن يترجم لـ"آخر خبر" قصة أجنبية في كل عدد. وكان هذا التكليف أيضا متمشيا مع المفاهيم السائدة التي تجعل أصحاب الصحف يغترفون ما يشاءون من الصحف الأجنبية بغير حساب، تقليلا للمصاريف إلى أقل من الحد الأدنى من جهة .. وملء فراغ الكثير من الصفحات من جهة ثانية .. ومسايرة لاهتمامات القراء من جهة ثالثة. وكان الشيخ العسكري كصاحب مجلة ورئيس تحريرها، هو الذي يختار القصة ليترجمها السباعي. وكانت طريقته في الاختيار شديدة الطرافة حقا، تتفق مع جهله التام باللغات الأجنبية خاصة الإنجليزية التي ينتقي قصصها، وإن لم ينقصها "الفهلوة": فالقصة الممتازة في رأيه هي التي يعجبه رسمها -"بالويم" هكذا- المرفق بها!

وهذه المجلات الأجنبية الإنجليزية التي كانت تقع بين يدي الشيخ العسكري ويختار منها، لم تكن أدبية أو فكرية

رفيعة تنشر لأعلام الأدب الأوربى والأمريكى، بل كانت أقرب إلى المجلات العامة الشعبية الخفيفة. وفى البداية لعب الحظ أو المصادفة دورها، فكانت القصص التى يدفع بها العسكرى إلى يوسف السباعى لنقلها إلى العربية .. جيدة. ولكن الاستثناء لا يستمر، فيقف المترجم على ضعف القصة ويتحرج من ترجمتها بهذا الشكل،، ويضطر إلى التصرف فى النص قليلا بالحذف أو الإضافة. ولكن ما العمل إذا كانت القصة سخيفة وغير صالحة، لا تستأهل بذل الجهد فى ترجمة سطر واحد منها .. وفى الوقت نفسه لا يمكن الاعتذار لرئيس التحرير بذلك؟ لم يكن بد للسباعى من أن يلغى جانبا القصة الأصلية، مكتفيا باستيحاء الرسم ليخلق هو الأحداث والشخصيات المطلوبة من جديد! وكانت هذه هى الخطوة الأولى فى التمرد على الأسلوب الساذج فى اختيار المادة التى تترجم. وأعقبها خطوة أخرى استعد لها السباعى. وقبل أن نشير إليها، نقف لحظة مع الأمرين اللذين لفتا الشيخ العسكرى إلى الجديد الذى يحدث .. أولهما ارتفاع مستوى القصة، وثانيهما إعجاب القراء بشكل أوضح بالأعمال الأخيرة التى يقدمها مترجمة. ولم يساور الشك رئيس التحرير .. فقد ظن أنها مجرد مصادفة أوقعت بين يديه القصص الممتازة! ويطمئن يوسف السباعى إلى موقفه، ويرى أنه يستطيع أن يبدع أكثر إذا تخلص من القيد الأخير الذى يمسكه إلى هذه القصص الإنجليزية ومزاج الشيخ العسكرى، وهو الرسم. فيقطع أيضا هذه

الصلة الواهية ويتجاهل تماما ما يقدم صاحب المجلة. ويكتب قصصا مصرية صميمة من واقع بيئته ومواقع طفولته، مطمئنا إلى انشغال الشيخ العسكرى بعمله الصحفى وجهله بفن القصة .. فلا يستطيع أن يفرق بين المترجم والمحلى. وكان يمكن فعلا أن يستمر رئيس التحرير فى حسن ظنه، لولا أن تكاثرت من القراء فى رسائلهم، بجانب ترديد الأصدقاء .. كلمات الترحيب باتجاه المجلة الجديد إلى هذا اللون من القصص المصرى الصميم الرائع .. الذى يتخذ الأحياء البلدية مسرحا للأحداث، ويعطى لشخصيات الحارة المصرية اهتماما فى محله. وفوجئ الشيخ العسكرى بهذا كله الذى لم يكن يعرفه! فثقته بشخص الأديب الشاب الضابط يوسف السباعى ومستواه الأدبى، لم تكن تجعله حريصا على قراءة ما يكتب قبل أن يدفع به إلى المطبعة .. وإذا أسرعت عيناه إلى الصفحات من باب العلم بالشىء، فالنظر يلقى مجرد لقطة سريعة تدع من السطور أكثر مما تأخذ. ولهذا دهش لحكاية الأجواء والشخوص الشعبية وارتفاع مستوى التناول إلى هذه الدرجة المميزة. واضطر أن يقرأ ما نشر لصاحبه فى الأسابيع الأخيرة .. ولم يكن يحتاج إلى خبرة أو تخصص، ليدرك واقع ما فعل السباعى. وسأله عن الحقيقة وهو لا يدرى هل يتميز غيظا وغضبا على من خدعه، أو يسعد بما قرأ ويشكر من أبدع. ولم يبطئ الفنان الشاب فى الإجابة .. وانتهزها فرصة ليعلن رأيه الصريح فى شيئين، أسلوب اختيار القصص

الإنجليزية، ونضج القصة المصرية حتى على أقلام الشباب من جيله. وكان دليل الإثبات موجودا، ما استقبلت به قصصه الأخيرة نفسها غير المترجمة. ولم يملك رئيس التحرير إلا الإذعان!

ويعلق يوسف السباعي فى حوارنا معه على هذا الحادث القديم بقوله: لازلت أذكر استيائى حين كنت أقوم بهذا الدور من نقل القصة الأجنبية سواء بدقة أم بتصرف .. فطبيعتى التأليف لا الترجمة .. وهناك عامل آخر ساعد على أن تكون أعمالى الموضوعة أكثر قيمة فنية ومستوى من الأخرى المنتمية إلى مؤلف غيرى .. هو اغترافى من معين حياتى الخاصة والعامة التى أعرفها بالطبع جيدا، فى غير حاجة أبدا إلى اصطناع أشياء لم أندمج فيها أو لم أتعايش مع قضاياها.

وهكذا انتهى الفنان الضابط من استيحاء الرسوم إلى غير رجعة. وكان بذلك سعيدا، ولم يدر أنه كان متسرعا فى تفاؤله وأنه كان عليه ألا يتشفى بهذا الشكل من القصص الإنجليزية والرسامين البريطانيين! فلا يزال عمله الصحفى فى مجال القصة القصيرة، يحمل له تكليفا آخر .. عندما ينتقل للعمل فى مجلة أخرى بعد أن توقفت صحيفة الشيخ العسكرى عن الصدور لضيق ذات اليد!

وكانت الصحيفة الثانية التى حرر فيها يوسف السباعى ونشر فيها قصصه بعد "آخر خبر" هى مجلة "مسامرات

الجيب"، لصاحبها ورئيس تحريرها عمر عبد العزيز أمين. وكان الأخير يشكل فى الصحافة المصرية، فى ذلك الوقت، أحد النماذج المعدودة للدم المصرى الصميم فى الصحافة المصرية، التى كان يمسك بخيوطها فى أيديهم .. المتمصرون والشوام الذين كانوا بالطبع يعملون على استمرار قبضتهم على مقدراتها والعاملين فيها. وكانت الدار المصرية الصميمة التى كسرت قبلا حدة هذا الاحتكار هى دار "أخبار اليوم" للأخوين على ومصطفى أمين. ثم تلتها فى الظهور "دار الجيب" التى أصدرت: روايات الجيب ومسامرات الجيب والاستديو وغيرها. ولهذا وجد السباعى أن تعامله مع مثل هذه الدار، يتيح له بجانب سعة الانتشار، الانطلاق فى تقديم قصص مصرى صميم يعلن بوضوح وبشكل قوى عن مولد القاص المصرى الأصيل فى الجيل الجديد. ويجابه مد القصة المترجمة والمعربة والممصرة الذى كان سائدا أو متغلبا. كما وجد أنه سيرتاح فى العمل مع عمر عبد العزيز أمين صاحب الدار، الذى يصفه فناننا بعد ذلك بقوله: "صديق مخلص .. جميل القلب .. كثير المروءة، جم التواضع، يلجأ إليه الإنسان فى الملمات فيجد منه خير العون". والذى يهديه السباعى بعد ذلك مجموعته "اثنتا عشرة امرأة" قائلا: أحسست برغبة فى أن أهديك شيئا وأنا رجل فقير، لا بضاعة عندى سوى الكتابة .. فلم لا أهديك -وأنت السابق بالفضل- بعض كتابتى؟ لقد قيل إن خير عنوان الوداد ما كان من شعبة الهوى، فما بالك وأنا

أحس أن هديتى أو كتابتى ليست فقط شعبة منى بل هى أصلى ولبى وجوهر نفسى".

ولكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن، لا لأن الأديب الشاب اكتشف زيف ما تخيل .. فقد وجد فى الدار وصاحبها الاطمئنان للقيم التى يريد، ولكن لأن "مسامرات الجيب"، كانت فى حاجة إلى تقديم مادة جديدة تنشر لأول مرة فى الصحافة المصرية، وتعرض للأحداث التاريخية على مدار الحقب ومنذ فجر الإنسانية وعبر القارات كلها، بأسلوب قصصى يصل إلى أن يكون قصصا فنية. وكانت المجلة مطمئنة إلى أن هذه المادة التى يحفل القراء الأجانب بمثلها، ستجد لها نفس الاهتمام لدى القارئ المصرى والعربى .. خاصة أن أحداثها مرسومة بريشة فنان عالمى يجعل من رسمه لوحة زيتية شديدة الإبداع تستأهل أن تعلق فى إطار. بجانب أن هذه الصور يغلب على أكثرها الرؤية أو الزاوية الصريحة، وبلفظ آخر كان الرسام سواء كشف عن المرأة ثيابها أم غطاها بها، كانت خطوطه تبرز فيها الجمال الإنسانى البديع. وعندما عرضت "مسامرات الجيب" على السباعى مجلة "بريتانيا آند آيف" ورسوم ماتانيا، وجد صدق هذا كله وأعجب بها بل وأحبها. ولكن هذا لم يمنعه من أن يبتئس فى البداية بشكل ما والمجلة تعرض عليه أن يترجم هذه القصص، وتنهدت أعماق وهو يقول لنفسه "تانى"! لقد ظن أنه انتهى من هذا الكابوس، ولكن القدر خيب الظن. ولم يكن يملك الرفض .. والسبب

أن صداقته لعمر عبد العزيز أمين لا تشجع على ألا يستجيب لطلبه. كما أن هذه القصص التى كانت تنشر بالإنجليزية تحت عنوان "قصص قديمة يعاد روايتها"، كانت تملك من الجاذبية والطرافة، الشىء الكثير حقا، وأن نشرها يعد بحق ضربة صحفية. ولذلك حاول أن يخفف من أساه، وبدأ يترجم! ولكنه لم يلبث أن وجد أنها ليست بذات المستوى المرتفع الواحد، وأن بعضها متوسط والآخر أقل من المتوسط ولا يستحق أن يجهد نفسه فى تقديمها إلى القارئ العربى. ولم يكن الحل إلا أن يكرر ما اتخذ فى "آخر خبر" .. وفعل! حتى وصل أيضا إلى آخر حلقة وقد أصبح ما يكتب قصصا مصرية لحما ودما وأجواء وشخصيات وأحداثا ومواقف تعد من أروع ما كتب فى الأدب المصرى من القصص القصيرة. ومن أحسن ما كتب يوسف السباعى نفسه .. ويكفى أنها الأعمال التى جمعت بعد ذلك فى مجموعتيه "بين أبو الريش وجنينة ناميش" عام ١٩٥٠ و"الشيخ زعرب" عام ١٩٥٢.

وعندما يسترجع يوسف السباعى بعد أكثر من ربع قرن هذه المرحلة القديمة، ويناقش تفاصيلها .. يجد أنها كانت تجربة مفيدة .. ليس طبعا فى نطاق الترجمة، فهو لم يكن يعد نفسه ليقوم بدور فى هذا المجال -وإن لم يمنعه مستقبلا فى أن يشارك فى ترجمة كتاب عسكرى. بل فى نطاق استيحاء الصور والرسوم، عندما يجد أن القصة التاريخية الأصيلة نفسها التى تعرض له أحينا .. ليست

صالحة لأكثر من سبب. كأن تكون مخلة فى تلخيصها للحدث التاريخى، أو تقدم لقطاتها بشكل غير مقنع. أو لأن موضوعها لا يهم إلا القارئ الأوربى والأمريكى .. فيضطر إلى أن يضع الرسم نصب عينيه ويحيطه بخياله ليستهديه قصة محبوكة فى إطار العصر والموقع القديمين. صحيح أن هذه القيود تفسد على الفنان حريته المطلقة فى أن يجول وفق إلهامه المتحرر فى العوالم التى يحلق، بينما انفعاله الأول بالأحداث التى تقع فى مجتمعه وبيئته وناسه .. التى هو جزء لا يتجزأ منها. ولكن لنذكر أيضا وهو ما يخفف على صاحبنا التجربة، أن مصادر الإلهام مختلفات والفن التشكيلى واحد منها! كما أن هذا الاستيحاء من ناحية أخرى، كعمل صحفى لم يبعد عن اهتمامات السباعى نفسها، وهو يحمد الله على أن الصحافة لم تضطره كما تعرض غيره من القصاص، إلى أن يكتبوا مثلا فى الاقتصاد أو الجريمة أو الصناعة!

وقد كتب فناننا عددا كبيرا من قصصه المستوحاة من رسوم ماتانيا، كان يكتب كل أسبوع قصة فى "مسامرات الجيب"(!) -وأمسك الخشب- .. وقصة أخرى فى جريدة "الكتلة"(!!). واستمر ذلك حوالى العامين بين ١٩٤٧ و١٩٤٩. جمعها بعد ذلك فى مجموعات ثلاث ظهرت بطريقة "خلف خلاف" أى أن القصص التى كتبت أولا هى التى ظهرت فى المجموعة الثالثة، بينما القصص التى نشرها فى المجلة أخيرا هى التى طالعها القارئ فى أولى المجموعات.

وهـذه المجموعـات هـى "همسـة غـابرة" -١٩٥٢- و"سـمار الليـالى" -١٩٥٢- و"هـذا هـو الحـب" -١٩٥١. ومـن الطريـف أن السباعى لم يكن يضع اسمه الصريح على قصصه هذه، بـل كـان يكتفـى بوضـع الحـرف الأول مـن اسـمه الأول يوسـف أى "ى" عليـها! لمـاذا؟ لعـاملين؛ الأول نظرتـه إليـها كعمـل صحفى يكلف بـه وليس كقصة فنيـة يكتبها حـرا مـن أى قيـد أو إلزام .. فهو فى أعماقـه غير مقتنـع بـها تماما لأنـها لا تعكس أصالتـه أو موهبتـه الحقيقيـة. ولعـل هـذا البـاعث هـو الـذى جعله يظلمـها فـلا يرحـب بإعـادة طبعـها كثـيرا كبقيـة أعمالـه. والعـامل الثـانى هـو أن مـا يحمـل الحـرف "ى" مـن غمـوض وإبـهام وعـدم المعرفـة باسـم صاحبـه، جعـل القـراء يتسـاءلون عمن يكـون .. هـل هـو كـاتب معـروف، وإذا كـان فمـا الدافـع إلـى هـذا التنكـر .. هـل هـى صراحتـها أو تناولـها للحـب والجنـس؟ أو هـو أديـب شـاب، فلمـاذا يختفـى بـهذا الشـكل. ويفسـر السـباعى ذلـك بقولـه "أعتقـد دائمـا أن الكـاتب الشـاب فـى حاجـة إلـى عـامل مسـاعد و"مدخـل" يقدمـه إلـى القـراء، وهـذا العـامل أو المدخـل إمـا أن يكـون خارجيـا أو داخليـا .. أعنـى إمـا أن يساعده أحـد أو هـو نفسـه كمـا فعلـت أنـا، بإثـارة اهتمـام النـاس حـول صـاحب الاسـم الرمـزى"! ولذلـك عندمـا اسـتطاع أن ينـال نصيبـا غـير قليـل مـن الشـهرة ويتخفـف مـن هـذا التكليـف أو الحمـل الـذى أنقـض ظـهره، سـارع إلـى إمضـاء قصصـه المؤلفـة باسـمه الكـامل وهـو فـى "مسـامرات الجيـب" أيضـا!

وفى ذلك الحين كان يوسف السباعى فى أكثر مراحله الفنية نشاطا، وكأنه يريد أن يعوض بشكل ما أعوام الحصار الذى ضربه حول قلمه وهو طالب فى الكلية الحربية أو بعد تخرجه بقليل، حتى حصوله على شهادة الأركان حرب. وإذا ألممنا باتصاله بمجلة "مسامرات الجيب"، فماذا عن علاقته بجريدة "الكتلة"؟ لقد أنشئت هذه الجريدة أيامها لتكون لسان حزب الكتلة الذى أسسه مكرم عبيد بعد خروجه أو إخراجه من حزب الوفد، حيث كان الرجل الثانى فى حزب الأغلبية بعد زعيمه الثانى مصطفى النحاس .. إثر إثارته لما تضمن الكتاب الأسود من انحرافات. وبالطبع لم يكن يوسف السباعى عضوا فى حزب الكتلة، أو فى غيره من الأحزاب .. فرأيه فيها جميعا سيئ. والسباعى -من القلة المعدودة من الأدباء المصريين الذى ظل موقفه من كثير من الأشياء والأحزاب هو هو لم يتغير قبل ٢٣ يولية ١٩٥٢ عما بعدها، بعكس الكثيرين غيره الذين نافقوا الانقلاب العسكرى، وبالذات فى كراهيته للأحزاب. لقد كان قاصنا ينفث فى أعماله التى ينشرها فى الجريدة الحزبية -"الكتلة"- إدانته للأحزاب جميعا، ويتهم رجالها بالتهالك على مصالحهم الشخصية وتجاهل مصالح الشعب وقضاياه الكبرى والكثيرة .. حتى الجلاء والدستور.

فكيف اتصل إذن بجريدة الكتلة؟ عن طريق صديق لصاحبها -ورئيس الحزب فى نفس الوقت- مكرم عبيد .. ولم يكن هذا الصديق منضما هو الآخر إلى حزب الكتلة

ولا إلى أى حزب آخر، وهو عمه طه السباعى باشا! فالصلة الوثيقة التى كانت تربط بين مكرم وطه -زيادة على كونهما جارين فى حدائق القبة- وجعلت الأول يأخذ الثانى مع عدم حزبيته، معه فى وزارة أحمد ماهر، وزيرا للتموين بينما كان مكرم وزيرا للمالية. نفس هذه الصلة هى التى جعلت العم طه السباعى يعرض على ابن أخيه يوسف السباعى، أن يكتب فى "الكتلة" وكان رئيس تحرير هذه الجريدة اليومية إذ ذاك هو أحمد قاسم جودة. ومن الغريب أن يحدث هذا العرض فى الوقت المتقارب الذى كان فيه الوزير طه السباعى ينقص من حصة ورق تموين جريدة الكتلة! والسبب أنه تأكد له أن قاسم جودة يبيع جزءا كبيرا من حصة الورق التى تسلم للجريدة فى السوق السوداء -يعقب طه لى: كلهم كانوا هكذا!- وفى نفس الوقت الذى رفع من حصة تموين الجريدة الجديدة أيامها "أخبار اليوم" .. فقد ثبت لديه أنها توزع أكثر مما يتاح لها شراؤه بالتسعيرة!

وكان أول ما نشره يوسف السباعى فى "الكتلة" بين عامى ١٩٤٨ و١٩٥٠ هى قصصه القصيرة التى شملتها بعد ذلك أكثر من مجموعة منها "يا أمة ضحكت". ثم نشر فى حلقات أسبوعية روايته الشهيرة "أرض النفاق".

(٤١)

ولاشك أننا فى حاجة إلى شاهد عيان يصور لنا يوسف السباعى مدرسا فى الكلية الحربية، ولا نجد أقرب من تلميذه السابق أحمد عصام الحينى - هو نفسه وكيل وزارة الثقافة للشئون الخارجية فى السنوات الأخيرة .. الضابط الذى استقال من الجيش ويعمل مع يوسف السباعى فى الحياة المدنية والأدبية. يقول الحينى: أول لقاء لى مع السباعى كان فى عام ١٩٤١ وكنت طالبا بالكلية الحربية؛ وهو مدرسا لمادة التاريخ العسكرى برتبة صاغ أركان حرب. وكانت هذه المادة تتناول التاريخ من الناحية العسكرية وتفسير المواقع الحربية. ومدى نجاح الخطط الحربية المشهورة وفشلها، والدروس المستفادة منها، وفاعلية الأسلحة المختلفة فى المعارك. وكذلك فى الحرب العالمية الأولى والثانية التى كانت لا تزال دائرة. وقد نجح السباعى فى تدريس مادته، لأنه كان يقدمها بنفس أسلوبه القصصى وقدرته على السرد وتطعيمها بالدعابة .. مما ساعد الطلبة على أن يرسخ التاريخ العسكرى فى أذهانهم.

ورغم عسكرية يوسف السباعى -يستمر الحينى متحدثا-

واهتمامه بالضبط والربط، إلا أننا كنا ندرك أن بعض بواعث هذا الاهتمام أنه يريد أن يقيم حاجزا بين الأثر العاطفى الذى تتركه قصصه التى ينشرها والوجدانية منها بنوع خاص، وبين كونه ضابطا عسكريا. ولذلك كان الطالب لا يلبث أن يكتشف رقته مع حبه للنظام وروح النظام التى تحالفه أبدا، مما جعل الطلبة يحبونه ولا يخافونه كما كانوا يفعلون بالنسبة إلى غيره من هيئة التدريس.

لقد كان السباعى ضمن قلة قليلة من المدرسين، جعلت العسكرية جوهرا ومنهجا وليس مظهرا وتحملا خشنا، وعلاقات إنسانية وليست تسلطية بحكم الأقدمية، ومن هنا كان الطلبة يتحلقون حوله ويستشيرونه واثقين فيه. وكان هو من ناحيته لا يكاد يفترق عنهم فى أوقات فراغه، فهو كعادته لم يكن متعاليا. ولهذا كانت سعادة الطلبة كبيرة، عندما يكون يوسف السباعى "ضابطا عظيما" .. يقضى ليلته بالقشلاق. لأن هذا يعنى أنهم سيقضون يوما هادئا وينعمون بوقت الفراغ، بلا نوبات جمع وطوابير إضافية، كما كان يفعل غيره من الضباط أصحاب العقد!

وهناك جانب آخر ألصق بزملائه ومرءوسيه منه بتلاميذه، يعرفه الذين ضمهم وإياه مواقع العمل المختلفة فى القوات المسلحة .. وهو حبه للإصلاح والتعمير والإنشاء على أرض الواقع، وليس فى الخيال أو إطلاق النظريات والمشروعات. ولعل هذا الجانب يفاجئ الذين لا يعرفون يوسف السباعى معرفة جيدة، ويظنونه رومانسيا

كبيرا غارقا فى العوالم العاطفية والأحلام .. حتى فى حياته العسكرية .. التى قدم فى خلالها أكثر الأعمال الروائية دفئا وعاطفة فى الأدب المصرى المعاصر. وكانت خطوات السباعى الإنشائية تتم بلا ثرثرة أو إطلاق الشعارات أو الادعاء .. بل فى هدوء وصمت. وهى ميزة ظلت ملازمة لتكوين ابن حارة الروم بالدرب الأحمر. كانت براعة السباعى فى أنه يجيد استخدام الأشياء، ويحصل من المتاح والموجود على أثمن الممكن الذى لم يكن إليه من سبيل من قبل! وهكذا أنشأ فى سلاح الفرسان (المدرعات) ميسا للضباط بأقل الإمكانيات وأرخص الأسعار وأنظف المستويات، فأصبح قبلة للضباط بعد أن كان مهجورا أو يكاد لا يذهب إليه إلا المضطر أو راكب الصعب! فجعله السباعى منتدى لهم.

ولاشك أن الفترة التى قضاها يوسف السباعى فى الحياة العسكرية، وظل يذكرها بكل خير ويستعيد أيامها بشوق وحب -ماعدا طبعا أيام التلمذة الحربية التى كانت معاناة مرة!- كانت ضرورية لتكوينه العام والفنى معا، لا من حيث ما صادف من أحداث وشخوص .. بل بالنسبة إلى جوهر العسكرية ذاته الذى جعله أكثر، يقيم نوعا من التوازن بين اتئاد شخصه وعنف وجدانه، وبين رقة حاشيته وما تستلزم مسئولية الفنان وهو يجابه ألوان الاهتزاز من غلظة. كما أن العسكرية قد جسدت له من خلال الضبط والربط الناضجين لا المعقدين، ما تملك الطاقة البشرية من إمكانيات حين

تترجم إلى أفعال. وما يستطيع الإنسان المصرى أن يحصد وأن يغير من حياته وحياة وطنه، إذا وجه جهده إلى الطريق الصحيح، ولم يبعثره فى اهتمامات فرعية وقتية قصيرة الأجل لا تبعد أكثر من موضع قدمه.

ونذكر فى هذا الصدد، حادثة صغيرة ولكنها تعبر عما يموج فى أغوار شخصية السباعى من إنكار للاستسلام، الذى يعوق العمل أو التطور. كان ذلك فى سلاح الفرسان وقد أصبح صاحبنا الأميرالاى يوسف السباعى قائد وحدات تدريب الفرسان، وكانت هناك مشكلة قديمة تبدو مستعصية الحل .. وهى ما يعانيه تنظيم حركة المرور للسيارات داخل القشلاق .. وكان يصطدم بكل محاولة للإصلاح، سور من السلك بالأعمدة الخرسانية على ارتفاع أربعة أمتار يمتد من أول قشلاق الفرسان إلى آخره، ويقوم بين الفرسان وقشلاق الشرطة العسكرية. وكانت محاولة إبعاد هذا السور عددا من الأمتار داخل الشرطة العسكرية، يحتاج إلى دخول فى مفاوضات بين المسئولين فى القشلاقين، دونها المفاوضات البريطانية المصرية المشهورة .. فالحساسية بين قطاع وآخر، وما يمكن أن يبدو عليه اقتطاع جزء من أرض الآخر -ولكنها بالطبع تملكه القوات المسلحة .. كما أن الأرض الصحراوية التى تقوم عليها "على قفا من يشيل"- وكذلك ما يحتاج تبادل الأوراق الرسمية بالشكل الروتينى إياه، الذى يحتاج إلى شهور وربما سنوات .. كانت تسد نفس أى مسئول فى تدريب الفرسان عن أن يتخذ فى هذه المشكلة

موقفا. ولكن السباعى يصدر أمره إلى أركان حرب قائد وحدات التدريب الصاغ عصام الحينى، بنقل هذا السور داخل قشلاق الشرطة العسكرية ١٥ مترا لإقامة الشارع الجديد الذى يعمل على تيسير حركة المرور. ووقع الصاغ فى حيص بيص .. كيف يستطيع أن يفعل، وكيف يجابه هذه المسئولية هكذا بلا موافقة الجانب الآخر أو حتى علمه و .. و ..؟! وكعادة السباعى التى لم تفارقه أبدا، لإعطاء الوقت الذى يكفى ليقوم مرءوسه بالعمل المكلف به ثم يتابعه ويحاسبه، فعل .. ولكنه بعد يومين لم يجد أن السور قد تزحزح عن مكانه قيد أنملة!

وأدرك أن هذه المشكلة تحتاج لأن يضع أصابعه هو نفسه فيها .. وهكذا جاء فى اليوم التالى بعد الثانية ظهرا حيث تناول القشلاق طعام الغداء واستراح الجنود قليلا. وأصدر أمره وأعلن البروجى "جمع" القشلاق كله بجنوده وضباطه، وعملوا جميعا على رفع السور كما هو بأعمدته الخراسانية جزءا جزءا. وكان طول المسافة أكثر من ثلاثة كيلو مترات. وفعلا تم نقل السور إلى الناحية الأخرى ١٥ مترا، حتى القمامة التى كانت خلفه، لم يغير من وضعها فى الموقع الجديد! وهكذا وجنود الشرطة العسكرية فى حالة راحة بعيدا عن مكان السور .. لم يعرفوا بما حدث! ويعقب الحينى قائلا .. وقد تركنا (السباعى وأنا) القشلاق فى عام ١٩٥٦، عندما أنهى السباعى الخدمة العسكرية لينشئ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، ولم تحس الشرطة

العسكرية بما تم - وربما لم تفعل حتى اليوم!

وإلى يوسف السباعى أيضا يرجع الفضل عندما كان كبيرا للمعلمين فى سلاح المدرعات، فى إنشاء مشتل كما يقول عصام الحينى للسلاح كله مستعينا بالجنود، يزود الفرسان جميعا بالنباتات والزهور. ومن المعروف أن عشق السباعى الضابط للنبات جعل زملاءه وطلبته وجنوده يطلقون عليه جميعا مداعبين -كما يذكر عبد العزيز صادق الضابط السابق- أركان حرب الجناينى!

وفى هذا المجال يقول عنه أحد طلبته فى الثانوية العسكرية وهو عبد الغنى داود .. "كان يبهرنا مظهره العسكرى الأنيق الصارم، وكنا نعجب لابتساماته المشرقة كشمس الشتاء الدافئة، نتأملها فى المجلات تتصدر قصصه، أو تتقدم أخباره الأدبية، وكأن هذه الابتسامة التى كنا محرومين من رؤيتها ليست لهذا الرجل الصارم. الصامت .. كنا نعجب أيضا كيف تتلاءم هذه الصرامة مع وقوفه تحت الشمس الساعات الطوال، يتأمل الجناينى وهو يهذب شجرة، أو يمهد أرضا ليزرع حوضا خليطا من الورد والفل والزهر .. وما أكثر ما غرس يوسف السباعى من أشجار وزهور فى معسكراتنا المترامية الأطراف. كانت أمنيتنا جميعا -ونحن طلبة فى الثانوية العسكرية أن نتخرج ضباطا مثله ونحلم أن تكون لنا صرامته وهيبته .. وطول تأمله".

وقد دفع هذا الحب السباعى بعد ذلك إلى أن ينادى بالدعوة إلى ما أسماه "وعى الحدائق" .. سواء بإنشائها أم صيانتها .. إيمانا بأن الحديقة ليست ترفا أو من الكماليات بل شيئا هاما فى نواحى الذوق والجمال والترفيه. ولا يكتفى من الحديقة فى هذه المجالات التى تستوعب الجانب "الروحى"، بل يجد أنه من الممكن أن توفر لنا من ميزانية تجميل المؤسسات بالرخام وغيره، فنضع أشجارا مزهرة مثل "الأكاسيا نادورا" ذات العناقيد البمبى على مداخل المنشآت. أو بعض المتسلقات مثل الجهنمية أو الكلير أو البجمونيا -بالطبع ننقل كمواطنين أفرزتهم الدراسة المصرية هذه الأسماء بلا علم، كما نسمعها من فم السباعى المتخصص .. أو كما أشار إليها فى كتبه! من المشاتل ما يمكنها أن توزع سيقان أشجار الزينة والمتسلقات والزهور مجانا على الجمهور! كما طالب أيضا بإعداد شبكة كاملة من خط المياه العكرة وتخفيض ثمنها إلى حد أدنى ممكن، حتى لا يتكلف الناس عناء فى القيام بأمر هذه الهواية التى يجب أن تكون شعبية!

ومع اختلاف المناخ والأوضاع، فإن بصمات الفنان فى الرجل العسكرى تبقى نابضة بالحياة دائما، سواء سمح صاحبها أم لم يسمح بإظهارها .. فالأمر خارج عن إرادته مهما حاول من إحكام قبضته على الأشياء حتى لا يتردد صدى الملامح الفنية فى مواقفه. ويتفق فى هذا أن يكون يوسف السباعى تلميذا فى المدرسة الحربية أو متخرجا

حديثا أو ضابطا كبيرا. وإذا كنا قد التمسنا فى سطور سابقة هذا الانعكاس فى بداية حياة المترجم له العسكرية، فلنعرض مثالا لها وقد أصبح من القيادات المسئولة بالقوات المسلحة .. فى إحدى السنوات الأولى ليوليه سنة ١٩٥٢، كان برنامج زيارة الملك سعود لمصر، يشمل زيارته لسلاح الفرسان. وتم إعداد المنصة التى يقف عليها الرئيس عبد الناصر وضيفه العربى لمشاهدة العرض العسكرى لوحدات السلاح، فى اليوم السابق للزيارة. ولكن المنصة لم تعجب الأميرالاى يوسف السباعى قائد وحدات تدريب الفرسان. وطرأت له فكرة -وكان معروفا فى القشلاق بأفكاره غير التقليدية- سبقها تساؤله .. كيف ولماذا تكون المنصة "مدنية" والعرض عسكريا؟ وكانت إجابة التساؤل أن أحضر دبابتين حقيقيتين بالطبع، وعلى سطحيهما أعد المنصة. ولما كان الوقت مغربا ودخل الليل، فقد استعان بأضواء فوانيس سيارات السلاح لإعداد المنصة حتى انتهى العمل فيها فى منتصف الليل!

(٤٢)

ولم يستطع السباعى أن يتغلب على ملامح كثيرة من آفة الخجل إلا مؤخرا .. فى أوائل الستينيات .. فكما نعرف فإن التقدم فى العمر، لا يغير كثيرا فى تركيب الصبا والشباب .. سواء فى نواحى القوة أم الضعف، والإيجابيات أم السلبيات .. وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى يوسف السباعى. فقد كان حتى استشهاده لا يزال خجولا بشكل ما، رغم أنه أصبح جدا منذ سنوات. والذين يعرفونه قبل الخمسينيات يفاجئون بدهشتنا لخجله ولسان حالهم يقول "أمال لو شفتوه زمان"؟! وهكذا نستطيع أن نتصور ما يمكن أن يقوله أصدقاء الصبا والشباب "هوه كان خجل بعقل"؟! وهكذا تتصل الحلقات!

وأغلب الظن أنه لا يعرف بخجل يوسف السباعى إلا القلة القريبة منه، فقد كانت المناصب الكبيرة التى يشغلها والمواقع الرسمية أو شبه الرسمية التى يتصل منها بالجماهير .. سواء أيام عمله ضابطا بالقوات المسلحة أم خارجها بما تفرض من الرهبة أو الإجلال أو الاحترام، لا تتيح للعين أن تفحص أو أن تقف بوضوح على هذا الملمح

فى الرجل المشهور .. ولقد انعكس هذا الخجل عندما يكبر فى شكل جديد. يحتمى صاحبنا بمكتبه وحجرته، ولا يلتقى بالقارئ فى ندوات إلا قليلا .. فلا قدرة له فائقة على الحديث إلى المجموع، بالمستوى الذى يعجبه ويتمناه. ونذكر فى هذا الموضع نجيب محفوظ أو إحسان عبد القدوس الذى يبدو أكثر عدم قدرة منه. ويعمد السباعى إلى تفسير أو فلسفة هذا الموقف بقوله: إن معظم الكتاب أشد إحساسا بالطمأنينة .. فى خلوتهم مع أوراقهم وأقلامهم .. وهم فى حالتهم تلك يكونون أقدر على .. الانطلاق والانفعال .. والتأثير فى نفوس الغير .. منهم فى مواجهة الجماهير .. فأنا أحب أجلس فأرقب .. لا أن يتفرج الناس على .. ويرقبوننى.

ثم يجىء المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، الذى كان السباعى وراء فكرته ووجوده .. ليضطره إلى مواجهة خجله أكثر، بفضل المؤتمرات والمهرجانات التى كان على سكرتير المجلس العام أن يقدمها. ويعمل السباعى على أن يخفف عن نفسه أثر الأعين المحدقة به والتى تربكه، فيأخذ فى مطالعة كلماته التى يلقيها من الورق الذى أمامه، يكاد لا يلقى بالا إلى من يتحدث إليهم .. يحاول ألا يعبأ بتصفيقهم لأنه يمنعه من الاستمرار والانتهاء من كلمته سريعا قبل فوات الأوان .. أوان القدرة على التحكم فى خجله! يقص علينا مشاعره هذه فى إحدى مقالاته، فيقول:

"طاف بذهنى .. أن أهرب .. أجرى من المؤتمر .. ولكن قبل أن تتبلور الفكرة فى ذهنى دعيت إلى الميكرفون، ووضعت بوزى فى الميكرفون .. ولم أنظر إلى أحد .. وهات يا قراءة. وسمعت الناس يصفقون .. لم أدر لم .. واندفعت فى القراءة لم أبادلهم إعجابا بإعجاب .. فقد كنت غير معجب ألبته. كان كل ما يهمنى أن أنتهى من قراءة الخطبة .. وأفر من نظراتهم المسلطة على .. وأخيرا وصلت إلى "والسلام عليكم ورحمة الله" .. وسمعت التصفيق ثانية بين الصفوف .. وتنفست الصعداء .. إن مواجهة الأديب للناس مشكلة كبرى إنه خلق ليراقب .. لا لكى يوضع تحت المراقبة"!

وبعد ميكرفون المهرجان، يأتى ميكرفون الإذاعة وكاميرا التليفزيون .. بالدور! ومع غياب مئات أو آلاف الأعين المحدقة فإنه لا يلقى "حضور"الجمهور .. وهكذا يكون تخيله أقوى من تجسده. وفى البداية ومع التجارب السابقة فى مجال المجابهة الاجتماعية، يبدو الأمر كما يحس السباعى والأسئلة تلقى عليه، إنه مذنب فى قفص الاتهام، مطالب بالقوة أن يجيب! ويصف فناننا يوما هذا الميكرفون بقوله: هذه الآلة المفزعة التى تخفى وراء مظهرها البرىء الساذج .. ملايين الآذان المنصتة المترقبة! ولا تكون كاميرا التليفزيون بأحسن حالا بالنسبة إليه.

ولكنه رويدا رويدا، يدارى هذا الخجل بحضوره المؤانس العذب ورقته الصادقة.

والإشارة إلى كلمات السباعى فى المؤتمرات، تسوق إلى كراهية صاحبها منذ وقت بعيد للخطابة، فرغم غلبة الروح الفنية على خطوات طفلنا أو صبينا الصغير، إلا أنه لم ينضم يوما إلى جمعيات الخطابة فى المدارس التى التحق بها .. مع أن هذه الجمعيات كانت فى تلك الأيام البعيدة، هى المتنفس الأول للتلميذ صاحب الهوايات الأدبية والثقافية. فالنصف الأول من هذا القرن العشرين، كان ينتفض خطابة .. فهى لغة التلميذ الصغير والسياسى الخطير .. والوسيلة المثلى لبلوغ المناصب .. أرفع المناصب فى ذلك الزمان وهى الوزارة. حيث كانت القضية وهى الاستقلال التام أو الموت الزؤام، تتصل بالجانب الوجدانى فحسب من تركيب المواطن .. إذ لم يكن للثورات الشعبية وكذلك الانقلاب العسكرى عام ١٩٥٢ عند قيامها، أية رؤية مبلورة تتصل بالاقتصاد أو الاجتماع. ولعلنا نعذر تلك الأجيال وهى تعانى من الضغوط الكثيرة، والتى كان طوق النجاة منها جميعا، هو التخلص من الاحتلال البريطانى .. وكان اللسان الذى يعبر عن هذه القضية ويثير أحداثها، هو الكلمة المنطوقة فوق المنابر .. فعرفت تلك الأجيال عصر الخطباء الذى انقرض.

ورغم هذا المناخ العام، فإن يوسف محمد السباعى لم يستجب له! لم يعجب بالخطباء، ولم يستهوه أن يكون خطيبا -وإن تسللت فى نادر الأحيان إلى أحلام يقظته!- ولعله ضرب عرض الحائط بينه وبين نفسه على الأقل

بالوزارة، مادامت لابد أن تجىء عن طريق الخطابة! ويبدو أن قدوته ومثله الأعلى، أى أبوه .. كان هو الآخر بعيدا عن هذا المجال فلم تغرس فى نفسه من ناحية هذه الصلة المباشرة القوية، التى شكلت الكثير من جوانب الابن .. شيئا.

ويبدو أن تحول أغلب المظاهرات التى يقوم بها الطلبة أيام شباب السباعى إلى هتاف شكلى، باعثه الأول الحصول على نوع من العطلات المقنعة تخفف من سأم الدروس وثقل الواجبات، واكتشاف يوسف لذلك .. جعله يكفر بالخطابة والخطباء!

وشىء آخر يمكن أن يفسر موقفه من الخطابة، وهو عدم قدرته على التركيز طويلا، إذا وضع فى موضع المتلقى فى جوانب لا تتفق مع مزاجه الفنى. كما أن هناك عنصرا لا نظن إلا أنه شارك فى إبعاد صاحبنا عن أن يحب الخطابة أو أن يكون خطيبا، هو كراهيته لأسلوب الوعظ والإرشاد .. سواء أكان فى حدود النفس أم الغير، أى أن هذا الأمر لا يقتصر على رفض خاص بل عام. إن المرء عادة يبغض عبارات النصح الصادقة أو المصطنعة التى تلقى عليه. ويرفض أن يوضع محل الشفقة وعدم الفهم مهما كان صغر عمره .. وإن كان يسره فى الوقت ذاته رغم ذلك أن يسدى إلى غيره النصح صادقا أو غير صادق! ولكن تكوين صاحبنا يستنكر هذا الخداع، ويرفض الوعظ الإرشاد سواء بالنسبة إليه أم إلى غيره. ولم يختلف الأمر عندما يكبر ..

انعكس ذلك عندما كتب وهو صاحب قلم، عن شخصية مشهورة تزور مدرستها الابتدائية القديمة وتوزع الجوائز فى حفل يقام ويطلب منها الناظر:

- كلمة نصح للطلبة ..

- أرجوك أن تعفينى .. إنى لا أجيد .. لا الكلام ولا النصح.

- لا .. لا .. لابد أن تقول كلمة ..

- إنى لا أعرف شيئا عن الوعظ والإرشاد ..

(لكنه إزاء الإصرار يرضخ .. يحدث نفسه قائلا): ليس أمامى غير الكذب. يجب على أن أحضر ورقة وقلما وأجلس لكتابة قطعة محترمة من النفاق .. يجب أن أحدثهم عن الجد والمثابرة وسهر الليالى فى طلب المعالى .. يجب أن أشرح لهم قول الشاعر: إذا نام غر فى دجى الليل فاسهر!!

من هذا كله كانت جمعية الخطابة، نشاطا غير مستحب، لم يستطع أن يجذب إليه فناننا الصغير. وعندما تجاوز يوسف السباعى سن الطفولة والصبا والشباب، لم يغير رأيه فى الخَطابة .. صحيح أنه تعلم أن يخطب شخصيا فى المؤتمرات الدولية والرسمية والأدبية، لكنه لم يكتم رأيه الشخصى فى الخطابة .. فيكتب كثيرا عن عدم قدرته على متابعة الخطب التى يسمعها وسرحانه أثنائها!

وهناك باعث آخر قديم لا ينبغى تجاهله، كان يعمل أيضا

على المزيد من اضطراب يوسف السباعى وهو يواجه الجماهير وهو الخوف من الفشل. إنه أميل بتركيبه إلى أن يقوم بأشق الأعمال مادام بين جدران أربعة، أو على الأكثر بين خلصائه ومن يعرف .. إن إحساسه بالاطمئنان هذا نابع من هؤلاء الذين يثق بهم، فيتساوى إذن الفشل والنجاح بالنسبة إليه وبمعنى آخر لا تهم النتيجة. إن الفشل أو النجاح ليس شيئا مجردا، فهو يعطى طعمه من خلال المؤثرات التى تظلل صاحبه، وبفضل نوعية العواطف التى تحيط به محبة أو كارهة. أما إذا تجاوز من يطمئن إلى عيون أخرى كثيرة لا يعرف أصحابها، فهذا بداية اضطرابه، إذ يفقد عنصر الاستقرار فى المواجهة .. وبالتالى تضطرب خطوط دفاعه وهجومه. وبذلك ينتزع من الجمهور شيئا من "حياده"، وهو يقبل على المشاهدة بلا حكم أو تصور مسبق. وإحساس الجمهور أن صاحب العمل الذى يقع عليه بصره، ليس فى تمام الاستعداد أو "لياقته" الكاملة، يستلب منه على الفور بعض تعاطفه أو إقباله. ربما لأنه يشعر أنه تعرض لخديعة، وأن الممثل أو الخطيب أو المتسابق يحاول أن يستولى على غير حقه وهو يقف أو يتحرك أمام الأنظار .. وهو لم يصل بعد إلى الدرجة التى تسمح له بهذا الشرف! وربما لأن الجمهور يجذبه الرجل القوى ويثيره تكوين الأبطال -كما سيحدث بالنسبة إلى شخصية عامة كالسباعى نفسه بعد ذلك- ويبحث فيهم عما لا يجده فى نفسه. ولذلك فإن اكتشافه لغير هذا النموذج .. يجعله

يسقطه على الفور "من نظره" .. الأمر الذى يستشعره الطرف الآخر، فيزيد اضطرابه وضعفه .. ويقودانه إلى الخاتمة الفاشلة!

وهكذا لم يكن غريبا أبدا، أن يفوز السباعى دائما -فى شبابه- فى التمرين ويخسر دائما أيضا فى المسابقة النهائية! يقول مرة فى حديث صحفى: أعترف أولا أننى لم أكن فارسا يخوض المباريات، ويحرز التفوق وكسب الكؤوس رغم أننى كنت معلما ممتازا لفن الركوب .. ربما يعود ذلك لأننى بطبعى لا أحب التزاحم أو المنافسة. كنت أصل فى التدريب إلى مستوى عال جدا، ثم فجأة تخوننى مهارتى فى المباريات الرسمية التى كان يحضرها عادة جمهور غفير. كانت أعصابى تتوتر عندما أسمع تصفيقهم، وأشعر بالاضطراب، كأننى فى ورطة .. بل فى محنة. وأرتكب أخطاء كثيرة خارج إرادتى، وأحس أننى شخص آخر لا يمكن أن يمت إلى بصلة .. لا أعرف لماذا هذا الشعور على وجه التحديد .. ربما كان هذا سببا أن أصبحت كاتبا .. ذلك أننى أحب فى الواقع أن أكون منعزلا، أصوغ وحدى أفكارى، دون شعور بأننى فى منافسة مع أحد" ..

وإذا كان هذا التفسير يحلل ما سبق من مواقف للسباعى، فإنه يفسر فشله فى المسابقات أو الانتخابات التى تجرى فى مجالات لم ترتبط بجذوره .. سواء هذه التى تقام أمام بصر الجماهير أم بعيدا عنها. الأولى كانتخابات

مجالس إدارة النوادى الرياضية مثلا، وهى تحتاج كما نعرف إلى "ملاغاة" للجمهور .. أى القدرة على امتلاك ناصية عواطفه والتأثير فيه. ولذلك لم يحدث أن نجح يوسف فى مثل هذه المجالات، إلا بطريقة أبى الطيب المتنبى "ولكنه ضحك كالبكا"! فالسباعى هنا أيضا يفوز بأسلوب "ولكنه نجاح كالفشل"!. أجريت مرة انتخابات عضوية مجلس إدارة نادى مصر الجديدة ولكنه خسر، ولما كان الناجح الوحيد قد عين سكرتيرا للنادى فإن العضو الذى يليه الداخل فى الانتخابات مهما كان عدد الأصوات الحاصل عليها .. يعين فى مجلس الإدارة، ولما لم يكن غير السباعى فقد فاز بالعضوية بهذا الشكل!

ومن الطريف أن الأمر لا يختلف بالنسبة إلى صاحبنا إذا اختفى عامل العيون الحاضرة المراقبة. وليس هذا تشابها فى نتائج تصل إليها عوامل متناقضة كما يقع فى بعض الأحيان، ولكنه توكيد لقدرة الجماهير على التواجد دائما مادمت تتعامل معها، كما تفعل إذا شاركت فى المسابقات الأدبية مثلا. وهو نفس ما يحس السباعى الذى لم يدخل أية مسابقة أدبية .. لا كما فعل يوما نجيب محفوظ أو محمد عبد الحليم عبد الله. والسبب أن الأديب -من وجهة نظر السباعى- رغم أنه يكتب بالطبع بعيدا عن الأنظار، فى نطاق عالمه الخاص، إلا أنه بموافقته دخول المسابقة التى تضمه وتضم غيره، وسمح أن يفاضل بينه وبين الآخرين .. جعل نفسه أو عمله نهبا لبصمات الفاحصين. الذى لا يملك

المشارك فى المسابقة، إلا أن يعمل حسابهم فى كل سطر يكتبه. وهكذا تلاحق العيون المتسابق بطريق غير مباشر، حتى لو كان فى صومعته وحيدا! ويعقب يوسف السباعى على هذه القضية فى يومياته قائلا: "إنى لا أستطيع أن أكتب أبدا وسيف المسابقة والامتحان والتنافس مسلط على رأسى، إنى لا أستطيع الكتابة إلا وأنا متحرر من جميع القيود وأولها الخوف من الإخفاق، واللهفة على النجاح .. إنى أحب أن أكتب لنفسى أولا" ..

(٤٣)

"يحذروننى فى البيت أن أحاول شراء أى شىء قط، لما عهدوه فى من "خيابة" و"غشومية"، والظاهر أنهم لم يظلمونى بتهمتهم لأننى غشيم فعلا. فما أذكر أنى اشتريت شيئا إلا وكان إما فاسدا أو بضعف الثمن، ومازلت أذكر حتى الآن التين الحامض، والتفاح المعطوب، وغيره وغيره .. مما اشتريته، وكان نصيبه الاستقرار فى صفيحة الزبالة بدلا من بطوننا.

ومن ذلك الحين، وقد استقر بى الرأى على أن أقبل نصيحتهم وألا ابتاع شيئا قط .. بل أعطيهم النقود وأترك لهم عملية الشراء":

يوسف السباعى "أرض النفاق" - ص٢٤٨

عندما عمد د. لويس عوض منذ سنوات إلى اختيار خمسين كتابا من فكرنا المعاصر، رآها جديرة باستيعاب التطور الثقافى والأدبى الذى حققته الشخصية المصرية منذ بدء النهضة والجديرة بالترجمة إلى اللغات العالمية ..

لم يستطع إلا أن تشمل هذه الكتب واحدا ليوسف السباعى، رغم الخلاف الكبير أو العداء الشديد بين الأول والثانى .. هو روايته "أرض النفاق". وقد كانت هذه الرواية أحد الأعمال النضالية الشجاعة المعدودة، التى شارك بها الأدباء المصريون ضد القوى الغاشمة التى تسطير على الحياة المصرية فى كافة مجالاتها، قبل ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ .. والتى أشاعت من جهة أخرى فى هذه الحياة القيم الهابطة، التى بدأت تستشرى فى مفاهيم الناس ومعاملاتهم اليومية.

ومن الأشياء الكثيرة التى تميزت بها هذه الرواية، التى صدرت طبعتها الأولى عام ١٩٤٩، غير ما ذكرنا .. صدق تعامل بطلها مع الآخرين والبائعين، وبالتالى ما تعرض له من المقالب غير القليلة. ويذكر القارئ فى هذا المجال بالذات ما أدت إليه إحدى عمليات الشراء، التى كان صاحبنا فيها هو المغبون الأول والأخير. يحكى راوى القصة وبطلها، أنه بينما كان يسير فى شارع الأزهر .. اقترب منه قرويان، رجل وامرأة تحمل سبتا مليئا بالبيض وفوقه زوج من الحمام. حكى له الأول عن سرقة حافظة نقوده، وقد جاء من البلد يزور سيدنا الحسين. وهو يريد العودة ولا يجد أجرة المواصلات، وكل ما يطلبه أن يتكرم بشراء ما يحملان من بيض وحمام. وهكذا بدا الأمر معقولا لا دخل للاحتيال والمحتالين فيه. وزاد اليقين والقروى لا يهول فى ثمن أشيائه كعادة البائعين. ولم يترك الرجل أدنى شك يمكن أن يلم بصاحبنا أو يخامره فى طزاجة البيض أو عدمه ..

فـأخذ بيضـة ثـم أخـرى وكسـرهما فـإذا بـهما صالحتـان للاسـتعمال. وتـأكد بطـل الروايـة، ولعلـه سـعد لاسـتطاعته أن يقـدم خدمـة حقيقيـة فـى مكانـها. وهكـذا تمت الصفقـة بثمنـها الـذى قـدره لـها وهـو أكـبر ممـا طلـب القـروى .. زيـادة علـى أجرة السـفر ذاتـها. ولـم تفلـح محاولـة البائع فـى أن يـرد إليـه غـير حقـه. وافـترق الجانبـان، ولكـن مـا كـاد صاحبنـا يسـير بحملـه خطـوات حتـى قفـزت إحـدى الحمـامتين وتبعتـها الأخـرى، وخـاف أن يـترك السـبت ويجـرى وراءهمـا أن يسـرقه مـتربص .. فـأخذ يسـتغيث بالنـاس وهـو يعـدو بحملـه خلفـهما. وهـاج الشـارع .. وضـاعت الحمامتـان المدربتـان، وعندمـا عـاد صاحبـه إلـى بيتـه، اكتشـف أيضـا أن البيـض فاسـد "ممشـش" كلـه!

لقـد صـور هـذا الحـادث بنبـض يشـى بـأن صاحبـه مـهما حـاول الاختفـاء وراء حجـة الخيـال أو التـأليف، فـهو يوسـف السـباعى نفسـه!

علـى أيـة حـال، إن الابتعـاد عـن روايـات السـباعى أو قصصـه القصـيرة، التـى تعـرض لـهذا الجـانب أو ذاك مـن قلـة حيلتـه الشـرائية، فـى التعـامل مـع الباعـة .. لا يعنـى أننـا خلصنـا مـن هـذا العنصـر، فسـيجابهنا بشـكل أوضـح وأصـرح فـى حياتـه الخاصـة! يقـول السـباعى: فـى حيـاتى العامـة أعمـال كثـيرة لا أتقنـها .. ولا أحـب أن أعـرض نفسـى لأدائـها. مـن بيـن هـذه الأعمـال، إن لـم يكـن أولـها .. عمليـات الشـراء -وقبـل أن نتسـاءل عـن موقفـه مـن هـذا الفشـل الدائـم المتكـرر، يعقـب- ..

فى قرارة نفسى .. لم أحس قط بندم على صفقة خاسرة عقدتها! مقدما تبريرا طريفا: فأنا أقنع نفسى بأن خسارتى فى الصفقة تمثل بلاشك ربحا للطرف الآخر!

ورغم اعترافه الصريح، إلا أنه يحاول أن يتراجع عنه بشكل غير مباشر وهو يأخذ فى اصطناع "نظرية" سباعية فى هذا الميدان: غالبا ما يكون من صغار الباعة الذى لا أرى ربحه منى ربحا فى غير موضعه .. بل هو حسنة مستحقة بطريق لا إذلال فيه ولا حرج منه. وأنا لا أرى فى البائع خصما لى يجب أن أحرمه ربحه .. أو أقلله إلى الحد الذى لا يجزى جهده. ولا أرى فى صفقة البيع والشراء معركة .. الرابح فيها هو الذى ينزل بخصمه خسارة أفدح وضررا أكبر .. بل هى عملية تعاون على الحياة .. الرابح فيها هو الذى يقدم للغير معونة أكبر وربحا أيسر .. حتى شروة الفاكهة البايتة التى اشتريتها .. لم تزعجنى قط عندما اكتشفت أنها بايتة .. وأنها توشك على التلف .. وأنى اشتريتها وهى فى الرمق الأخير .. بل عزيت نفسى بأننى لو لم يبعثنى الله لشرائها .. لقضى عليها فى حانوت صاحبها .. وحرمت أنا من أكلها .. وحرم صاحبها من ثمنها."!

هذه هى النظرية الخاصة التى ابتكرها السباعى، يعلل بها عدم نفاذه إلى أسرار دنيا البيع والشراء. ولعل الخجل أيضا هو المسئول منذ البداية عن تضخم هذه العقدة، فعدم احتكاكه بمختلف الطوائف الذى يشكل ممارسة تطبيقية للتنفس اليومى فى الحياة، جعله بعيدا عن ألاعيب البائعين.

ولاشك أن حياته العملية أو إرادته، رفضت أن تقف مكتوفة اليد أمام هذا العيب. وحاولت أن تصنع شيئا تلغيه أو على الأقل تخفف من أثره. ولما فشلت رأت الالتفات إلى الأمر الواقع والعمل على أن يستسيغه الآخرون -تعنى ويعنى معسكر الزوجة والحماة!- بشكل ما .. ولما رفضوا إيمانا بأن المال الذى يأتى بعرق الجبين، لا يبذر سفاهة فى شراء الفاسد والطالح من الأشياء .. فقد هداه تفكيره، عندما وجد أنه لا يستطيع فعلا أن يبرع فى الشراء، إلى أن يصطنع أو يزيف هذه البراعة ويدعيها .. فينزل بالسعر أمامهما قروشا كثيرة أو قليلة .. مدعيا شطارته التى فاقت الأولين والآخرين. خاصة إذا أجرى على السعر الأصلى تخفيضا كبيرا غير معقول. وفى أولى هذه المحاولات التى قام فيها بهذا التخفيض الوهمى الكبير غير المعقول، ورجع إلى البيت سعيدا، أحس بوخزة ألم. فهو أولا أطلق هذه الكذبة البيضاء، وثانيا هو يعرف أنه هو أو جيبه الذى يدفع و"يكع" الفارق بين السعرين. ولكن تخيله ذهول أهل البيت عندما تلجمهم المفاجأة، عوضه قليلا، وحاول أن يكون لا مباليا وهو يحكى تفاصيل الحادث. ووقعت المفاجأة، حقا، ولكن ليس كما توقع .. فقد كان رد الحماة الموجز وسخريتها القاطعة:

- ضحكوا عليك .. أنا بأجيبها من صيدناوى بنص الثمن!

وكان السباعى قد اشترى حاجياته هذه من أحد

المتاجر، وأخبر صاحبه وهو صديق بقضيته، وعرف منه أقل الأسعار فى السوق لمشترياته. فعاد إليه غاضبا ثائرا لأنه لم يصدقه النصح .. رغم أنه اشترى منه بالسعر الذى طلبه -التاجر لا يوسف- ويحكى السباعى ما دار بينهما. وينكر الصديق دهشا:

- مش ممكن .. نص التمن إزاى؟

- أهى قالت كده.

- اسمع لما أقول لك .. أحسن حاجة المرة الجاية .. قول لها إنى أديتك الحاجة هدية، أما نشوف بقى حا تقول إيه؟

وأجبته ضاحكا:

- حا تقول فى صيدناوى بيفرقوا فوقها فلوس!

وأدرك صاحبنا بوضوح أنها ليست مسألة خيابته وحدها فى الشراء، بل هى أيضا ادعاء المعسكر النسائى الشطارة!

ولم يقعده فشل المحاولة الأولى من أن يكرر التجربة، فهو لا يؤمن أبدا أن جولة واحدة قوة وضعفا، يمكن أن يكون لها الكلمة الأخيرة فى الموضوع. وهكذا استمر فى إجراء التخفيضات التى كانت تصل أحيانا إلى أكثر من خمسين فى المائة! والتقدير الذى يلاقيه ويحصل عليه رغم ذلك لا يزيد عن "مش بطال" .. تقال فى معظم الأحيان بتجاهل أو بإشمئناط، إن لم تذيل بالإشارة إلى "خيابة الرجالة" بوجه عام! ومع ذلك كان السباعى سعيدا، لقد استطاع أن يخفف لا شك -مهما كان الحجم- من جهامة

اتهامه بالفشل أو عدم الفهم فى ممارسة عملية الشراء. ارتاح إذن .. رغم أن بعض محاولاته افتضحت كعملية شراء حذاء بخمسة جنيهات -فى أواسط الخمسينيات وزعم أنه بمائة وخمسين قرشا، وهو ثمن الحذاء العادة الذى كان ينتعله عادة- وقد سجل أديبنا هذا الحادث الطريف فى كتابه "من حياتى". على أية حال استمر السباعى يقوم بعمليات الشراء المخفضة اليومية وقتا طويلا، حتى وقع له حادث اضطره إلى أن يكف إلى الأبد عن هذه التجارب .. ويكتفى من الغنيمة بالإياب .. معترفا بقلة حيلته مع البائعين الشطار.

كان البيت فى حاجة إلى بعض الأدوات المنزلية والصينى القليلة، فذهب إلى أحد المحلات التى يتعامل معها فى شارع الأزهر. وهناك وجد بضائع ممتازة مستوردة من تشيكوسلوفاكيا، وبدت له جيدة النوع رخيصة السعر. فأخذ ينتقى وينتقى حتى بلغ ما اختاره خمسة عشر جنيها، وكان يعرف جيدا أن ما يحتاجه البيت لا يزيد عن جنيهين اثنين، وتخيل ثورة المعسكر النسائى عليه -لم تكن ابنته قد انتسبت بعد إلى هذا المعسكر، فقد كانت لا تزال طفلة - وتفنن فى اكتشاف الحجج "الفاطسة". وأسرع بإعداد دفاعه قبل أن يصل إلى المنزل: لقد اشترى ما يحمل فى أوكازيون بعشرة جنيهات .. "ويا بلاش"! ولم تكن مصممة الشفاة والسعر الأقل الذى كان أعضاء هذا المعسكر يستطيع أن يحصل به على هذه المشتريات نفسها

.. هى وحدها هذه المرة التى تسدل الستار على الصفقة، فقد تصادف بالبيت وجود زائرة شاركت فى إلقاء نظرات على البضائع المشتراة واستوعبت جيدا هجوم أهل البيت عليها وضيقهم بها، مدركة فى نفس الوقت مدى "اللقطة" والأوكازيون الفعلى النادر الذى تشكل. وبدت الفرصة سانحة بل نجدة من السماء، إذا عرفنا أنها فى ذلك التوقيت كانت "تجهز" لابنتها العروس. ولذا لم تكن بها حاجة إلى التفكير، ولتعرض عليهم أن تنقذهم منها وتدفع ثمنها. ولعل السيدة وهى تعرض كانت تقيس الدور الذى أتاحت لها الأقدار أن تقوم به، وهى تندفع مضحية فى سبيل إبعاد ضيق عائلة صديقة عزيزة! توالت هذه الفصول القصيرة السريعة على مشهد من صاحبنا وهو ذاهل. يقول السباعى: ساعتها أدركت أننا لا يمكن مهما كنا من أبرع الروائيين، أن نحاكى القدر فى دقة تأليفه! وكانت بشاعة الموقف بالنسبة لى، أننى أقوم بعمليات الخصم الوهمية لنفسى .. لأننى منه وإليه. أما أن أجرى الخصم للغير .. وأما أن أشترى البضاعة بخمسة عشر جنيها ثم أبيعها للغير بعشرة جنيهات .. لكى تقول عنى إنى شاطر .. فهذا هو الجنون المطبق". ولكن ما العمل؟ لم يكن بد من أن "يكشف" نفسه وهو يعمل على عدم التعرض للخسارة الوشيكة الوقوع .. يعترف بجريمته أو فضيحته التى ستجعله لا يستطيع الرجوع ثانية إلى أسلوبها "المفيد" مرة أخرى. وهكذا أومأ إلى زوجه، وفى حجرة أخرى حكى لها

الحقائق كلها، ولم يكن الاعتراف كافيا للخروج من المأزق، فالسيدة نفسها ماذا يمكن أن تفهمه لو أعلنت به؟ لندع السباعى يقص علينا خاتمة الحادث. كان الموقف حرجا وليس بالمسألة السهلة، ولاسيما أن الضيفة لم تكن من النوع الذى يسهل رفع الكلفة معه .. بل كانت من النوع الغبى القماص، وكان يحتمل أن تفهم اعترافى على أنه محاولة للربح منها، أو تفهم تراجعنا عن إعطائه لها بأنه استخسار فيها .. وهكذا لم تجد بدا من إعطائها الصفقة بالعشرة جنيهات. وغرمت ببساطة خمسة جنيهات، ومن يومها .. لم أحاول أن أعيد عملية الخصم أبدا!

ونحتاج مرة أخرى إلى أن نعود إلى رواية "أرض النفاق"، التى يؤكد فيها السباعى بأسلوب غير مباشر عجزه فى عمليات الشراء. وهو يصور باللمسة الكاريكاتيرية صدق بطلها وهو يأخذ حديث البائع قضية مسلما بها، بعد أن أذاب مسحوق المروءة وشربه. وهذا التصور المبالغ فيه، مهما بدا فى ملامحه من تجاوز الواقع، إلا أنه يعكس فى دلالته انغماسا لهذا الواقع نفسه فى أعماق صاحبه، فهو يقترب منه ولا يبتعد عنه ويبرزه ولا يطمسه. وقبل أن نعرض للحوار الذى دار بين الاثنين، يجب أن نلتفت إلى أن نخفف من سخريتنا بسذاجة بطل الرواية، لأن كاتبها الذى يهاجم بحق النفاق والمنافقين والقيم المهتزة فى مجتمعنا، يمكن أن يضع سخريتنا هذه من أمانيه ومبادئه القوية التى لاشك فيها .. ضمن الانحرافات التى تفسد على الحياة

المصرية شئونها! لأنه يريد أن يكون للكلمة وجه واحد، ونحن مضطرون إلى الاعتراف بأنها للأسف ليست كذلك، وإنما لها وجهان وثلاثة وعشرة وجوه .. وكأن الكاتب يشير بذلك إلى قسوة الحياة التى تجعل أصحابها يتخذون من السراط غير المستقيم منهجا، رغم وضوح خطله ومضادته لمبادئ الروح.

كان البطل يقترب من بائع الموز، الذى كان لسانه لا يكف عن الصياح والضجيج كأن به جنة .. "يا بلاش بخمسة صاغ الأقة يا موز" .. نبيع ببلاش يا ناس .. يا عالم بنص الثمن .. الحق نفسك قبل ما يجبر"! وتساءل البطل وهو فى قمة روحانيته أو صدقه، كيف يمكن أن ينتهز فرصة تعرض الرجل للخسارة ويشترى منه. ودار هذا الحوار:

- بكام الأقة؟
- بنقول بخسمة .. بنبيع بالخسارة .. والله حرام.
- بستة .. تبيع بستة؟

وصمت الرجل ونظر إلى فى دهشة .. وقال لى متسائلا:

- أيه ده اللى بستة؟
- الأقة .. أقة الموز.
- قلت لك بخمسة.
- لا بستة!

ونظر إلى الرجل كنظرته إلى مخبول، فأردفت قائلا شارحا وجهة نظرى.

- حرام تخسر؟

- نعمل إيه؟ أكل العيش عايز كده .. مرة نخسر ومرة نكسب.

ولكنى أصررت على أن اشترى بستة .. وأن أتيح للرجل "مرة نكسب" بعد طول خسارة! وأخذ الرجل يعد له ما طلب .. خمس أقات وهو يطلق صيحاته عن خسارته فى البيع، الأمر الذى كان بمثابة طعنات موجهة إلى صاحب المروءة، فلم يستطع إلا أن يصيح بالرجل:

- خليها سبعة.

ونظر إليه البائع كأنه لا يصدق أذنيه، وقال مستفسرا:

- بسبعة .. سبعة قروش صاغ؟

- أى نعم .. حرام عليك تخسر كل هذه الخسارة؟

ومضت فترة صمت الرجل عن نداءاته وصياحه، ولم يلبث أن تساءل حذرا:

- تحب نخليه بثمانية .. وإلا إيه رأيك؟

- لا مانع أبدا!

ولم تنته عملية الشراء عند هذا الحد، فقد اكتشف صاحبنا عند وصوله إلى بيت صاحبه الذى قدم إليه الموز هدية، أن الفاكهة فاسدة كلها إلا من الطبقة العليا .. لقد خدعه الرجل .. وكان القرطاس الذى وضع له فيه طلبه يكاد يمتلئ حتى الحافة بموز فاسد!!

(٤٤)

جاء حين من الدهر كان يوسف السباعى يسافر إلى الخارج بمعدل مرة كل أسبوع .. يفرضه عمله فى المؤتمر الأسيوى الإفريقى، أو المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، أو الاتحاد العام للأدباء العرب. ولعل كثرة هذه الأسفار إلى بلاد برة هى التى أوحت، بأنها ترجع إلى فترة مبكرة جداً فى حياة صاحبها. ولكن هذا غير حقيقى! .. فالعكس هو الصحيح .. فقد كانت أمنية السباعى حتى عام ١٩٥٧، أن يتيح له القدر أن يشاهد العالم الخارجى حتى لو مرة واحدة .. ولا "تكتر" على الله. لكن السماء حتى ذلك التاريخ، لم تكترث لدعوته!

وكان السباعى فى صباه فى مرحلتى الدراسة الابتدائية والثانويةِ من هواة الرحلات المدرسية، ولكنه لم يستطع أن يكثر منها .. خاصة هذه التى كانت تذهب إلى الأماكن البعيدة. والسبب أنها تكون بالتالى مرتفعة النفقات وليست بقروش زهيدة، يمكن اقتطاعها بسهولة من المصروف اليومى القليل. أو الدخول بشأنها فى حوار ثقيل وعملية إقناع أثقل مع الأم خاصة بعد وفاة الأب.

وجاءت سنتا الدراسة فى الكلية الحربية، وانتظمت بالطبع الرحلات .. إلا هذا الصنف المتصل بحصص الطبوغرافيا -علم مسح الأراضى أو رسم الخرائط- الذى كان الفصل يخرج فيها إلى أماكن قاهرية قريبة.

وكان العام الأخير من الدراسة العسكرية يشكل تفجيراً للرحلات، سواء للهاوى أم غير الهاوى. لأن الأربعة الأوائل فيها كانوا يرسلون فى بعثة إلى إنجلترا فى وولتش لدراسة المدفعية. لهذا كانت هذه البعثة كما استقرت فى وجدان ضابطنا الذى على وشك التخرج، مسألة حياة أو موت لغده .. "كنت أعلق على السفر آمالاً كبارا .. وأعتبر أن مستقبلى .. ومستقبل المدفعية فى مصر .. سيضيعان .. إذا ضاعت منى هذه البعثة"! وكانت مسألة اختياره داخلة فى دائرة اطمئنانه، فهو الرابع فى الأقدمية بين طلبة القسم النهائى، والبعثة أربعة طلاب! وكانت الدفعة وقتذاك صغيرة فى حدود العشرين طالباً وغالباً كما يقول السباعى، كان كل منهم يحتفظ بأقدميته التى حصل عليها فى أول امتحان فى القسم الإعدادى .. لأن الأقدمية تحسب عند التخرج بضم المجاميع الثلاثة التى يحصل عليها الطالب فى السنوات الثلاث. ولكن فى هذه السنة -١٩٣٧- بالذات تغير النظام فى "المدرسة" الحربية، وانضم القسم المتوسط إلى القسم النهائى ودخلوا جميعاً امتحاناً واحداً تحسب على أساسه أقدمية التخرج .. بصرف النظر عن الامتحانات السابقة. ورغم أن هذا الوضع فوت عليه فرصة، كانت مضمونة، إلا

أنه بالامتحان كان يمكن أن يعوضه إذا أحسن الاستعداد له. ولكن هنا المأساة التى يدركها هو قبل غيره، إن هذا الامتحان كأى امتحان يحتاج إلى استيعاب كامل أو كما يقول هو "معركة مذاكرة". وإذا كان هو فى المعارك العادية يستطيع اجتيازها غالباً بصعوبة، فما الشأن إذن فى المعارك غير العادية التى تستهدف بعثات إلى الخارج؟ إنها تحتاج إلى جهد واستيعاب أكبر .. فوق طاقته.

وإذن كان يعرف النتيجة مقدماً .. قبل أن يستعد للاستذكار، ويجىء الامتحان ويدخله .. وطارت كما يقول الأقدمية والبعثة والسفر إلى الخارج!

ورغم ذلك فلم تغب بلاد برة والتجوال فيها عن ذهن السباعى أو خياله، ولم ييئس من فرصة أخرى تتاح .. ترتبط بالطبع بإحدى البعثات العسكرية -ومن أين له السفر بغيرها وهو ضابط بالجيش- وسنحت هذه الفرصة بعد ذلك بعامين أى فى سنة ١٩٣٩. عندما تقرر إرسال أول مجموعة من ضباط المدرعات لإنجلترا لدراسة المدفعية والصيانة واللاسلكى. ورشح السباعى مع زميله البارودى لبعثة الصيانة. وبدا كأن القدر يكفر عن سيئته الأولى، والسفر قاب قوسين أو أدنى .. خاصة وأن الترشيح لا يحتاج إلى امتحان وبالتالى إلى استذكار يكبده العناء الذى لا يطاق. وبينما كان صاحبه البارودى يسير يوماً فى طابور السواقة، إذ قلب إحدى السيارات .. فجوزى بالإحالة إلى الاستيداع ستة أشهر. ولما كان هذا قد حدث قبل أن يتحدد موعد

السفر، فقد أسقط اسمه من البعثة. واختار أحمد رياض قائد الآلاى، حسين الشافعى -نائب رئيس الجمهورية بعد ذلك- بدلاً من البارودى .. ومصائب قوم عند قوم فوائد كما يقول المثل! ولكن ما أكثر "تفانين" القدر .. تأجلت البعثة شهوراً تجاوزت شهور استيداع البارودى، وكان معنى هذا أن يعود إلى الخدمة، ومن ثم إلى البعثة .. وحدث وطارت من الشافعى هذه المرة!

وفى هذه الأثناء، كان الاطمئنان يسود حياة السباعى من ناحية السفر والبعثة والتجوال فى نواحى إنجلترا، فإن معظم البعثات العسكرية وغير العسكرية كان يستوعبها بلد المحتل الذى يسير الأمور فى مصر. ولكن هذا لا يعنى إذا كان فى الخارج أنه لا يستطيع أن يسيح فى أوربا شرقاً وغرباً .. وهكذا فكر يوسف. وأخذ بينه وبين نفسه يضع البرنامج الحافل المفضل، لما ستكون عليه أيامه فى بلاد برة .. خاصة فى بلاد الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس كما كانت أيامها. ويوم تحدد موعد السفر واندفع فى إعداد الأوراق، ولم يبق من الإجراءات الشكلية إلا الالتقاء بوزير الحربية. ورغم أن السباعى لم يحمل لهذا اليوم هماً، لأنه كان فى حسابه لا يقدم ولا يؤخر .. فعمل الوزير يومها فى تصوره ليس إلا "البصم". إلا أنه أعد نفسه لهذا اليوم كآخر حلقة فى سلسلة الإعداد للسفر والترحال فى بلاد الله وخلق الله .. وكأنه بدأ فعلاً يضع قدمه على سلم الباخرة.

واستيقظ مبكراً وارتدى ملابس "مقابلة الحكام والناس العظام" .. الحذاء الطويل وبنطلون الركوب الطويل، والتمنطق بالسيف مشدوداً بمقبضه الكروى اللامع إلى الوسط .. مدلى بحده الطويل إلى جانبه. وسار وصاحبه البارودى إلى وزارة الحربية، وهناك التقيا ببقية الزملاء المبعوثين. وبعد قليل أقبل عليهم رئيس هيئة أركان الحرب الفريق محمود شكرى "وتمم"، عليهم ليدخلهم إلى الوزير. فى هذه اللحظة وقع حادث صغير، أقبل عليهم حسين الشافعى لاهثاً وكأنه كان يعدو من بيته إلى الوزارة، مرتدياً ملابس الركوب متمنطقاً بالسيف أيضاً .. فوجئ به الزملاء .. خيراً .. قال يوسف هامساً:

- إيه اللى جابك؟

- أنا عارف؟ قالوا لى إلحق حالاً قدم نفسك للوزير مع المسافرين!

- ألف مبروك.

وشد على يده مهنئاً سعيداً بلم الشمل مرة أخرى.

وتقدمهم رئيس هيئة أركان الحرب إلى حجرة الوزير، وكان حسين سرى باشا. ويستحسن أن ندع الحديث ليوسف السباعى نفسه، لا لأنه أقدر فحسب على تقديم نبض حياته، بل لأن ظلال هذا اللقاء تدخلت فى مسار السفر كله .. يقول فناننا: "كانت المرة الأولى التى أدخل فيها مكتب وزير .. بل لعلها المرة الأولى التى أرى فيها وزيراً .. بمهابته وفخامته، ولاح لنا حسين سرى .. فى

أقصى الحجرة .. وراء مكتبه الفاخر وقد اتكأ بكرسيه إلى الوراء وأخذ يتفرس فينا بنظرات عدائية متعالية .. حتى أدخل فى روعى .. أنى مذنب فى قفص الاتهام ولست مبعوثاً فى مكتب وزير. وبدأ الوزير حديثه .. بلا ترحيب ولا سلام .. بل بأسئلة عدائية مهاجمة .. كأن بيننا وبينه عداء قديم .. وصاح بأولنا وكان البارودى:

- أنت رحت الاستيداع ليه؟

- لأنى قلبت عربية.

وفى صرخة ناهرة صاح فيه:

- قول بالإنجليزى.

وقالها البارودى بالإنجليزى .. بطريقة جعلت الوزير يقلب شفتيه .. بقرف وامتعاض، وانتقل إلى .. وأحسست بالرهبة تزداد بى .. واللخمة تطبق على أنفاسى .. وتملكنى إحساس الجالس أمام لجنة امتحان شفوى إنجليزى .. يرأسها وزير .. أو بتعبير أصح .. يقود هجومها .. وزير، وسألنى الوزير فى لهجته العدائية الخاطفة:

- متى تخرجت؟

والإجابة بسيطة .. فإنى قد تخرجت سنة ١٩٣٧ .. والمسألة لا تحتاج إلى ذاكرة أو مشقة .. بل كان يمكننى أن أقول أى كلام بلا تدقيق .. فلا أظن الرجل كان يعرف تاريخ تخرجى ولا أظنه كان سيجرى تحقيقاً فى صحة الكلام. ومع ذلك وجدت الذاكرة تبحث عن الرقم .. والرقم يفلت منها بلا أى مبرر .. وعندما أمسكت به .. وبدأت

تترجمه إلى الإنجليزية .. كان الرجل قد مل من طول صمتى .. وانتقل بهجومه الخاطف إلى حسين، وخرجنا من مكتبه .. ليسافر البارودى وحسين .. وأبقى أنا"!!

وهكذا طارت البعثة مرة أخرى، ومعها السفر إلى بلاد برة! وواضح أن الضربة جاءته فى أضعف موطن، فصلته دائماً بهذه المادة الدراسية فى الأصل، صلة سيئة منذ وقت طويل. ويكفى أن رسوبه المدرسى الذى حدث ثلاث مرات فى حياته -فى السنوات: الرابعة الابتدائية (فى الحساب). الأول والرابعة الثانوية، وكانت الدراسة الثانوية خمس سنوات- كأن سببه فى المرتين الأخيرتين منها .. اللغة الإنجليزية .. دور أول ودور ثان أيضاً! ويقول السباعى ضاحكاً: لعل ثلاثة أرباع كراهيتى للاستعمار الإنجليزى لبلادى، كان بسبب اللغة الإنجليزية! ويذهب إلى القول كما كتب يوماً فى أحد فصول كتابه "من حياتى" .. "بل إنى من فرط تحكم عقدة الإنجليزية فى نفسى،لا أتساءل كيف استطاع جمال عبد الناصر أن يحقق المعجزات التى حققها .. بل أتساءل كيف استطاع أن يتحدث بالإنجليزية كما يتحدث الآن .. مع الدبلوماسيين والصحفيين الأجانب"!

وهذا الموقف الذى كان السباعى يتخذه من اللغة الإنجليزية -أقول "كان" لأنه تخلص من عقدتها، وأصبح يتكلمها بطلاقة .. والفضل فى ذلك على ما نظن لعمله فى المؤتمر الأسيوى الأفريقى .. سكرتيراً عاماً له- يشكل أحد الأشياء النادرة التى اختلف فيها إلى درجة التناقض مع

أبيه. فما أبعد الفارق في هذا الجانب بين محمد السباعى وإجادته لهذه اللغة إجادة يضرب بها الأمثال، مكنته من أن يترجم بها بعض عيون الأدب الغربي .. كما ترجم أيضاً رباعيات الخيام .. وبين ابنه الذى كان يضطرب فى أوليات نفس اللغة الاضطراب الذى ذكرنا.

على أية حال، نعود إلى المحاولة التالية لصاحبنا محب الرحلات، فنجدها تسنح له فى أبريل سنة ١٩٥٤ .. وفى هذه المرة اضطر السباعى إلى رفضها! .. فقد كان لا يزال فى الجيش، يستعد أيامها لإصدار العدد الأول من مجلة "الرسالة الجديدة". ولم يكن من المعقول أن يترك رئيس التحرير الإشراف على العدد الأول بالذات لغيره، ويسافر إلى الخارج يتنزه ويجوب الأصقاع .. وهكذا اعتذر. ولم يعرف يومها أنه سيدفع ثمن هذا الاعتذار غالياً، إلا عندما أهلت السنة التالية وأعلن عن بعثة ضابط الأركان حرب وكانت إلى إيطاليا، وتقدم إليها وكان دوره قد حل من زمان. وفوجئ بالجواب: الرفض! لماذا؟ لأنك أضعت دورك وحقك بالاعتذار السابق! وأغلب الظن أن ضابطنا الذى لم يصبح متفرغاً للحياة العسكرية وحدها كما كان قبلا، والتفت إلى الكتابة والنشاط الثقافى والفنى .. نسى المفاهيم التى تعشش فى الأنظمة الحربية. وتركيب السباعى الذى يجعلنا نحس كثيراً أنه لا يذكر أيام "الكاكى" بعد أن استقال من السلك العسكرى، إلا بكل ود وتقدير –ولعل هذا الانتماء هو الذى جعل صاحب "أرض النفاق" و"أمة

ضحكت" و"وراء الستار" الثائر، لا يرى فى بعض الشخصيات "العسكرية" التى شاركت فى الحكم طوال العشرين سنة الأولى من عمر حركة ٢٣ يوليه .. إلا جانبها المضىء متجاهلا جانبها الآخر المظلم .. هذا التركيب يجعله يقول فى هذا الموضع: لم أتضايق كثيرا .. وقلت لنفسى "بجملة" .. وأنا بطبعى لا أحزن كثيرا على الفرص الضائعة .. ولاسيما التى لم يكن لى فضل فى إضاعتها .. وأحاول أن أفهم نفسى أن الله يحبنى .. وأنه يدبر لى الأفضل .. وأن أقنعها بأن ما فى يدى خير مما ضاع منى".

وهذا ما جعله يستقبل المحاولة الرابعة بلا حماس أو اهتمام .. رغم أنها جاءته من وراء البحار .. من فيينا عاصمة النمسا .. دعوة لمؤتمر نادى القلم .. ورغم أنه قبلها. فقد أصبح يدرك أن قبوله بل استعداده للسفر إلى بلاد برة شىء .. والسفر نفسه الذى لن يقع شىء آخر .. مجرد سد خانة .. "معجزة" لن تتحقق بالنسبة إليه هو بالذات. لأن القدر كما يحس يقف له بالمرصاد ويمنعه من مغادرة الحدود. ولم يكن استخراجه لجواز السفر أو الحصول على التأشيرات المختلفة أو الحجز على الباخرة .. بالخطوات التى تقرب السفر، بل كانت فى ظنه من العوائق التى تؤخره وتمنعه فى النهاية! ولذلك كان يقبل على كل خطوة ونفسه "مسدودة" .. يفعلها "تأدية واجب". وعندما أوجعته إحدى عينيه، أدرك أن البقية تأتى أو بقية السوء يأتى! وتذكر مثل هذه الإصابة التى كانت

تجيئه زمان فى الأعياد وكأنها منه على ميعاد، لتفسد عليه فرحته وهو طفل بالعيد! ورغم ذلك استمر فى الإعداد للسفر بنفس الروح اللامبالية .. حتى لم يبق على الموعد إلا يومان .. ووقع الحادث.

كان القائد العام للقوات المسلحة عبد الحكيم عامر، يمر على المدرعات الجديدة فى سلاح الفرسان، يرافقه نائب سلاح الفرسان الأميرالاى يوسف السباعى، واستمر المرور أكثر من ساعتين فى عز الظهر والدنيا صيف والشمس حارقة .. وبعد انتهائه دعا السباعى المشير إلى شراب مثلج، ولكن القائد العام اعتذر لأنه على موعد، وكان السباعى قد أعد فى مكتبه شراب شعير مثلج، فقدمه إلى زملائه الضباط وكان من بينهم عبد العزيز مصطفى مدير الفرسان وحافظ إسماعيل مدير مكتب القائد العام -مستشار رئيس الجمهورية بعد ذلك- وجاء الشراب المثلج ليطفئ النار الموقدة التى تهب من الأحشاء. ولكن لم تمض دقائق حتى شعر صاحبنا بألم فى معدته أخذ يزداد إلى الدرجة التى لم تفلح فيها محاولاته المستمرة لإخفائه عن عيون ضيوفه حتى ينصرفوا .. وإزاء شحوب وجهه المخيف، أرقدوه فى مكتبه واستدعوا له طبيباً .. أعطاه حقنة مسكنة، ولكن الألم يقوى ويقوى لينتهى به إلى شبه إغماء متصل. وكان الحل نقله فى الحال إلى مستشفى مظهر عاشور لإجراء عملية مصران أعور .. كما حدس هو وأصحابه. وجاء الدكتور مظهر وفحصه وأمر باستبقائه فى المستشفى

ليعاود فحصه بعد ساعات، عندما تزول أثر الحقنة المسكنة مرة أخرى. وفى هذه الأثناء كما يقول السباعى لم ينس وسط آلامه أن يذكر الحظ المترصد للرحلة .. وبدا لى أن القدر يبتسم فى خبث .. وهززت رأسى وهمست به فى استعطاف .. خلاص مش مسافر بس سيبنى .." .. وهو يدرك أنه بسبيله إلى عملية لاشك فيها.

ولكن بعد قليل أخذ الألم يخف، ومع زوال ضغط الأوجاع الطاحنة .. داعبت النفس أمانى الرحيل إلى الخارج .. ومن يدرى؟ إن السماء قادرة على كل شىء، ولا يقنط من رحمة الله إلا القوم الكافرون. وأحس بنوع غريب من الاطمئنان، جعله كلما تخفف الجسد من آلامه .. اندفع إلى الإيمان بأنه هذه المرة سيفلت من اللعنة. وما عليه إلا أن يحطم هذا الوهم الذى يعطيه من نفسه قوة أو حياة ليست له، وأن يترك سريره فى التو واللحظة .. مغادراً المستشفى إلى بيته، ليستعد لسفر الغد! ولم يكذب خبراً أو هاجساً، ورآه زواره فجأة ينهض من فراشه ويرتدى ملابسه و"يستأذن" منهم معتذراً! وهم لا يفقهون له قولاً أو فعلاً بالضبط لما يفعل ولا الجديد الذى طرأ عليه! وينطلق هارباً وتشاهده الممرضات فى عدوه، فينطلقن فى أثره دهشات صارخات لهذا المريض الذى كان يتلوى من الألم منذ قليل ويطالب بإجراء عملية جراحية سريعاً تنقذه من عذابه .. وهو الآن يجرى فى طرقات المستشفى صوب بابها يريد أن يهرب وكأنها المعتقل الرهيب!

وهو اليوم لا يستطيع أن يفسر بالدقة ماذا حدث له ساعتها! هل أوغلت البصيرة فى المجاهل، وأدركت أن صاحبها يعيش فى وهم من صنعه، أو يفسر الأشياء حسب مزاجه هو؟ أم أن النفس سئمت استسلامها، فتمردت وتهورت وليكن ما يكون؟ وبهذه الروح الجديدة وجد نفسه فوق الباخرة، وهى تتحرك تمخر عباب البحر تبتعد عن الشاطئ. ورسم السباعى فى إحدى مقالاته وهى "غافلت القدر وسافرت"، ملامح هذه اللحظة العذبة التى أنهت صفحة وبدأت أخرى من حياته .. "وفى اليوم التالى كنت فى الباخرة .. أتنفس الصعداء وهى تتباعد عن الميناء .. ونسيم البحر يلفح وجهى وخيل إلى أن هناك وجهاً يعدو فى الميناء للحاق بالباخرة .. وأنه يصيح بمن حوله "إنه مريض أعيدوه إلى فراشه .. لقد غافلنى وهرب" .. ولم أدر أكان الوجه .. وجه الطبيب، أم وجه، القدر .. أم وجه زوجتى التى لم تعرف بمرضى إلا بعد أن سافرت"!

وهكذا بدأ يوسف السباعى خطوته الأولى فى عالم الرحلات .. صحيح أنها كلها ليست خالصة لوجه الرحلة، كما يفعل مثلاً أنيس منصور .. ولكنه سيعيش هذه الأجواء الأجنبية إلى أبعد المناطق التى لم يكن خياله يستطيع اللحاق بها كالأقطار الإفريقية والأسيوية. ويكتب عنها كثيراً، حتى ليجمع منها "طائر بين المحيطين" سنة ١٩٧٠، ويستعد لتقديم أكثر من كتاب رحلات آخر!

ويضع القدر فى إحدى رحلاته إلى خارج الحدود ..

نهاية لحياته الغالية ..

وبمناسبة الإشارة إلى كتاب رحلاته "طائر بين المحيطين"، فإن القارئ الذى يتابع إنتاج أديبنا .. يدرك جيداً أن الكتاب بجانب عدم استيعابه إلا لجانب صغير من رحلات السباعى، فإنه لا يعكس جيداً مستوى كتابات صاحبه أو شخصيته. وأقصد بذلك ما يبلور عدم الانطلاق والقيد الذى وضعه على تحرر قلمه، تجنباً لما يثيره مركزه الرسمى من حساسية. لقد كتب عن جوانب وأغفل عن عمد جوانب أخرى، ليس من حق الموظف المسئول أن يذكرها، لأنها تتصل بأحداث وشخصيات مشهورة وزعماء وحكومات ومؤتمرات سياسية أو مهرجانات أدبية فى نطاق عمله -قبل أن يلى وزارة الثقافة بالطبع- كسكرتير عام لمؤتمر التضامن الأسيوى الإفريقى أو للمجلس الأعلى للفنون والآداب .. ولقد اعترف يوسف السباعى يوماً بهذا فى إحدى يومياته التى كان يكتبها فى جريدة "الجمهورية" -١٩ أكتوبر سنة ١٩٥٩- تحت عنوان "أيام تمر" وهو يقول .. "أما رحلتى كإنسان .. حر .. طليق .. غير مسئول .. أما مشاعرى الحقيقية .. المتأججة فى باطنى، أما السخرية .. والمرح، أما انعكاس الرحلة .. فى نفسى كأديب أو فنان .. فلا أظننى بمستطيع التعبير عنها بحرية وبلا حرج .. فى وقتنا هذا".

وهذا الموقف جعل السباعى فى البداية، يرفض أن يكتب عن رحلاته خوفاً أن تجىء فاقدة الطعم .. مجرد تقرير رسمى أو "وصف لمناخ البلاد وطبيعة أهلها، وصفاً أتوخى

فيه الأدب والمجاملة! "ساعد على هذا المفهوم، أن السباعى يفرق دائماً بين العمل الصحفى والعمل الأدبى .. ويجد أن كتابة الرحلات أقرب إلى العمل الأول .. بينما هو يستطيع - خاصة إذا كانت هناك قيود وظيفية كما هو حاصل - باختزانه كل ما يقع عليه بصره ويشارك فيه وينفعل به، أن يستخدمه فى أعماله الأدبية والروائية بشكل أكثر عمقاً وفائدة. ويؤكد السباعى أنها ليست ضائعة .. "ولا أخشى عليها أن تذروها ريح الزمن .. أو تضيع معالمها بسير عجلاته. إنها أشياء مختزنة فى باطن الكاتب .. كما تخزن الخمر فى باطن الأرض يزيدها الزمن عتقاً. إنها لا تراق .. ولا تتبخر. بعد عشرات السنين .. سأجدها فى باطنى كما هى .. بعد أن يزيل الزمن ما بها من مرارة ويخلع عليها حلاوة الذكرى. لن تبهت فيها التفاصيل .. أو تضيع المعالم .. كما لم تبهت معالم البغالة وكتاب الشيخ زكى .. وحوارى زينهم وجنينة ناميش .. وذكريات طفولتى عندما اجتررتها فى "السقا مات" أو فى غيرها .."

ولا يمكن أن يتم الحديث عن السباعى والرحلات من غير أن نشير إلى زوجته، وهى العامل المكمل. ولا يعنى هذا أن السيدة دولت تشاركه السفر، فهى على العكس لم تفعل أبداً! وإنما نقصد أن فزع زوجته من ركوبه الطائرة، جزء لا يتجزأ من مراسيم الرحلة .. ويبدو أنه كتب على يوسف السباعى أن يقاسى من مبالغة عواطف ربة البيت شديدة الحساسية، سواء أكانت أمه أم زوجته .. كالخوف عليه من

مخاطر الطريق أو "سكته" سواء فى الأرض أم فوق السحاب، إلى درجة لا تطاق. ولعل استشعار هذا الخوف كان أول ما جمع بين زوجة الابن والحماة. وقد لا يعرف الكثيرون أن يوسف السباعى يجيد سياقة السيارة، لأنهم لم يروه أبداً أمام عجلة القيادة .. والسبب زوجه التى استخلفته فزعاً من مخاطر الإمساك بالدركسيون، ألا يفعل، وإذا كان رعب السيدة دولت بهذا الشكل، فنستطيع أن نتصور مدى ما كان عليه حجمه فى بداية الأسفار والسباعى يأخذ فى استعمال الطائرة. ولو ترك لها الأمر، لمنعته من الصعود على سلمها .. عملاً بالمثل المعروف .. "امشى سنة ولا تخطى قنا". فما بالك ومنبع الفزع ليس ترعة أو قناة، بل هو بحار ومحيطات وقارات! ولو لم تكن "لقمة العيش" أو "التكليف" المغموسة بالرعب، لما استطاعت أن تبرر له موضوع السفر كله.

ويكفى أنها عندما عرفت أنه سيركب الطائرة لأول مرة من القاهرة -فعلها قبل ذلك مرة واحدة عندما كان فى مؤتمر أدباء العرب الذى عقد ببلودان بلبنان، ذهب بالباخرة وعاد بالطائرة وسبب التغيير، تشنيع صديقه إحسان عبد القدوس عليه واتهامه أنه يفزع من ركوب الطائرات! -أمضت كما يقول السباعى أسبوعاً كاملاً فى بكاء مستمر، لأن الزوج العزيز سيسافر بالطائرة -وكانت رحلته فى روسيا- وتخاف أن تقع به! وكانت تردد وهى منتحبة على سمعه القول الكريم "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة".

- وأين هى التهلكة ياست؟

- هل توجد تهلكة أكثر من الطيارة"؟!

ولا صلة لخوف الأم أو الزوجة بتطور العصر أو مقاييسه، ففزع الثانية من كوارث الطائرت، كان يقابله رعدة الست أم يوسف من ركوب أولادها الترام! والسبب أن الاندفاع فى اللهفة والخوف تسقط عادة كل تطور وتبقى النفس وجهاً لوجه مع بدائية الحياة البشرية. وإذا أجهد السباعى ذاكرته فى تلمس الماضى البعيد، فإنه يذكر أن ابنة العم العزيز كانت قبل الزواج تقف فى صفه ضد الممنوعات التى تتوهمها الأم تترصد خطوات ابنها، وتحاول أن تخفف من غلواء حنان الوالدة التى تظن أن الأخطار تتخطف ولدها مع كل منعطف طريق أو حارة! كانت الآنسة دولت أيامها تفعل ذلك، ولعلها بينها وبين نفسها تسخر من أوهام حماة المستقبل التى تنتمى إلى جيل آخر طيب و"على نياته"، أو فى أحسن الأحوال تبرر هذا الاندفاع بأنه المغالاة التى يدفع إليها عدم الالتحاق بالمدارس!

ولعل عاشقنا الشاب وهو يتزوج التفت إلى أن الزواج، سينقذه ضمناً من التعرض المباشر لضغوط الست الوالدة التى تخاف عليه من "إلهوا الطاير". وتمر عدة أيام ويفاجأ أنه كان واهماً فى هذا الجانب بالذات، وتمر أيام أخرى ويصدم حقيقة .. اكتشف أن "ما أسوأ من سيدى إلا ستى" .. وأن الست أم يوسف ربما كانت أرحم من الزوجة المصونة والجوهرة المكنونة، وحجتها كما يقولون معها،

ولكن ابنة العم هذه ما خطبها وهى تخشى عليه -فى البداية- من .. المشى! أى والله من السير على القدمين، لأنها كانت تتوهم -يقول السباعى- أننى سأدهس من أول عربة تقابلنى .. وكانت تحذرنى فى كل خروج لى من عبور الطريق! ثم دخلت المسألة فى أطوار جديدة، فلم تتجمد عند هذه الحالة الأولى، ويتابع السباعى حديثه: فلما فتح الله على .. وركبت عربة .. بدأت تتبع حوادث العربات، فلا تكاد تسمع عن انقلاب عربة فى الطريق الصحراوى حتى تتوسل إلى ألا أسافر إلا بالقطار. فلا أكاد أسافر بالقطار حتى تسمع عن خروج قطار عن القضبان، فترجو منى أن أكف عن السفر بالقطار. وهكذا استمرت الحلقات به .. وانتهت إلى الطائرة. ولقد ظن يوسف أن الطائرة مادامت هى آخر مستحدثات الدمار لاغتيال البشر، ولم يخترع غيرها فى هذا المجال .. فقد اطمأن باله ولن يفاجأ بجديد فى هذا الميدان. ولكن خاب ظنه بشكل أخرجه عن طوره وهو الهادئ أكثر من اللازم عادة .. كان قد عاد من رحلة طويلة إلى روسيا، بقى فيها طائراً أكثر من عشرين ساعة، منها بضع ساعات فى طائرة نفاثة تندفع بسرعة ألف كيلومتر فى الساعة على ارتفاع عشرة آلاف متر. وفى اليوم الثانى وقف فى الشرفة يطل على الطريق .. وفجأة -لندع السباعى نفسه يقص الرواية- "رأيتها تندفع إلىّ ممسكة بطرف ثيابى منذرة إياى بأن أكف عن "الطل" من الشرفة وإلا سقطت .. وانبعث إنذارها بالتحذير التقليدى الذى نسوقه لأطفالنا

عندما يطلون من الشرفات:

- ألا تعرف أن رأسك أثقل من جسمك.

ولم أملك إلا الضحك .. وأنا أتصور نفسى فى الصحف منعياً بهذه الطريقة غير المشرفة .. "كان رحمة الله يطل من الشرفة .. دون أن يدرى أن رأسه أثقل من جسمه، فاختل توازنه وهوى". ولم أملك إلاّ أن أعود وأتخذ مقعدى على الأريكة قائلاً لها فى هدوء:

- لابد أن نستقر على طريقة موتى .. إذا كنت سأموت مقلوباً من الشرفة، فلماذا لا تتركينى أتمتع بركوب الطائرات! وإذا كنت سأموت فى الطائرة .. فلما لا تتركينى أتمتع بالطل من الشرفات والعدو فى الطرقات، والسير بجوار الأرصفة تحت العمارات!"

وإذا كانت الزوجة بهذا التكوين، فماذا يفعل الزوج، حاول كثيراً أن يهدئ من روعها، وأن يقنعها بأن استخدام الطائرة أصبح منذ وقت طويل أسهل وأضمن من استعمال السيارات. وأن عدد ضحايا حوادث الطرق أضعاف قتلى مركبات السماء -دعك قبل هذا وذاك من حكاية العمر واحد .. فسيرة الموت بأى شكل من أشكاله، المباشرة وغير المباشرة، تنسف موضوع الإقناع أصلاً- .. وأنه من ناحية أخرى لو حاول أن يستعين بوسيلة أخرى للمواصلات عبر القارات مثل الباخرة، لأضاع عمره كله فى رحلات الذهاب والعودة .. بجانب أنها أيضاً لن تسلم من الخطر.

ولكن لا فائدة .. ماذا يفعل إذن .. وهو بين نارين .. نار الإعداد المطمئن للسفر، ونار فزع امرأته؟ ولم يجد بداً عندما أدرك فشله، من أن يحاور ويناور. بل ويلتمس الخداع وأمره إلى صاحب الأمر. فى البداية لم يخبرها بعزمه على السفر، وهكذا فى إحدى المرات عندما وجدته يركب سيارته فى الصباح، لم يخالجها أى شك فى أنه فى طريقه إلى شارع حسن صبرى بالزمالك، حيث المجلس الأعلى للفنون والآداب، وبعد ساعتين يتصل بها .. من دمشق .. وتكاد تصعق. ولكن لا وقت للوم أو العتاب!

وتنكشف "اللعبة" سريعاً، وتتحول إلى تنغيص أكثر منها تسرية .. فكل خروج من باب البيت أصبح اتهاماً بالذهاب إلى المطار مباشرة والسفر إلى بلاد برة وليس إلى أعماله فى القاهرة، فعمد إلى إنقاذ نفسه وإنقاذ زوجته من مخاوفها غير الحقيقية، فبدأ يخبرها بأسفاره ولكن قبلها بمدة .. فى محاولة إلى اختصار إزعاج السفر لها وإزعاجها هى له. يلجأ إذن إلى تأجيل إعلامها برحلاته إلى آخر يوم ممكن. ولكن المحاولة لم تستمر طويلاً، لسبب بسيط هو أن الصحافة دأبت على نشر أخبار سفره، فأفسدت عليه خطته.

ولا ييئس .. فهو يعرف جيداً أن إقناع أو تهدئة "مخضوضة هانم" -السباعى نفسه هو الذى أطلق هذا الوصف على زوجه!- ليس بالأمر السهل أو اليسير، وأخذ يزيف فى أرقام المسافات بين البلدان .. فالذهاب إلى البرازيل لا يزيد على بنها أبداً، أو قولى لحد إسكندرية يا

شيخة! ويذكر السباعى أنه فى إحدى المرات وكان طائراً إلى فيينا والصين .. اضطر أن يقول لها إنه "ذاهب فقط إلى غينيا، وأفهمها أن غينيا .. على بعد فركة كعب .. أو على حد قول أهل الريف، على بعد "نص بريزة" من القاهرة".

والأسلوب الواحد لا يمكن استخدامه كثيراً فى مثل هذا المجال، لأنه يفقد رونقه أى الضحك به على الذقون سريعاً. ولذلك فإن صاحبنا يجدد فى ابتكاراته .. ولما عرف أنها طول عمرها تكره الجغرافيا، استغل هذا الضعف أكثر مما فعل، وحمد لمقررات المدارس المصرية أنها استطاعت أن تبغضها إلى شىء يمكن الاستفادة منه. وهكذا أخذ يخلط بين عواصم العالم ما شاء له الخداع أن يفعل .. وأصبح يسافر إلى روما -كما يقول لها- عن طريق دلهى .. "ودى فيها إيه .. ما أنا رايح طوكيو عن طريق مدريد"!!

وإذا كانت كراهية الجغرافيا، أبعدت الزوجة عن التأكد مما يلقى لها .. فإن شيئاً آخر لم يكن فى الحسبان طرأ وجعلها تهتم بالسياسة وتتابع الأحداث السياسية غير المحلية فى العالم كله، وكأنه واجب مقدس. والسبب هو الاكتشاف الذى وقعت عليه من تلازم مخاطر السفر والانقلابات أو الثورات الطارئة. ولعل السيدة دولت هى فعلاً أول "مكتشف" لهذه العلاقة أو المعادلة .. فوقوع انقلاب أو قيام ثورة فى أحد البلدان، معناه إقفال الحدود وإغلاق المطارات. وربما أيضاً القبض على رعايا الدول الأخرى التى لا تعترف بهذه الثورات أو الانقلابات. ومن

الطريف فى فترة معينة أن الحوادث أيدت اكتشافها، كما وقع عندما قام الانقلاب على الوحدة بين مصر وسوريا، وكان يوسف السباعى سكرتير عام المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية، قبلها فى دمشق يشرف على مؤتمر الأدباء ومهرجان الشعر .. وتمكن هو والوفد المرافق بصعوبة من العودة إلى القاهرة، بعد أيام ملؤها القلق والتوتر .. داخل الحدود المغلقة.

ومن الطريف أن المفاهيم التقليدية السائدة فى بعض النواحى، قد غذت قلق الزوجة بالمزيد من التوتر والخوف حول أسفار يوسف. وجاءت هذه المرة من حيث لا يحتسب، طلب ابنها إسماعيل من أبيه المسافر بعد أيام قليلة إلى إفريقيا .. فى مؤتمر كوناكرى، الذهاب إلى السينما، وصحب السباعى الأسرة كلها إلى إحدى دور السينما التى تقدم فيلماً عن طرزان، كطلب الابن الصبى الصغير فى ذلك الحين. ولم يعترض الأب من ناحية إرضاء إسماعيل، ومن ناحية أخرى هى استعادة ذكريات قديمة حيث كان مثل هذا الفيلم يشكل له فى صباه أيضاً نفس الإثارة الكبيرة. ولكن النضج والثقافة والقيام بمسئولية السكرتير العام لمؤتمر التضامن الأسيوى الإفريقى، أسقطت بعد ثوان، زيف الإعجاب القديم الذى يساهم فى تشويه صورة المواطن الإفريقى .. الذى حوله إلى غول بشرى يعتدى على الرجل الأبيض المسكين صانع الحضارة فى القارة السوداء ومع ذلك فهو يتعرض للقتل أو الأكل حياً ..

مشوياً أو مسلوقاً. وبينما كان السباعى يغلى غضباً، كانت زوجه ترتعد فزعاً، وهى تفكر كيف تدفع عن نفسها وبيتها وحياتها الكارثة المنتظرة، عندما يتعرض يوسف المسافر بعد أيام إلى هذه الأماكن .. إلى "بربرية" هؤلاء الناس .. وزادها فزعاً أن تذكرت، وكأنها تعرف ذلك لأول مرة .. لون زوجها .. بياضه وشقرته .. و .. جاءك الموت يا تارك الصلاة، واستحضار تفاصيل "الحادث" وظلاله ندعها لقلم يوسف السباعى وصاحبه يقص علينا تلك اللحظات: "لم يكن بالفيلم جديد .. الفتاة البيضاء، التى تقع فى أيدى السود، فيحاولون سلقها وافتراسها .. وطرزان الأبيض يقفز على فروع الشجر .. لينقذ قطعة البفتيك من بين أسنان السود. ونظرت زوجتى إلى آلاف السود .. مكشرين عن أنيابهم، وهم يدقون الطبول .. فى انتظار التهام الضحية البيضاء الطرية قبل أن يهجم عليهم طرزان .. هو وشيتا. نظرت إلى زوجتى فى هلع. حاولت أن أتجاهل أفكارها السوداء .. وتظاهرت بالانهماك فى النظر إلى الشاشة، ولكننى سمعتها تهمس:

- أنت ناوى تسافر فى حتت زى كده؟

ولم أجد المجال صالحاً للمناقشة .. والطبول تدق، وألسنة النيران تتعالى حول اللحم الأبيض، وقلت لها هامساً:

- طيب بس اتفرجى.

- أتفرج إزاى؟! قل لى أولاً .. أنت ناوى حقيقى تسافر

فى حتت زى كده؟

ونظرت إليها بزاوية عينى وهمست:

- إزاى بس؟

- الله .. أنت مش مسافر فى أواسط أفريقيا؟

- أيوه.

- يعنى فى حتت زى دى؟

- لا ..

- لا إزاى؟

- لأن ده كلام فارغ مالوش أصل، ده تشنيع وكذب!

ومع تناول وقع أسفار السباعى فى نطاق بيته وزوجه، فإنه يبقى جانب آخر وهو متابعة السباعى فى رحلته، نعنى داخل الطائرة، وما تثيره الطائرة من هواجس فى أعماقه. وقبل أن نفعل، نذكر شيئاً يتصل بالسفر، وهو كراهية يوسف لعملية التوديع ومظاهره .. ولذلك فما أقل من يذهب ليقول له: بالسلامة أو حمد لله بالسلامة.

إن السباعى ما يكاد يصعد الدرجات القليلة لسلم الطائرة ويجلس فوق مقعده، حتى ينسى أو يتناسى الدنيا وما عليها والأرض ومن فيها، والقضايا العامة والمشاكل الخاصة، ويفرغ لأعماقه .. لوحدته. وهذا ما يجعله يحس دائماً كما يقول براحة عجيبة كلما حلقت بى طائرة .. أو شقت بى عباب اليم باخرة. والغريب أن السفر بهذا الشكل، قد أضحى الوقت الوحيد المتاح لصاحبنا لكى يتخلص من

كل مسئولياته الوظيفية وغيرها. وتمر به الساعات وهو يا للغرابة بلا عمل أو أعمال! ولعل هذا ما يفسر، لا نقول إقبال السباعى على رحلاته فنحن نعرف اعتذاره عن الكثير منها، ولكن ارتياحه لها. وساعات السفر هذه تسمح له أيضاً بطريقة أكثر إشباعاً أن يستمتع بهوايته المحببة الأولى، التى يحاصرها ضغوط الأعمال العديدة التى يقوم بها، وهى هواية السرحان! ولعلّها أصبحت إزاء هذه المسئوليات الكبيرة التى يحملها، حاجة حتمية تخفف من همومه وتجدد من نشاطه. وهناك مكسب ثالث يحصل عليه السباعى من جلسته فى الطائرة بالذات وليس فى سيارة مثلاً، وهو أنه يتفرغ لهذه الجلسة مع نفسه فى معظم الأحيان -أو لنفسه عندما ينتهز فرصة الحصول على وقت لا يلتهمه العمل الوظيفى أو الفنى، ليقرأ ما يريد من الكتب- ولا يقتحم هذه الخلوة الغير. ويحافظ هو من ناحيته ما أمكن على هذه الوحدة منشغلاً بها فى حواره مع الذات، عن محضر الآخرين المزعج أو غير المزعج .. دون أن يضيع على نفسه كما يقول شيئاً من "درر" المتحدثين إليه أو يفقد مفيداً من كنوز أقوالهم!

وهناك عنصر متكرر فى أية رحلة من رحلاته، يأخذ نصيبه من تفكير السباعى، وهو .. الموت. وبالطبع فإن قارئ يوسف السباعى الذى طالع مئات الصفحات التى كتبها أديبنا عن الموت، يعرف جيداً مدى تغلغل هذا الجانب فى أدبه وفى نفس صاحبه .. ولا يدهش لهذه الإشارة بقدر ما

يعجب لإغفالها. ولكن ما هو منحى اتجاه تفكير السباعى فى تلك الساعات التى تبقيه داخل الطائرة بين الأرض والسماء، وما هو الجديد فيها على مسار تنفسه؟ إنه يحلو له مثلاً - كأنه الحلم اللذيذ- أن يتخيل كأنه طوق نجاة، أن الطائرة قد سقطت وتحطمت واحترقت وتناثرت شظايا .. "وأننا بتنا وإياها .. رمادا كبقايا سيجارة فى كوب من الماء"!

.. ".. ولم أنزعج مطلقاً وأنا لا أنزعج أبداً من فكرة الموت .. لأنى أحس دائماً أن الموت هو خير ما يمكن أن يصيب الشخص بنفسه، وأنه رقدة هنيئة ناعمة مريحة تخلصنا من كل متاعب الحياة ومنغصاتها. وتواترت على ذهنى متاعبى وأحزانى، وهى -كما قلت- على الأرض كثيرة، رغم ما يبدو من مرحى ونجاحى وسعادتى. وتملكنى إحساس بالراحة .. لحظة واحدة .. تحترق فيها الطائرة .. وبعدها الراحة التامة .. لا مجلس فنون، ولا مؤتمر أسيوى إفريقى، ولا يوميات ولا كتابة قصص .. ولا غيره .. ولا بغض ولا غدر ولا حسد، ولا ضغائن. ولا إنكار معروف ولا سخافات آدميين ولا غرورهم .. ولا .. ولا .. بل خروج عن كل سلطان للأذى والتعب .. والضيق والألم .. ورقى باللاشعور عن كل شعور". ("الجمهورية" - ١٦ مارس ١٩٥٦).

ومهما قيل عن هذا الحوار الداخلى من زاوية الواقع و"حمال الأسية"، فلاشك أن لمثل هذه الدعوة جانبا آخر أكثر عمقاً وأقرب إلى بلورة روح الفنان المتأمل الباحث عن

الحقيقة .. وهو ما يعترى هذا الفنان الأصيل نفسه من لهفة فى رنوه إلى جوهر الوجود، والذى يعكس رغبة الزائل فى الاندماج فى الباقى .. كما يقول السباعى فى موضع آخر.

وإذا كانت الحياة تستوعب فى كيانها المتناقضات جميعاً، وتعمل على أن تقيم نوعاً من عمليات التوازن، فإن هذا اللون من الخلاص، لا يستأثد بنفس صاحبه. ولذلك فإن مسافرنا لا يلبث أن يرجع عن هذا الحلم .. وإن لم يستطع يوسف إلا أن يستمر مفكراً فى عوالم تتصل أيضاً بالانفجار المتخيل! وهكذا فهو يتصور كيف يستقبل نبأ موته! ولما كان هذا التصور ينصب أولاً على ما يسوء والجديد الذى يطرأ عليه، فهو لا يلتفت إلى قرائه الذين أحبوه وأحاطوه بإعجابهم واهتمامهم .. بل يضع نصب عينيه التغيير الذى يقع على جانب غير الأصدقاء. ويذكر أولاً النقاد الذين طالما تجاهلوه وأوسعوه هجوماً أو كما يقول هو .. الذين كانوا يشتموننى بمناسبة وغير مناسبة! إنه يعرف أن الصورة ستختلف تماماً .. لسبب بسيط هو أن الدوافع الشخصية غير الموضوعية وتعصب الشللية أو العقائدية ضده، التى كانت تسيّر هذا الموقف العدائى .. تتهاوى بفضل الموت. ونتيجة لذلك تبدو الأشياء على حقيقتها وترد الحقوق لأصحابها، وكرد فعل عكسى .. فإن قسماتها تزيد إشراقاً وإغراقاً فى الناحية الطيبة .. نفس المبالغة التى كانتها فى حالة العداء والحقد والحسد. ومع النقاد تنتهز الصحافة كارثة سقوط الطائرة لتجعلها "فرخة بكشك" .. "جنازة

تشيع فيها لطما" .. تزيح به السأم عن صفحاتها الرتيبة وتثاؤب القراء .. بهذه المادة المثيرة التى تتناول نهاية اسم مشهور! ويتفنن الصحفيون فى متابعة كل صغيرة وكبيرة ومهم وتافه، لتغطية الموضوع وزيادة، خاصة إذا لعبت المصادفة دورها والتقى الصحفى بصاحبنا قبل أن تقلع الطائرة مما يتيح له أن يكتب عن آخر ما قال يوسف السباعى!

وهكذا يشيع إلى آخرته بأحسن مظاهرة!

هذا فى ناحية تصحيح الأوضاع .. ولكن هذا الجانب وحده لا يمكنه بالطبع أن يستوعب كل ملامح الصورة. فهناك أيضاً الأهم ألصق الناس به .. أسرته الصغيرة نفسها. كيف تستقبل النبأ، وكيف يقع عليها الخطب؟ وعندما خرج التساؤل من أعماقه ولم تنبس به شفته نفسها، أحس بغصة وشيئاً يقبض صدره، أدرك فجيعة أهله بفقده وولده وابنته .. مكتشفاً أن طلب الموت يمكن أن يعد فى بعض الأحيان نوعاً من الأنانية، التى لا تحمل إلا نفع صاحبها وحده .. حتى أهله الأقربين يكونون خارج هذا النبع! ويحس يوسف لأول مرة أن سقوط الطائرة يحمل له أيضاً خسارة وليس مكسباً كما ظن. ويخاف من هذا السقوط لأعزائه لا لنفسه وهو يدرك بوضوح قاس .. "أن قيمة حياتنا كائنة فى نفوس الآخرين .. فى نفوس أولئك الذين يحتاجون إلينا .. وينتظروننا دائماً، المحبة وحدها هى التى تشدنا بهذه الأرض، ولولاها .. ما كانت لحياتنا قيمة ..".

(٤٥)

والمبادئ السامية التى عرف بها يوسف السباعى طوال حياته محددة مواقفه الكثيرة التى يدهش لها أصحابه والغرباء معاً، لأنها لا تستقيم مع ما تفرض الحياة اليومية خاصة فى هذه الأيام من تبادل المنافع وتقديم الصالح الخاص على الصالح العام، والأنانية والحقد والتعالى ومركب النقص .. كما لا تتفق إلا نادراً احتشادها كلها فى إهاب شخصية واحدة، تجعل تفسيرها بسمو الفن الحقيقى والفنان الأصيل .. شيئاً غير كاف. والسبب أن هذه الشمائل الرفيعة زائدة عن الحد .. حتى بالمقارنة بين السباعى وبين القلة النظيفة، مما يدفع والرجل قد ذهب إلى لقاء ربه، الذى لم يكن يخشاه لأنه يحبه قبل كل شىء، ولم يعد بحاجة إلى كلمات الأحياء ولا نفاق "المرتزقة" .. إلى البحث عن جوانب أخرى فى تكوين يوسف السباعى، ربما لم تسلط عليها الأضواء بعد أو لم تعط حجمها الطبيعى .. يمكن لها أن تحيط بظاهرة الشفافية التى كان لها دورها الكبير فى حياة السباعى العامة والخاصة. والتى يرجع إليها غالباً تأثير صاحبها على الآخرين، وقدرته على النفاذ إلى بواطن الأشياء -بجانب بابه أو قلبه المفتوح الذى ذكرنا ..

ولاشك أن الدين وقيمه الروحية شكلت منذ البداية هذه السمات لدى يوسف السباعى .. ونذكر له هنا أيضاً إيمانه بالوعى الإنسانى وبعده عن المكيفات والمخدرات والخمر، حتى القهوة أو الشاى لم تصبح عادة عنده -كان يكره رائحة الدخان فلم تعرف السيجارة أو السيجار طريقاً إلى شفيته.

وفى هذا الإطار كذلك نجد هناك باعثاً شارك فى طفولته الأولى وهو يتصل بأصل عائلته نفسها، ولا يكاد أحد يعرفه أو يلم به ..

لقد وفد الجد الأول لهذه العائلة من الجزيرة العربية على مصر .. وكان أول مقامه فى قرية بنى على بمحافظة أسيوط، ثم نزح ببعض قومه فى تاريخ لاحق إلى القاهرة، وهى عائلة تنتمى إلى "الأشراف" .. فهى من نسل النبى. ولذلك كان أفرادها يضعون على رؤوسهم عمامة خضراء دليل هذا الشرف. وكان أفرادها إلى وقت قريب يحتفظون بـ"شجرة نسب" تصلهم بالرسول الكريم محمد صلوات الله عليه وسلامه، وكانوا حريصين جداً على حفظ هذا النسب تباركاً وتفاخراً. وكانت وزارة الأوقاف المصرية كعهدها فى أوائل هذا القرن مع الأشراف الذين ينتمون إلى أهل البيت، تحدد لهم مكافأة سنوية. لا يعنى هذا أن العائلة كان متفرغة لهذا الجاه الشرفى وتجرى عليهم الرواتب، فلم تكن هذه المكافآت المالية البسيطة إلا لوناً من التقدير لأحفاد آل البيت. كانت أسرة السباعى تشتغل بالعلم والتجارة .. وفرع منها انقطع إلى الولاية ويأخذ المريدون على أصحاب

هذا الفرع .. العهد متبركين بهم. ولم يكن ولدا محمد السباعى -الجد لا الأب- وهما محمد وطه أول المتعلمين فى العائلة، فقد سبقهما غيرهما وفى الأجيال السابقة أيضاً .. نذكر منهم سليمان السباعى الذى كان محرراً فى الوقائع المصرية، وهو أصلاً من موظفى المطبعة الأميرية التى تصدر الجريدة الرسمية، فى الفترة التى سبقت كتابة الشيخ محمد عبده فى شبابه بها. وسواء كان الفرع من عائلة السباعى متفرغاً للعلم والتجارة أو العلم والولاية، فهما ينتميان إلى جد واحد لا يزال يتبرك به الناس حتى اليوم، وهو الشيخ صالح السباعى المدفون فى مسجد الدرديرى بالسيدة زينب بالقاهرة! ولاشك أن هذا المناخ الروحى أو الصوفى أو الدينى، خاصة فى الفترة القريبة من طفولة يوسف السباعى، لم يكن بالشىء الهين فى محيط أسرته الذى يمكن أن يمضى من غير أن يترك أثراً فى الأعماق ..

بقى أن نذكر عن شفافية يوسف السباعى حادثين .. الأول غير معروف للكثيرين أخبرنى به، وهو يؤكد لى ما يعرض للإنسان فى بعض اللحظات من روحانية سماوية تكاد تستشرف من الأشياء ما لا يدخل فى عمل الحواس الخمس. وقع ذلك عندما كان فى لندن يصحب ابنه إسماعيل المريض لإجراء العملية الجراحية فى ساقه، وجاءه تليفون من القاهرة .. وما كان أكثر المكالمات التليفونية التى تجيئه من مصر، ولكنه أحس هذه المرة بشعور غريب مأساوى يجتاحه اجتياحاً ولا يستطيع

مقاومته لأنه يملك عليه نفسه تماماً، ويجعل أعماقه تضج بالبكاء وهو العصى الدمع كما نعرفه، فتدمع العين موقناً أنه سيسمع خبر وفاة أمه الحبيبة التى تركها بخير قبل سفره .. ويتحقق تماماً الظن غير المفهوم، عندما يرفع السماعة ..

والحادث الثانى طيرته وكالات الأنباء ضمن حادث استشهاده، وبهية كرم عضو مؤتمر التضامن الأسيوى الإفريقى التى شاركت فى أعمال المؤتمر فى قبرص وهى قريبة الصلة به، وهى تقص كيف كان السباعى هذه المرة فى قبرص على غير العادة فى أسفاره جميعاً إلى الخارج والتى وصلت كثيراً إلى أن تكون أسبوعية .. حزيناً بلا سبب لا تكاد ابتسامته المشهورة تشرق على شفتيه .. "مخضوضاً" من مجهول لا يلبث أن عرفه العالم كله ورصاصات غادرة أثيمة تصوب إلى صدره ورأسه ..

كلمات ليوسف السباعى

• إن الإنسان عندما يجد نفسه وقد اكتنفته السعادة وسار به زورق الحياة هادئاً مسترسلاً .. لا يحاول أن يسأل نفسه عن بغيته أو مقصده .. إنه يكتفى بأنه يسير قرير العين ناعم البال، ويكتفى بأن يغمض عينيه فى راحة واستسلام، ويترك الأمور -كما يقولون- تجرى فى أعنتها دون أن يجهد نفسه بالتفكير فى غرضه أو نهايته .. إنه لا يحاول أن يسبق الحاضر حتى لا يفقد بهجته .. بل هو دائماً يعيش للحظته .. "لا يضيق هماً بأمس وغد"، ولا يحاول أن يشغل نفسه عما هو فيه من هناء ومتعة.

• ماذا يملك الإنسان المسكين .. وهو لا يتعلم تجارب الحياة إلا بعد أن تكون قد أفلتت منه فرصة الحياة.

• عندما تعطينا الحياة زهورها يجب أن نكتفى منها بعبيرها والنظر إليها، ونتركها تبتعد دون أن نحاول قطفها، فيبقى عطرها وسحرها فى رؤوسنا مدى الحياة .. لأن قطفها إن لم يدم أيدينا فسيرينا هذه الزهور ذابلة بعد برهة قصيرة .. ويرينا أوراقها تتساقط فى الثرى وتختلط بأديم الأرض ولا نعود نبصر فيها بعد ذلك سحراً ولا روعة، أجل

.. عندما نبصر أجمل ما فى الحياة فإن خير ما نفعله هو أن نقتنع بالذكرى.

• ليس أعجب فى هذه الحياة من ذلك التناقض الذى تظهر به الأشياء إذا ما اختلفت وجهات النظر إليها .. فلو أننا اخترنا إحدى الحقائق الثابتة أو إحدى الحوادث العابرة التى تمر بنا .. وحاولنا أن نقارن بين المظهر الذى تبدو به لبضعة أشخاص متباينين .. لا صلة بينهم ولا شبه .. ولو حاولنا أن نزن وقعها فى نفوسهم لراعنا ذلك التناقض العجيب الذى يظهر به الشىء الواحد، ولعلمنا أنه ما من شىء فى هذه الحياة له قيمة فى حد ذاته، وإنما قيمة هذه الأشياء كائنة فى قلوبنا وفى الطريقة التى تعكسها بها مرآة نفوسنا.

• أنا أحترم الرجل الذكى .. وأعتقد أن خير ما يهبه الله لإنسان هو الذكاء، ويكفى أن يكون الإنسان ذكياً ليكون كل شىء .. فالذكاء يبعث الإنسان على أن يكون إنساناً فاضلاً. والذكى لا يرتكب الإثم ولا يلقى بنفسه فى حياة الرذيلة. والذكى لا يحرم نفسه متع الحياة، ولا يقبل عليها بنهم يحمله على الندم. أجل .. الذكى، لا يفعل أبداً ما يدعو إلى الاعتذار، أو الاستغفار.

• ما أقدر الذهن على خلق المتع واللذات .. كانت متعنا وقتذاك قد خلت من كل شىء، عدا مرئيات الذهن وأوهامه، وأمانيه وأحلامه .. كنا بارعين فى تجسيدها .. وكنا لا نمل

قط الحديث فيها مهما طال الحديث.

• فى حياة كل إنسان لحظات مضيئة براقة .. يلمع ضوءها فى نفسه فتريه الحياة مشرقة وضاءة، ويرى كل ما حوله يزهو فى سناء عجيب لا يدرى كنهه ولا منبعه .. ويخيل إليه أنه ما من كائن فى الكون إلا وقد مسه ذلك السحر الذى مسه .. فإذا بالدنيا كلها قد سخرت لمتعته كأن كل ما فى الطبيعة لم يخلق إلا لكى يبعث فى نفسه النشوة ويملأها بالنعيم.

وقد تذهب تلك اللحظات فيخبو ضوءها .. وينطفئ بريقها .. ويأخذ الإنسان فى التعثر فى ظلمات الحياة المدلهمة وينظر للكون فإذا به قد فارقته فتنته .. وبدا كالشجرة الذاوية قد تساقطت أوراقها الخضراء اليانعة بعد أن جفت وذهبت نضرتها، ويظل الإنسان يتخبط فى حلكة الطريق. ثم ينهكه السير فيقف برهة يتلفت حوله، فإذا باللحظات البراقة التى ومضت فى حياته قد بدا منها بصيص ضئيل وبقية من رمق .. عندئذ تطوف برأسه الذكرى فتنعشه وتمثله، وتنفخ فيه من ضوئها الباهت قوة وأملاً، فيعاود السير .. وهو يتلفت خلفه بين لحظة وأخرى، ليتزود منها بغذائه كما تجتر الإبل غذاءها المختزن، كلما شعرت بالحاجة إليه فى الصحراء الجدباء المقفرة عله يقيم أودها ويمكنها من السير حتى النهاية، فلا تسقط إعياء فى منتصف الطريق.

- آه لو نعطى فى الحياة فرصة أخرى.

- ما أظننا نكون خيراً مما كنا.

- هواء .. إن شر ما فى الحياة هو أننا نعيش مرة واحدة، نحن نندفع فيها بمشاعر خاطئة .. ونجرى وراء سراب خلب فلا نكاد نستبين أمرنا حتى تكون الفرصة قد ولت .. ولا نملك إلا السير فى الطريق مهما أدمتنا أشواكه وأحرقنا سعيره.

- ولم لم تسلكى الطريق المعبد من أول الأمر؟ ما الذى دفعك إلى الطريق الشائك؟

- ومن أنبأنى أنه شائك؟ إننا لا نعلم إلا بعد أن نهوى، وإذا ما هوينا تعذر الصعود علينا .. إننا لا نتعظ إلا بعد أن نكون قد دفعنا ثمن العظة حياتنا .. ونحن لا نملك إلا حياة واحدة. فبماذا نفعل بالعظة إذا ما ولت الحياة؟ ماذا نفعل بها بعد أن أدبر العمر؟ .. آه لو يبدأ العمر ثانية ..

- ليس هناك أبغض إلى الإنسان من رؤية الحقيقة .. وليس أحب إليه من التعلل بالباطل، والتعلق بالترهات لأنه هو نفسه خدعة باطلة لا يكشفها إلا الموت.

• هل تعرف المثل القائل -اتق شر من أحسنت إليه- إنه مثل صحيح مائة فى المائة .. فإن الناس قد انطووا على الخبث والسفالة والدناءة. فليس أسهل على البشر من نسيان الإحسان .. وإنكار الفضل .. واعتباره بمضى المدة

حقاً لهم وواجباً عليك نحوهم لابد لك من تأديته. فإذا أرغمتك الظروف على منعه عنهم ملأ نفوسهم السخط عليك والتبرم منك .. واتهموك بأنك ظالم قاس.

هذه هى مصيبة المروءة .. بذرة طيبة فى أرض جدباء .. تبذر الثمر لتحصد الشوك .. وتطعم الفم فيعضك الفم ويمتص منك دماءك التى يستكثرها عليك ويستخسرها فيك.

إن هؤلاء البشر كلاب مسعورة وأفاع رقطاء .. فإذا دفعتك مروءتك إلى أن تعطيهم إحساناً فاقذف به إليهم ثم اجر من أمامهم .. أعطهم الفضل وفر منهم .. لا تنتظر حتى مجرد الشكر .. انج بنفسك .. واذكر المثل اتق شر من أحسنت إليه.

• هوا فيه حاجة محيرة البنى آدم غير جهله باللى بعد الحياة .. البنى آدم اللى طار فى السما .. البنى آدم التى غاص فى البحر، البنى آدم اللى اتكلم فى لندن سمعوه فى القاهرة .. واللى اتحرك فى أمريكا شافوه فى طوكيو .. البنى آدم اللى نطق الجماد وحرك الحجر .. البنى آدم اللى ما عجزش عن شىء أبداً .. البنى آدم اللى فهم كل حاجة وكشف كل سر .. عجز عن أبسط الأشياء وأقربها له، عجز عن فهم نفسه. جى منين، ورايح فين! أصله إيه؟ وفصله إيه؟ بيتولد ليه؟ وبيموت ليه؟ البنى آدم عرف كل حاجة فى الدنيا إلا نفسه.

• عجيبة هذه الدنيا .. وسط خضمها المتلاطم .. وبين أمواجها الثائرة ووسط القلق والضيق والكرب والعذاب والسخافات والتفاهات والضلالة والسفالة والتضارب والتناحر واليأس والقنوط .. وسط كل هذه الزوابع والأعاصير لا يعدم الإنسان مسة سحر تهديه وتقره ..

• كيف يعيش العالم بلا جحا؟ العالم البائس الشقى .. المتعب المكدود .. المبهور الأنفاس .. السائل الدموع .. المراق الدماء .. المحطم الأوصال، المصدوع الرأس .. كيف يمكن أن يحتمل العيش بلا جحا؟

من يضيء البسمة البيضاء فى سواد الأحزان وحالك الشر؟ .. من يريح النفس المبهور والجسد المنهوك؟ .. من يجفف الدمع ويحقن الدماء؟ .. من يجبر الأوصال .. ويشفى الرؤوس؟ .. من أقدر عل هذا سوى .. نكتة حلوة .. تنسينا الهموم .. وتصفى أكدار الحياة؟

• ليس أسهل علينا من أن نندفع دائماً فنشيد بأخلاق الأجانب .. ومقدرة الأجانب .. وفضل الأجانب .. ونسلب أنفسنا من كل خلق .. ونحرمها من كل مقدرة وفضل .. فننسب النقائص لأنفسنا .. والفضائل لسوانا .. يدفعنا إلى ذلك مركب النقص الذى نحسه فى أنفسنا .. ولو بحثنا عن الواقع .. لوجدناهم شراً منا .. إن الإنسان هو الإنسان .. فى كل أمة .. وفى كل جيل.

• إن أقصى مظهر النجاح لجهادنا، وكفاحنا .. هو

البسمة التى تعلو شفاهنا، والضحكة التى تخرج خالصة من صدورنا، والأغنية المرحة .. ترددها حناجرنا.

والشعب .. الذى ينتهى كفاحه، وجهاده، وعمله الشاق المضنى .. إلى الصمت، والحزن، والكآبة .. لا يمكن أن يكون قد نجح فى كفاحه، وفى عمله .. بل ولا يمكن أن يجد فى نفسه من الحماسة ما يدفعه إلى الحرص .. على كيانه، ومجتمعه، ووطنه.

• إن لكل سن مميزاتها .. ومميزات الشباب جماله وقوته ومميزات الكهولة وقارها وهيبتها.

• التسول هو الشىء الوحيد الذى يقوم فى مصر على أساس متين لا ارتجال فيه .. وإنه من أنجح المشروعات المصرية كافة.

• قد تتساوى الشجاعة فى هذا الزمن مع الجنون.

• لابد للإنسان من إنسان آخر يتحدث معه ويفضى إليه بهمومه .. ليس هناك أقتل للمرء من ذلك الانطواء وتلك الوحدة.

• يجب يا سيدى أن تغلق السجون وتفتح بدلها ملاجئ لذوى النفوس الشريرة، فنعطف عليهم ونرثى لهم .. أليس من الغباوة أن نعطف على مرضى الأجسام ونعذب مرض النفوس .. إنهم مرضى يا سيدى .. إنهم ذوو عاهات مستديمة.

○ لم يكن هناك أحب إلى الفتى من "الفرجة" على الناس .. فقد كانوا فى نظره من أمتع وسائل التسلية .. وكان يشعر فى مشاهدتهم شعور الواقف خارج أحد أقفاص القرود فى حديقة الحيوان.

○ نحن فى بلد يتغذى الناس فيه بالطعام وبسيرة الناس، فهى تكوّن عنصراً هاماً فى وجودهم، ففى هتك الستور ونبش الفضائح حياة لهم ومتعة.

○ دائماً أوازن فى حياتى بين المتع، وأختار المتعة الأبقى والأفضل .. وفى هذه الحالة اخترت المتعة المستمدة من إسعاد شخص قد حرم إلا من السعادة التى أستطيع أن أهبه إياها .. وهى متعة لو تعلم تفوق كل متعة.

○ إن أبر الناس بالناس .. وأرحمهم للناس .. من استطاع أن يمنحهم ضحكة.

○ إنى ما سخرت من شىء فى هذه الحياة قط .. فقد نجد نحن أنفسنا فى نفس الموضع الذى سخرنا منه، فليس علينا إلا أن ندعو الله ألا يدخلنا تجربة.

○ لابد لكل امرئ من مكان يخفى فيه بعض أسراره .. أو ما يتخيل أنها أسراره.

○ أنا لا أحترم -بعد الرجل الذكى- إلا الرجل المرح .. الخفيف الروح، ولا أظن أن هناك فارقاً بين الرجل الذكى والرجل المرح. فالذكى لابد أن يكون مرحاً، والمرح لابد

أن يكـون ذكيـاً. وليـس أدل علـى الغبـاء مـن الـتزمت وتصنـع الوقـار وادعـاء الهيبـة.

• إن خـير مـا يمكـن عملـه لـهؤلاء -الأثريـاء البخـلاء- هـو أن نسـحب نقودهـم مـن خزائنـها ونصـرف عليـهم حتـى يتنعمـوا بالحيـاة .. ويزكـوا عـن أنفسـهم دون أن يعلمـوا أن هـذه هـى نقودهـم، بـل يسـتمر إيهامـهم أن نقودهـم مـازالت مخزونـة، حتـى تظـل نفوسـهم قريـرة راضيـة .. فالمسـألة لا تزيـد عـن مجـرد وهـم وليسـت متعتـهم بـالنقود المخزونـة سـوى متعـة وهميـة.

• ليـس هنـاك أسـرع مـن سـريان الإشـاعات والأخبـار فـى هـذا البلـد. لا ضـرورة لنشـر الخـبر فـى الصحافـة لكـى تعلمـه الجمـاهير. يكفـى أن نطلقـه فـى الجـو لتتناقلـه الألسـن .. أؤكـد لـك أن وقـف الصحافـة لـن يكـون لـه أى أثـر فـى هـذا البلـد المـثرثر .. الـذى ينتقـل فيـه الخـبر بسـرعة مائـة كيلـو فـى الثانيـة.

• خـير للإنسـان أن يصـاب بعاهـة فـى الجسـد بـدلاً مـن أن يصـاب بعاهـة فـى النفـس أو فـى الخلـق، فعاهـة الجسـد تبعـث النـاس علـى الرثـاء لصاحبـها والعطـف عليـه. أمـا عاهـة النفـس أو نقـص الخلـق فـلا يصيـب صاحبـهما غـير الازدراء والاحتقـار والبغـض والنفـور، مـع أن كليـهما لا ذنـب لـه فيمـا أصـاب جسـمه أو نفسـه مـن نقـص وتشـويه.

• السـتر هـو الـذى يظـهرنا أمـام الآخريـن بمظـهر الأحيـاء .. فـى الوقـت الـذى لا نتمتـع فيـه إلا بالقلـة مـن مزايـا الأحيـاء.

○ ألا يكفى أن نحرم من الإفصاح حتى تود حرماننا من التفكير؟ دعنا نحلم .. ونحلم .. فليس أمام المحروم إلا أحلام اليقظة .. إنها هنيهات مضيئة أشبه بومض البرق .. فلماذا تريد أن نغمض أعيننا عنها؟

○ أخشى أن يخطف الومض بصرنا ويتركنا بعدها فى ظلمة مخيفة .. لا نستطيع أن نبصر حتى الأشباح التى كنا نعيش فيها.

● حقاً ما رزئ ابن آدم بشر من نفسه.

○ اللهم ارحم هذه النفوس .. من هذه النفوس.

○ لابد للإنسان من بعض الصدمات التى تعيده إلى نفسه وتجعله يفيق من غروره.

○ لست أشك فى أنه ليس هناك أقدر من الزمن على تخفيف وقع المآسى .. وعلى تضميد جروح النفوس وشفائها ببلسم النسيان.

○ إن الناس تعلم تماماً أنه ليس هناك أكذب فى هذا البلد .. من بيانات التكذيب.

● إن القوة فى القلوب وفى الإيمان وفى العزائم وليست فى العضلات أو الأذهان.

○ أما كان خيراً لو نعتوا الرجل الخاطئ بأب حرام، والمرأة الضالة بأم حرام .. بدلاً من يصبوا مقتهم على المسكين الذى لم يرتكب إثماً .. فيسخروا منه فى كل لحظة

ويقولوا إنه ابن حرام!

• يكفى هذا فضلاً منك .. أنك لست مغروراً فى عالم من الطواويس.

• ما من إنسان إلا وله زلته، وما من إنسان إلا ويمكن إعادته إلى الطريق السوى.

• خير لنا أن نحب ما نوهب من أن نبكى على ما ضاع.

• الحمد لله، على اللى أداه لنا ربنا، دا مدينا حاجات كثير ما حناش حاسين بيها، أصل الواحد ما بيحسش إلا بالحاجة اللى مش معاه، لكن الحاجة اللى معاه ما يعرفهاش أبداً، ما بيعرفهاش ولا يحس بها إلا لما تضيع منه، يقوم يعرف أنه كان معاه حاجة. إحنا دايماً نسخط عشان ربنا ما داناش، لكن ما بنحمدوش على إنه أدانا، مع إنه يا بنتى دايماً بيدينا.

• لم أتكلف سوى أن تركت نفسى على سجيتها. وليس أسهل على نفسى من الانطلاق على سجيتها عندما أكون بجوار شخص أحبه.

• أنا فقير .. إلا بالآمال والأحلام .. وكلاهما يزيد الآخر مرارة وحدة. الآمال تزيد الشعور بالحاجة .. والحاجة تلهب الآمال وتزيدها حدة وتكسوها مرارة.

• المشكلة أننا لا نملك أن نقيس الأشياء بمقاييس واحدة .. قد تكون مقاييسك أصدق .. ولكنها بالقطع

ليست مقاييسى .. إنى أرى الأمور بطريقة أخرى .. لا أستطيع أن أحكم عليها إلا بطريقتى.

• الواحد لما ما يطولش النعمة، يقول عليها زايلة. ويعزى نفسه بالدايمة اللى فى السما .. فيه حد يزهد فى النعيم بكيفه؟! ما يزهد فى الحلق إلا اللى بلا ودان .. والزهد فى النعمة كفر ..

• إن لكل إنسان أن يأمل كما يشاء .. فما كانت الآمال لتقف عند حدود العقل .. إن العجب ليس فى أن يأمل الإنسان آمالا غير معقولة، بل العجب فى أن تحقق له الأقدار هذه الآمال. وهل يصعب على القدر فعل الأعاجيب ..

• الحياة حلوة يا حاج معتوق .. إن المرارة فى أفواهنا. ومن كانت المرارة فى فيه فإنه "يجد مرا به الماء الزلالا" .. الحياة سهلة لمن لا يركب الصعب .. مستقيمة لمن لا يعرج ولا يلتوى .. هينة لمن يخلص لينة لمن يؤمن.

• الإنسان لا يستطيع أن يختار ما يريد .. ولكنه يستطيع على الأقل أن يرفض ما لا يريد.

• - لقد قلت لك إننى تعودت العيش فى الظلال ..

- أيتها الحالمة .. ألا تظنين أن ضوء الشمس قد يكون خيرا من الظلال؟

- إننا لم نفعل ما نستحق من أجله أن نعيش فى الضوء. وإنى لا أكاد أبصر هذه الظلال حتى أحس

فيها عزاء وسلوة.

• الضمير شيء لا يستيقظ إلا بعد أن تقع الواقعة وتتم الهزيمة .. فيبدأ وخزه وتأنيبه الذى لا جدوى فيه ولا فائدة منه.

• يا للسخافة .. لماذا تنحرف أذهاننا .. فى تفكيرنا .. مثل هذا الانحراف المزرى؟ لماذا تقيدنا أذهاننا .. إلى ذواتنا؟ .. لماذا تكرهنا على ألا نفكر إلا فى مصلحتنا؟ لأن تفكيرنا .. لا يطلع عليه الغير .. فنحن نتحرر فيه من كل مظاهر الخير المتكلف المفتعل؟ ..

• ماذا يفيدك ما اختزنته من النقود .. إذا كان أثرها لم يظهر عليك .. إن قيمة النقود ليست كائنة فى النقود بل فيما تفعله النقود.

• هكذا النصيحة دائماً .. ليست أكثر من كلام يسهل قوله ويصعب سماعه.

• ما من نعمة منَ الله بها على عبيده خير من نعمة النسيان .. وإنه ما من حزن أصاب الإنسان إلا وكان الزمن كفيلاً بمحوه .. كل شيء فى الحياة إلى الزوال مصيره .. حتى الأحزان، والأشجان.

• ليلة .. اقتطعها الله من ليالى الجنة .. وأسقطها لأهل الأرض فاندست فى لياليهم! ليلة ظلمها من سماها ليلة فهى ليست من الليل فى شيء .. ففى سحرها نور أبهر البصر من

نـور النـهار .. ليلـة .. لا ينـام فيـها إلا الحمقـى والمجـانين.

• كيـف يعيـش العـالم بـلا جحـا وبـلا نكتــة حلـوة؟ .. نكتــة تضيـف إلـى حـلاوة الحيـاة حـلاوة، وتسـلب العيـش المريـر مرارتـه .. تجمـل القبيـح .. وتضفـى علـى المليـح ملاحـة.

نكتـة تغـير المرئيـات فـى نفوسـنا .. وتلـون أمـام أعيننـا منظـار الحيـاة .. وتنسـينا البغضـاء، وتجعـل قلوبنـا أميـل إلـى الحب وأقـرب إلـى الصداقـة والوفـاء.

• أنـا أكـره أن أؤلـم حتـى الآثـم والمذنـب.

• لكـل روح نصفـها الآخـر، وتوءمـها الـذى خلـق معـها .. والـذى تظـل تلتمسـه طـول الحيـاة، حتـى إذا التقيـا انطبـق أحدهمـا علـى الآخـر، ولفـهما النعيـم الأبـدى والسـعادة الدائمـة.

• فيـم انطلاقـهم -النـاس- بمثـل هـذه السـرعة .. وعـلام هـذه العجلـة والاندفـاع؟ مـا ضرهـم لـو أتـأدوا وتمـهلوا .. وأراحـوا واسـتراحوا .. مـا ضرهـم لـو فعلـوا فـى يومـهم نصـف مـا يفعلـون .. وأخـذوا مـن فعلـهم نصـف مـا يـأخذون .. وخرجـوا من حياتـهم بنصـف مـا يخرجـون.

مـاذا تراهـم يفعلـون فـى يومـهم؟ .. شـراً وخـيراً .. وشـرهم أكـثر مـن خـيرهم .. مـاذا تراهـم يـأخذون مـن أفعالـهم؟ .. ألمـا ولـذة .. وآلامـهم أكـثر مـن لذاتـهم.

بمـاذا تراهـم يخرجـون مـن حياتـهم؟ .. بـلا شـىء .. ونصـف الـلا شـىء .. لا شـىء .. فعـلام إذاً اللهفـة .. ولـم التعجـل؟

• أيوه. الصبر طيب، وهو البنى آدم العاجز، قدامه إيه غير الصبر؟ أهو يعزى نفسه بأن الصبر طيب، وهو مجبور على الصبر، رضى وإلا مارضيش، صابر، صابر. لكن عشان يستحمل الصبر يقوم يقول إن الصبر جميل، هوه فيه يا بنتى أمر من الصبر ..

• أى تائه فى الحلكات يستطيع أن يغمض عينيه، عن بارقة تلوح، مهما كانت كاذبة؟

أى صاد، يمكنه أن يعرض عن سراب يلمع، مهما يكن كاذباً خداعاً؟

إن النفس الحزينة لتتوق إلى العزاء، حتى ولو كان نفاقاً فى نفاق.

• إن ربح العمر ساعات الضحك .. وأكثر الناس ربحاً من استطاع أن يضحك دائماً، فجعل كل عمره ربحاً.

• إن الإنسان لا يستطيع أن يطلق مشاعره كما يشاء .. لابد لنا من أن نكبح جماحها من آن لآخر .. يجب أن نعمل بعقولنا لا بقلوبنا.

• أحب ليالى الصيف، فما أهاج المشاعر مثلها، وما أرهف الأحاسيس سواها.

• ينص قانون نيوتن للحركة على أن كل جسم يبقى على حالته الراهنة من سكون أو حركة منتظمة فى خط مستقيم حتى تؤثر فيه قوة تغير حالته.

ويخيل إلى أن هذا القانون ينطبق إلى حد بعيد على النفوس كما ينطبق على الأجسام، فالنفس البشرية تظل على حالتها فى هذه الحياة .. حتى تؤثر فيها قوة دافعة .. خافضة كانت أم رافعة، فإما أن ترفعها إلى الذورة أو تهوى بها إلى الحضيض.

فلو شبهنا الحياة بمجرى مستقيم أملس السطح، وشبهنا البشر بكرات تنزلق على هذا المجرى بقوة الدفعة الأولى التى دفعتها إلى هذه الحياة .. لوجدنا الكرات البشرية ستظل سائرة فى مجراها الطبيعى أو ما نسميه روتين الحياة .. سالكة أسهل الطرق التى تعينها على مداومة السير، فتصلها فى النهاية بلا جهد ولا مشقة .. حتى يصادفها ما سبق أن أسميناه بالقوة الدافعة .. فيبعث فيها جهداً خارقاً .. وقدرة عجيبة .. تميزها عن غيرها من الكرات البشرية العادية التى لم تؤثر فيها قوى دافعة .. وترفعها إلى مستوى يحتاج الوصول إليه إلى جهد لا تهيئه إلا القوى الدافعة.

وقد تكون القوى الدافعة ذات تأثير مضاد .. فقد تعترض الكرات البشرية قوة تبطئ من سيرها أو توقفها أو تخفضها إلى أسفل بدلاً من رفعها إلى أعلى .. هذه القوة المثبطة أو الخافضة الهاوية .. لا تحتاج إلى كثير جهد لكى تفعل فعلها. فالكرات البشرية أميل إلى الانزلاق .. أو قل إن عملية الهبوط عملية سهلة بطبيعتها .. أسهل كثيراً من الصعود والارتفاع. فالكرات البشرية كغيرها من الأجساد يؤثر عليها جذب دائم إلى أسفل .. فليس أسهل عليها من

أن تهوى إلى الحضيض.

• لو عرفت أنى سأنتهى إلى هذا المصير، لسلكت إليه أهون السبل .. ولو عرفت أنه سواء علينا كنا مخلصين أم منافقين .. وسواء كنا من أصحاب المبادئ والمثل، أم كنا أوغاداً لئاماً .. وسواء كنا ذوى قلوب عامرة بالإيمان والحب، أم كنا ذوى قلوب جامدة قاسية، فإن مآلنا واحد ومصيرنا لا يتبدل .. لو كنت أعرف هذا للفظت المبادئ وحطمت المثل، ولسرت إلى مصيرى حتى بلغته .. جامدة القلب، عديمة الحس .. خائنة كاذبة منافقة .. كغيرى من الكاذبات الخائنات المنافقات.

• ما أظن هناك إنساناً شراً من ذلك الذى لا يحوى فى باطنه غير التذمر والتشكك .. ولو أنصف الناس لاعتبروا ذلك مرضاً خطيراً وعزلوا أصحابه عن بقية البشر حتى لا يفيضوا عليهم من سخطهم وشقائهم وتشككهم وتبرمهم.

• هذه النفوس .. ما أشد غموضها .. وأبعد غورها، وأكثر تعقيدها. إن النفس البشرية معضلة معقدة .. لا مقياس لها ولا ميزان، إنها إناء ينضح بالخير مرة وبالشر مرات.

ترى من أى طينة خلقت؟ ومن أية مادة ركبت؟

إنها خليط من المتناقضات لا يمكن تمييز مركباته، اللهم إلا مركب واحد .. يغلب عليها كلها .. يبرز فيها واضحاً جلياً .. وهو مركب: الأنانية.

إنى لأنظر إلى النفوس من حولى .. فأجدها نفوساً جميلة حنونا .. لا تبدو منها بادرة سوء ولا تنب عنها نابية شر .. مادامت لا تتعارض لها مصلحة، ولا تتشارك فى مغنم .. فإذا ما تعارضت المصالح .. جرت النفوس بالحقد والشر والعدوان.

إن النفس البشرية لا تحب الخير إلا إذا كان فى صالحها .. إنها تكره الظلم مادامت مظلومة، ولا تقبل الجور إذا ما وقع عليها .. فإذا ما أضحى الأمر بيدها .. استساغت الظلم وأحبت الجور.

إن شعار النفوس هو نفسى أولاً، أو نفسى فقط.

إن خير ما نعامل به النفوس، هو أن نفترض فيها السوء ونتوقع منها الشر والعدوان .. فإذا ما لقينا منها حسنة وصادفنا فيها خيراً اعتبرناه منها مكرمة ومنحة .. وإذا أصابنا منها سيئة .. لم نفزع ولم نفاجأ .. وقلنا: تلك هى طبيعتها، وذلك هو ما .. جبلت عليه ..

إذا أحسنا .. فيجب أن نتوقع رد الإحسان بالإساءة، وإذا أحببنا فيجب أن ننتظر البغض والقطيعة .. وإذا نجحنا أو أصابنا خير .. فيجب أن نتوقع الحسد حتى ممن لا يضيره نجاحنا ولا يوجعه ما نلنا من خير!

للمؤلف

		سنة
مواقـف واتـجاهـات		
المجلس الأعلى للفنون والآداب	ط١	١٩٦٩
دار سنابل	ط٢	١٩٩٤
مسـرح محمـد تيمـور		
المكتبة الثقافية - الهيئة العامة للكتاب	ط١	١٩٧٥
دار سنابل	ط٢	١٩٩٤
مسـرحيات فـى الوهـج والظـل		
كتاب الهلال - دار الهــــلال	ط١	١٩٧٦
دار سنابل	ط٢	١٩٩٤
فـى القصـة القصـيرة		
المجلس الأعلى للفنون والآداب		١٩٧٦
وجـوه قصصيـة قديمـة وجديـدة		
اقرأ - دار المعارف	ط١	١٩٧٨
دار ســـنابل	ط٢	٢٠٠١
يوسـف السـباعى بيـن الأيـام والليـالى		
الكتاب الذهبى - روز اليوسف	ط١	١٩٧٩
دار ســـنابل	ط٢	٢٠٠١
عـالم يوسـف السـباعى		
المجلس الأعلى للفنون والآداب	ط١	١٩٧٩
دار سنابل	ط٢	١٩٩٤

محمد السباعى الأديب الذى سبق عصره

المركز القومى للفنون والآداب

كتاب المواهب ط١ ١٩٨٢

دار سنابل ط٢ ١٩٩٨

أجيال ضد الماركسية

دار الأصالة للثقافة والنشر بالرياض ١٩٨٤

عاشق الحرية ولى الدين يكن

أعلام العرب - الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٧

دراسات نقدية

المكتبة الثقافية - الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٠

قلوب عاشقة دار سنابل ١٩٩٣

مجالات إسلامية دار سنابل ١٩٩٤

فنان زمان دار سنابل ١٩٩٥

الفنان والحب دار سنابل ١٩٩٥

إسماعيل مظهر رجل الفكر وعاشق الحرية

(شخصيات لامعة) دار سنابل ١٩٩٥

زكى مبارك عملاق الأدب

(شخصيات لامعة) دار سنابل ١٩٩٥

أنيس منصور بين بلاد الله وخلق الله

(شخصيات لامعة) دار سنابل ١٩٩٥

محمد طلعت حرب والعبقرية المصرية

(شخصيات لامعة) دار سنابل ١٩٩٥

أحمد حسن الزيات والقرية		
(شخصيات لامعة)	دار سنابل	١٩٩٥
فرح أنطون والمسرح		
(شخصيات لامعة)	دار سنابل	١٩٩٦
شعراء اليقظة الإسلامية فى بداية القرن العشرين		
	دار سنابل	١٩٩٦
عواطف مضطربة	دار سنابل	١٩٩٦
مع الأدباء العرب	دار سنابل	١٩٩٦
أحمد أمين والروح الإسلامية		
(شخصيات لامعة)	دار سنابل	١٩٩٦
دفاعا عن الحق	دار سنابل	١٩٩٦
م.ع. الهمشرى شاعر الريف		
(شخصيات لامعة)	دار سنابل	١٩٩٦
ولى الدين يكن وحياة عاصفة		
	دار سنابل	١٩٩٦
الشعر والشعراء	دار سنابل	١٩٩٧
بواكير	دار سنابل	١٩٩٧
نساء ورجال	دار سنابل	١٩٩٧
محمود مختار وضمير الأمة		
(شخصيات لامعة)	دار سنابل	١٩٩٧
مجموعات	دار سنابل	١٩٩٧

روايات مشهورة	دار سنابل	١٩٩٧
ألوان من الشخصيات	دار سنابل	١٩٩٧
رواد ورائدات	دار سنابل	١٩٩٧
رؤية	دار سنابل	١٩٩٧
خمسون كتابا	دار سنابل	١٩٩٧
أجيال روائية	دار سنابل	١٩٩٧
الحرية تنادى عشاقها	دار سنابل	١٩٩٧
مسرح ومسرحيون	دار سنابل	١٩٩٧
غرام رجل السياسة ورجل المسرح		
	دار سنابل	١٩٩٨
طه حسين والمرأة	دار سنابل	١٩٩٨
جولة قصصية	دار سنابل	١٩٩٨
ملامح فكرية	دار سنابل	١٩٩٨
جوته الشاعر والحب	دار سنابل	١٩٩٨
شخصيات يوسف السباعى		
	دار سنابل	١٩٩٨
يوسف السباعى ناقدا	دار سنابل	١٩٩٨
قيم روحية	دار سنابل	١٩٩٨
أديب إسحق عاشق الحرية		
"تاريخ المصريين" - الهيئة العامة للكتاب		١٩٩٨

الحياة والفكر ومحمد السباعى	دار سنابل	١٩٩٩
أربعون كتابا	دار سنابل	١٩٩٩
مى زيادة	دار سنابل	١٩٩٩
شيخ مستنير ... مصطفى عبد الرازق	دار سنابل	١٩٩٩
واقع وخيال	دار سنابل	١٩٩٩
أصداء خافتة	دار سنابل	١٩٩٩
فى مرآة الآخرين	دار سنابل	١٩٩٩
يوسف السباعى .. قصص وروايات	دار سنابل	١٩٩٩
وجها لوجه مع الشيوعية	دار سنابل	١٩٩٩
ثلاثون كتابا	دار سنابل	٢٠٠٠
محمود البـدوى	دار سنابل	٢٠٠٠
أغنيات يوسف السباعى	دار سنابل	٢٠٠٠
قصـص هـؤلاء	دار سنابل	٢٠٠٠
فى عيـون حـواء	دار سنابل	٢٠٠٠
أقلام مكافحـة	دار سنابل	٢٠٠٠
قالوا فى الإسـلام والمسـلمين	دار سـنابل	٢٠٠٠

شخصيات لها قصص	دار سنابل	٢٠٠٠
عشرون كتابا	دار سنابل	٢٠٠١
فارس الحرية عبد الرحمن الكواكبى	دار سنابل	٢٠٠١
نبضات محمد الغزالى	دار سنابل	٢٠٠١
قمم وأعلام	دار سنابل	٢٠٠١
عشرة كتب	دار سنابل	٢٠٠١

رقم الإيداع ٢٠٠١/٢٩٤٧
الترقيم الدولى I.S.B.N 977 - 5657 - 84 - 9

دار سنابل للنشر والتوزيع

المنصورة ١١٢ شارع السكة القديمة

ت: ٣٧٠٩٠٦

دار سنابل للنشر والتوزيع
المنصورة ١١٢ شارع السكة القديمة


Bibliotheca Alexandrina
06950081